

سقوط
حميد

الطبعة الأولى
1446 هـ / 2025 م

اسم الكتاب: سقوط حميد
المؤلف: ناهد سري أوريك
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 312 صفحة
عدد الملائم: 19,5 ملزمة
مقاس الكتاب: 20 x 14
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2025 / 3779
التقويم الدولي: 978-977-8796-35-3

القاهرة - جمهورية مصر العربية

01012355714

01152806533

elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com



دار البشير



جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة
محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم،
وحسب قوانين الملكية الفكرية، ولا
يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة
نشر أية معلومات أو صور من هذا
الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

سقوط حمید

روایت

تألیف

ناهد سرّیہ اوریک

ترجمة

عبد الرحمن دردير / ريهام صبريه



ناهد سرّية أوريك (١٨٩٥ - ١٩٦٠)

بينما كان يحصّل تعليمه في ثانوية غلطة سراي ترك تعليمه، فربى نفسه بنفسه. عاش بين عامي ١٩١٥ - ١٩٢٨ في مدن مثل تبليسي، وبرلين، وباريس، وفيينا، وروما، كوبنهاجن، وبعدما عاد إلى تركيا عمل في جريدة (جمهورية) وعمل بالترجمة في وزارة التعليم لسنوات طوال. فنشرت مقالاته التي كتبها أثناء جولاته في الأناضول في عديد الصحف والمجلات. وعمل كاتب عمود في صحف مختلفة في آخر أيامه. أول قصصه (Zeynep la courtisane) زينب العاهرة نُشرت بالفرنسية في مجلة صدرت في باريس. لامست موضوعات قصصه ورواياته العلاقة بين الإنسان والمجتمع في المرحلة الانتقالية بين غروب الدولة العثمانية وشروق الجمهورية. كتب أعماله بلغة واقعية بسيطة، تناول في أعماله بقايا الحياة القديمة، العادات وأنواع الناس التي اندثرت، والانغماس المادي والمعنوي لـ (طبقة النبلاء). تُعد رواية سقوط السلطان عبد الحميد التي تناقش الأوضاع الاجتماعية والسياسية في الفترة بين إعلان الدستور الثاني حتى تنازل السلطان عبد الحميد الثاني عن الحكم نموذجًا ناجحًا للرواية التاريخية. قام كمال بكير بتمثيل العمل عام ١٩٧٦ بعنوان (السقوط). جمع مائتين قاياهان أوزجول قصصه في ثلاثة مجلدات: (الحرفيون، صاعقة ضربت المنزل، الأحمر والأسود)، كذلك جمع راشد تشافاش جميع مسرحياته في مجلد (جميع مسرحياته)، ومن بين أهم أعماله ذكرياته التي جمعت (بين نساء العهد القديم) ورواية ذات البطل السلبي (الحقد). نشرت دار أوغلاق جميع أعمال ناهد سرّية أوريك بإذن خاص من ورثته.



الفصل الأول

قرأ السلطان عبد الحميد البرقية التي كان يحتفظ بها مرة أخرى، وعلى شفّيته ابتسامة مريّة. وبعد ذلك على الرغم من استمرار الابتسامة المريّة مرتسمة على شفّيته بث همّة لعزت باشا الذي كان يقف أقرب إليه من تحسين باشا ولو متأخراً قليلاً:

— كم أن بصيرة المرء تقيّده أحياناً! رأيت أنه من غير المناسب تعيينه والياً على (وان) لأن زوجه من أخوات المُحرّرين، فلم أوافق على طلبه، وتركته يتصرف في (سرز) الموجودة في طريق العاصمة. ينتقم الرجل على أكمل وجه لعدم تعيينه والياً!

ابتلع عزت باشا الشامي ريقه، ولكن فضّل ألا يتحدث؛ لأن عبد الحميد الثاني لم ينه كلمته في الأساس. واستمر في الحديث بعد أن صمت للحظة:

— نقلق عندما تصل جارية أخيه لمنصب كاتب جمارك، لكننا تركناه يتحكّم في موقع من شأنه تهديد إسطنبول. فهذه البرقية عبارة عن تحدّ قاطع. يعلمنا بتهور أنه إذا لم يتم إعادة القانون الدستوري في غضون أربع وعشرين ساعة، فستتم مبيعة رشاد باشا. ليتهم يعلمون أن الرجل الذي ينوون تسليمه مقاليد الحكم في لحظة حرجة كهذه سيصبح عاجزاً. يظنون أنني أخشاه لأنني لم أطلق سراحه وعيشت كالسجين. أو جُهِتَ النظر هذه صحيحة؟ نعم، لطالما خشيت أخي، لأنني لو كنت تركته حرّاً لبغى، كان من الممكن أن يُحدث فوضى عارمة لا أستطيع إصلاحها بعد ذلك، أراك لا



تقول شيئاً يا عزت باشا!

لكنه أردف دون أن يعطيه فرصة للتحدث:

— بدأت الكارثة بمقتل شمسي باشا، وخسر التتار كثيراً من الوقت الثمين، وجدوه مذهولاً في سريرته وبرداء نومه، ولا أستوعب هذا القدر من التهور والإهمال. أعلم أن الجميع يتهمونني بسوء ظن، لكن ما يتبادر إلى ذهني لا إرادياً تواطؤ هذا الرجل عثمان باشا الذي رقيته إلى مشير في الأيام السابقة. انظر، أخذوه من (مانستير) بشرط ألا يصيبه أي أذى!

تحدث السلطان عبد الحميد بهذه الكلمات وكلتا يديه خلف ظهره، منحني الكتفين، يتجول في الغرفة دون أن يرفع عينيه عن الأرض كأنه يتحدث نفسه. فكر الكاتب الثاني ورئيس المراسيم السلطانية والعضو الأول في مجلس النواب تحت رئاسة السلطان عزت باشا أن سلطانه في بضعة أيام شاح عشر سنوات، فنظر إليه بقليل من الشفقة:

— أصبحت في ريبة من ولاء القوات التي سأرسلها، ولست متأكداً من أنهم لن يؤذونا حتى لو فصلناهم عن الفرقة الثانية وأرسلناهم. و (رومي)^(١) ملبدة بالأعداء، كيف لي أن أشعل الفتنة بين الإسلام والأتراك؟ لقد تجاهلت، لفترة بعد حرب عام ١٨٩٣، حركة الاستقلال التي اندلعت في ألبانيا قبل أن أقمعها، لكن إذا استمر هذا الفساد في الانتشار، فإنه سيتمدد إلى (تشاتالجا) وسيقطع طريق (أدرنة)، ثم إن ما يُطلب يشمل البلد كله، ويمكنه قلب نظام البلاد رأساً على عقب. يجب مقاومة هذا الأمر

١ — اسم أطلقه الأتراك على أراضي الدولة العثمانية الواقعة في أوروبا التي تشمل الدول المعاصرة الآتية: (اليونان، ومقدونيا، وألبانيا، وكوسوفو، وصربيا، والجل الأسود، وبلغاريا، والبوسنة).



وكبح جماح هذه الموجة. ولكن ماذا لو قام البلغاري بالاعتداء أثناء عملية القمع؟ وماذا لو تدخلت الدول بحجة طلبها لبعض الأمور؟

استلقى السلطان على كرسیه في تعب مضنٍ، كأن كل قوته نفدت فجأة فلم يعد قادرًا على التحدث، فنظر في الأفق من النافذة، فإذا بإسطنبول وأسكدار تغرقان في الظلام وتغطّان في نوم عميق. وعلى الرغم من هذا كان من الممكن الشعور باقتراب الفجر الذي يشرق مبكرًا في ليالي الصيف. انجلى ظلام الليل بشكل ملحوظ، فتذكر حميد وزراءه والمشيرين ووكلاءه الذين أمرهم بتقصي الحقائق وإيجاد حلول، وتحدث قائلاً: "يجمعون منذ ساعات طويلة ولم يتمكنوا حتى الآن من تقديم أي اقتراح مفيد".

استدعي معظمهم دون معرفة حركة (روملي)، ولم يدُر بخلد أنه ظلوا لساعات طويلة يقرؤون صور محادثات لا نهاية لها، وأن الوقت قد مر على هذا النحو.

اقترب عزت باشا العربي قليلاً وانحنى وقال:

— إذا أذنت لي، أود أن أروي قصة.

سمح له عبد الحميد مومئاً برأسه، وقال في نفسه: "ما أكثر قصص عزت باشا".

— كان لوالدك خادم من كتبة سجلاته الخاصة يُدعى خيرى أفندي، التحق بخدمته منذ صباه، كما هو معلوم لجلالته -رحمه الله- بعد فترة من جلوسه على العرش عاد راشد باشا من لندن، وأكد لجلالة السلطان عبد المجيد بلغة قاطعة أنه لا مفر للدولة من التنظيمات الخيرية، وتردد والدك السلطان في التنظيمات الخيرية التي تقيد استقلاله، فاستشار خيرى



أفندي في هذا الأمر. فأعلن خيرى أفندي التنظيمات الخيرية سبيلاً وحيداً للتخلص من سوء الأوضاع آنذاك وحماية الدولة من اعتداء محمد علي باشا والى مصر. وقبل مولانا بهذا. وقال: "بعد زوال أزمة مصر وتصبح الأمور على ما يرام فإنه من حق السلطان تطبيق الأحكام أو عدم تطبيقها". واليوم خادمك يعرض عليك كما عرض خيرى أفندي على جلالة السلطان، بما أن الوضع في روملي حساس، والمقاومة تنطوي على أخطار جسيمة واحتمالات خطيرة، فصدور القانون الأساسي على الفور يمكنه أن يحمى الضجعة القائمة ويهدئ الأمور، ومن بعدها يسلك الطريق الذي يريده ويجذبه.

فكر السلطان عبد الحميد مطأطئ الرأس، فلم ترق له هذه الفكرة كثيراً، بعد أن قبل والده التنظيمات الخيرية لم يستطع أن يسترد ما أعطاه، ولم يتمكن من استرداد السلطة والاستقلال الذي استأثر به للباب العالي. ومن بعدها لم تكن الاضطرابات التي ستجلبها المرحلة الجديدة واضحة، والتي ستبدأ بإعادة العمل بالقانون الأساسي. عندما توالى الكوارث والصعاب في عام ثلاثة وتسعين حل مجلس النواب على الفور، وفرق من حاول أن يتكلم شتات الرياح كعش فرخ مثلما فعل نواب الثورة الفرنسية الكبرى، الذين أزاحوا الملك عن عرشه، لكن حينها كان شاباً لم يبلغ الخامسة والثلاثين، أما الآن فهو يشعر بالتعب والإرهاق والانبهار جراء متاعب الحكم الذي استمر اثنين وثلاثين عاماً، ومرضه المستشري في السنوات الأخيرة، فلم يعد ذلك السلطان القوي العظيم الذي حطم مدحت باشا، الذي ظن أنه وزير للأبد ككأس زجاج دون أن تنزف يده.

كان يهز رأسه ببطء، وشفته تتحركان من خلف شعيرات لحيته وشاربه اللذين غطاهما البياض، رغم أنه لم يتفوه بكلمة. كلا، لم يعجبه رأي واقترح عزت باشا على الإطلاق، كان هذا الاقتراح يفتح الباب على مصراعيه أمام



أسوأ الاحتمالات، ومع ذلك لم يتبادر إلى خاطره أي شيء آخر يمكنه فعله، ولا أي شيء.

كان عاجزاً، ومن الضروري أن يسلك الطريق الذي رسمه عزت باشا. لا يوجد وقت للانتظار، لم تبقَ الحركة في مقدونيا، فهي تتقدم وتقترب. ها قد جاءت البرقية من (سرز) تهدد بمبايعة ولي العهد.

كان عزت باشا يقف منحنياً احتراماً، وقد أدرك أن مولاه على وشك أن يصل إلى قرار في ذهنه، فانتظر. وكان يقف خلف السلطان عبد الحميد الثاني بالقرب من الباب رئيس الكتبة تحسين باشا صامتاً كالتمثال دون حركة، فلم يكن واضحاً ما إن كان يشعر بالأسف أم لا، أو موافقاً على الفكرة التي طرحها خصمه أم لا.

نهض عبد الحميد وقد تغير تماماً بنبرة واثقة وحازمة، رفع رأسه وأقام ظهره بقدر الإمكان، وأمر عزت باشا الرجل الذي رفعه إلى أعلى منصب في الدولة في آخر سنوات حكمه:

— اذهب إلى مجلس النواب وأبلغ الباشاوات بأنني عند بداية جلوسي على العرش قبلت وأعلنت القانون الأساسي. وتأجل تنفيذ أحكامه لفترة بسبب الصعوبات التي ظهرت أثناء التطبيق، لكن الحمد لله بفضل الجهود التي بذلتها لتطوير التعليم ارتقى الشعب وجعل هذا التقدم والتنمية إعادة تطبيق القانون ممكنة. وإذا تأخر الأمر سيؤدي إلى إراقة الدماء، لذلك يجب الإعلان عن عودة الدستور بشكل مناسب إلى حيزيته القانونية. وأمر بالشروع في تحضيرات انتخابات النواب في الولايات والأقاليم المستقلة، وليبلغ بهذا الأمر بشكل خاص منطقة الاضطرابات في (روملي) من (سرز) حتى (مانستير).



بينما كان أحمد عزت باشا يغادر الغرفة منحنياً للسلطان نظر حميد خلفه. هذا السلطان الذي كان على علم بكل شيء، بل كان يعلم كثيراً من الأمور قبل أن يأتيه بها الآخرون، وتساءل عن مدى الكراهية التي يكنّها الشعب لهذا الوزير الشامي الذي يلعبه الغرب بـ(السلطان الصغير)، وأن الشعب قد يطالب برأسه غداً، وهمس بصوت خافت: "من يدري ماذا سيكلفك اقتراح خيرى أفندي؟ يا لك من مسكين!" ثم أدار رأسه ونظر لأول مرة إلى رئيس الكتبة، فإذا بتحسين باشا صامت لا يتحرك كالتمثال تماماً، ينتظر أمر سلطانه، فامتقع لونه. قال له السلطان:

— يا باشا، اذهب إلى مكتبك وجهّز كل ما يلزم لإعداد المراسيم التي ستصدرها الهيئة بعد اتخاذ القرار.

تراجع تحسين باشا نحو الباب منحنياً دون أن يجروء على قول أي شيء، وخرج من الغرفة بتحية أخيرة. عندما احتل عبد الحميد الثاني بنفسه وجد نفسه متعباً، فشعر بوهن أعجزه عن التحرك تقريباً، فاستند برأسه إلى الكرسي لوهلة، وأغمض عينيه محاولاً أن يذهب هذا الإرهاق الشديد.



الفصل الثاني

على رأس طاولة طويلة مغطاة بقماش أخضر داكن كان يجلس أربعة عشر من الباشاوات - أربعة مشيرين وعشرة وزراء - في صمت تام، منهكين من الحزن والتوتر، ولا سيما من الأرق، ينتظرون عودة عزت باشا الكاتب الثاني وقربهم من عند السلطان. وكانت ألسنة لهب الشموع في الشمعدان الفضي تتصاعد.

أفسد دخان السجائر الهواء بدرجة خانقة، لدرجة أن الصدر الأعظم سعيد باشا الملقب بـ (كوتشوك سعيد باشا) أو (شابور شلبي) جال بنظره وسأل قائلاً: "أيسمح بفتح نافذة قليلاً؟!" وبناء على إيحاء عدة رؤوس بيضاء اللحية بطرايش رقيقة حمراء، أمر أحد الخدم ممن يتجولون باستمرار حاملين صينيات السجائر، ويقدمون القهوة والسكر للباشاوات - ومن المحتمل أنهم جواسيس، بل مؤكّد - بفتح نافذة، لكن الهيئة المجتمعة حول الطاولة الكبيرة المغطاة بقماش أخضر داكن كانوا ينتظرون في أكثر أوقات الإمبراطورية حرجاً لتحمل مسؤولية قرار بالغ الثقل، مكونة من رجال في السبعين من عمرهم، وبعضهم قد تجاوز الثمانين أيضاً. بخلاف وزير الداخلية ممدوح باشا الذي كان يصبغ شعره الأشقر ولحيته، كان الوحيد من بينهم وزير المالية ضياء باشا الذي لم تشب لحيته بعد. فلم يتأخر شعور الوزراء والمشيرين الطاعنين في السن بقشعريرة تحتاج أجسادهم بسبب الرياح التي تهب على قمة يلدز مع قرب شهر يوليو. طعن محمد شهاب الدين باشا وزير المالية والأوقاف الأسبق في السن واشتد عليه المرض،



فأعجزه عن القيام بواجبات منصبه، فنُقل إلى مجلس الأعيان قبل عامين ونصف ليتخلص من أعباء الوزارة، وهو الأمر الذي تأسف عليه منذ ذلك اليوم إلى الآن، كان قد تدخل بقوة قبل أربعين عامًا في عهد السلطان عبد العزيز، مستمداً قوته من ترقيته وزيراً. وقال لسعيد باشا الذي ما يزال يتذكر الأوقات التي كان يعمل فيها كاتباً على الرغم من تعيينه صدر أعظم سبع مرات: "تُرى، ألا يكفي تجديد الهواء؟ أرجو منك أن تأمر بإغلاق النافذة".

أظهر الصدر الأعظم موافقته على غلق النافذة، ومع ذلك لم يندم على فتحها، فكان يرى أن في ذلك فرصة لإثبات نشاطه وقوته، لكنه قلق بشأن عرق النساء الذي ذكّره بوجوده مع هبوب نسائم آخر الليل.

بعد أن انغلقت النافذة خيم الصمت والسكون مرة أخرى. فكان من بين الباشاوات من يهمس مع من بجواره، ومنهم من ظل صامتاً دون حراك. وبعضهم غلبه النعاس عندما حل صباح ليلة لم يذوقوا فيها النوم. انفتح الباب فجأة في صمت، وظهر من بين ضلفتيه عزت باشا العربي ودخل متسللاً، لم يكن متعباً، وعيناه السوداوان الكبيرتان اللتان كانتا السمة الجذابة الوحيدة في وجهه الأسمر الصغير ذي الأنف المسطح تلمعان، فتفقد الجميع في لحظة، ثم سار بخطوات بطيئة وهادئة، فوصل إلى المكان الذي سيجلس فيه على الطاولة دون أن يُدعى إليه. وظن الباشاوان الجالسان على جانبي ذلك المكان وهما وزير التجارة والأشغال العامة مصطفى زهني باشا ووزير المعارف هاشم باشا أنه سيمر إلى مكانه المعتاد، فتظاهرا بالنعوض، لكن عزت باشا لم يجلس، واستند بكلتي يديه على الكرسي الخاوي، ملخصاً كلمات السلطان التي قالها كأنها خطاب: "أمر جلالة السلطان بإعادة تطبيق الدستور، وأمر بتبليغ الولايات جميعها والقيادات المستقلة، ولا سيما منطقة سرز والجيش الثالث للشروع في إجراء انتخابات النواب، وبالطبع ستنتشر



الجرائد هذا الإعلان الرسمي".

حينئذ نظر الأربعة عشر باشا إلى عزت باشا في دهشة عارمة، ومن ثم إلى بعضهم، فلم يتصور أي منهم أن السلطان حميد سيتخلى عن مقاومته بهذه السرعة والسهولة، وأن أسلحته ستسلم هكذا. مال الصدر الأعظم سعيد باشا بهدوء في هذه الأثناء نحو وزير الداخلية ممدوح باشا الجالس بجواره، وهمس: "سيدي، ما هذا الاستعجال!"

كان عبد الرحمن نور الدين باشا الذي شغل منصب وزير العدل والشؤون الدينية لمدة ثلاثة عشر عامًا، وتولى منصب الصدر الأعظم لشهرين تقريبًا منذ ثلاثين عامًا، فنشأت صلة قرابة بينه وبين السلطان عبد الحميد بسبب زواج ابنه الثاني، انحنى برأسه قليلاً وبدا غارقاً في أفكار كئيبة. أما محمد شهاب الدين باشا الذي اعتلى منصب الوزارة في عهد علي باشا، فقد كان أكبرهم سنًا وأقدمهم في الوزارة، دل على انفعاله رعشة شديدة انتابت يديه المشعرتين الجافتين ذات العروق. بعد أن أمضى مشير المدفعية ووزير الحرية زكي باشا ساعات طوال يقرأ البرقيات الواردة من (رومي)، والذي عبر عن دهشته بالفرنسية، رفع كتفيه، وبدلاً من أن يقول: «هذا مستحيل»، قالها بالفرنسية: "pas possible".

كان أول من استعاد هدوءه بعد دهشته الصدر الأعظم سعيد باشا ونظيره الأسبق كامل باشا الذي عاد إلى الحكومة قبل يومين في منصب الوزير. جلس الصدر الأعظم على رأس الطاولة، ولم يتكئ على الكرسي كما فعل الباشاوات الآخرون، بل جلس مستقيماً بقدر ما سمح له سنه، دون أن يتدخل في الكلام، وتحدث مخاطباً رئيس الكتبة ضياء باشا الذي جلس عاقداً ذراعيه: "سيدي، يُرجى إعداد المسودة التي ستُعرض على



جلالة السلطان".

ثم قال كأنه يطلب وعينه السوداء واللامعتان تجولان على الجالسين على المائدة جميعهم كأن طلبه بمثابة قرار: "أرجو أن يوافق الباشاوات على إملائي تقرير مجلس الوزراء على الكاتب".

وكان من عادة سعيد باشا دمج بعض الكلمات الفرنسية التي لم يكن قد تعلمها في شبابه في المناسبات جميعها، والتي كان يتحدثها ببطء ولكنها (أرض الروم) العميقة. فكان بعض الباشاوات يقولون في أنفسهم: "حتى في مثل هذه اللحظات لا يتوقف شابور شلبي عن تقديم المعلومات والتحدث بلغة أجنبية".

مال وزير المعارف العمومية مصطفى هاشم، الذي كانت معرفته بالغرب محدودة وكان ساذجاً بعض الشيء، نحو وزير المالية محمد ضياء باشا الجالس على يمينه، وكان يتحدث الفرنسية مع الصرّافين كالماء، وسأله: "هل ما قاله، إن لم أكن مخطئاً في فهمي، يعني الإملاء؟" فأوماً ضياء باشا برأسه بهدوء موافقاً، لكن في اللحظة نفسها حدث ما لم يكن في الحسبان، وهو قرار وإرادة السلطان، اللذان لم يكن التنبؤ بهما ممكناً.

وشرع حسن فهمي باشا، الذي كان يجلس أمام ضياء باشا، والذي كان قد أبعد عن المناصب الوزارية منذ زمن طويل، وعُيّن في مناصب مثل أمين الضرائب ووالي ورئيس ديوان المحاسبات، وتولى قبل عامين رئاسة ديوان الشورى على إثر موت سليمانلي سعيد باشا، في مظاهرة ليبرالية مستوحاة من ذكرياته وهو رئيس مجلس النواب عام ٩٣، فاقترح بلهجة البحر الأسود الخالصة قائلاً: "نضيف إلى هذه المذكرة، التي ستعرض على جلالة السلطان، بنداً يتعلق بالعفو عن المجرمين السياسيين".



عبس عزت باشا، الذي اتخذ مقعده المعهود بناءً على هذا الاقتراح، وظهر القلق، بل والغضب، على وجوه عدد من الباشاوات. وحرك وزير المدفعية مصطفى زكي باشا رأسه الكبير من فوق كتفيه العريضتين، وهمهم قائلاً: "هذا أمر جلل، هذا أمر جلل!"

فحسن فهمي باشا، الذي كان في لندن بحكم وظيفته أثناء احتلال إنجلترا لمصر، وعكف على تعلم الفرنسية منذ أن كان يعمل بالمحامة، كان يعلم أن كلمة (énorme) تعني عظيمًا، جسيمًا، هائلًا. ومع ذلك، لم يفهم معناها عند استخدامها في هذا السياق، لكنه كان خائفًا من جرأة الفكرة التي طرحها، ولم يحاول التحقق من المعنى.

عندما قال كامل باشا القبرصي بصوتٍ خافتٍ -لأن فمه لم يتبقَّ داخله سوى سنة أو اثنتان- وكيل المجلس الوزاري منذ يومين مثل محمد شهاب الدين باشا: "إنه ليس ضروريًا إضافة شيء من هذا القبيل إلى المحضر، وإنه ينبغي دراسة هذا الأمر بشكل أكثر تفصيلًا وعرضه لاحقًا"، انحنى برأسه وسكت.

تنفس الباشاوات جميعهم الصعداء بعد أن شعروا بأنهم تخلصوا من عبء ثقيل. وسرعان ما أملى الصدر الأعظم سعيد باشا المذكرة المقرر أن تُرفع إلى السلطان -أملأها بتعابيرهِ الخاصة- على الكاتب ضياء باشا، ابن بلدة كامل باشا وصديقه المقرب، ثم أخذها عزت باشا العربي ليعرضها على السلطان، أخذها بخفة ونشاط دون أن يظهر عليه أنه لم يغمض له جفن منذ أربعين ساعة، بينما عكف الباقون على انتظار قرار السلطان منهكين غافلين.

حلّ الصباح في الخارج وازداد دخان الغرفة مجددًا. وأضواء الشموع البيضاء، التي أصبح نورها عديم الفائدة لأن الخدم لم يفكروا في إطفائها، ما زالت تتصاعد.



الفصل الثالث

أركب سليمان أفندي (الأورجوبلي)، الخادم المخلص لمحمد شهاب الدين باشا سيده، العربية بصعوبة بالغة: فالباشا، الذي أُصيب بشلل خفيف في ذراعه اليسرى منذ عامين ونصف، أصبح ثقيل الحركة ككتلة حديد، وسليمان أفندي شيخ قد بلغ الستين. بنغ الفجر. وبناءً على أمر السلطان ببقاء الصدر الأعظم في القصر ورحيل بقية الباشاوات، تفرقت شتات الرياح ثلاث عشرة عربية تحمل الوزراء في أنحاء المدينة، مارين بشوارعها النائمة، وفي مقدمتهم عربتا رئيس الوزراء والصدر الأعظم المعزولين كامل باشا وعبد الرحمن باشا. إلا أن عربات الوزراء الآخرين - وكانت معظمها (عربات كوبي) حتى في يوم شهر يوليو الحار هذا - لم تتبع الترتيب المعتاد لتشريفة الوزراء، فنزلت بشكل عشوائي من تلة يلدز، وقد تمكنت عربية شهاب الدين باشا من التقدم إلى المرتبة التاسعة في هذا الموكب.

وكانت هذه العربية قد جُلبت خصيصاً من المجر بخيول بيضاء، ومبطنة من الداخل بالحرير الكحلي. نزلت إلى (بشيكتاش) بعد أن مرت بـ(طاش كاراكول) و(قصر إهلامور)، وتوجهت من (بشيكتاش) إلى (أورطه كوي). وبينما كان محمد شهاب الدين باشا ما زال أمام (قصر إهلامور) شعر بالنعاس. وكان الطريق من (قصر تشارغان) إلى حدود (أرناؤوط كوي) يمر بقصور السلطان وبعض قصور الوزراء الصيفية المحاطة بالحدائق والسياح. وهذا الطريق غير المنتهي، الذي لطالما كان مظلمًا وخاويًا، يكتنفه الظلام المعهود في تلك الليلة، حتى إن شهاب الدين باشا غطّ في نوم عميق. وعلى الرغم من



مروره من جانب البحر بعد (أرناؤوط كوي)، استمر الوزير المسن في نومه.

لم يستيقظ محمد شهاب الدين باشا إلا عندما وصل إلى باب الحديقة الخارجية لقصر (روملي حصار) الكبير، وتوقفت العربية التي كانت تقوم بتهويدة، وأصوات نعال الخيول، بينما كان سليمان أفندي مشغولاً بمناداة الخادم خورشيد، الذي لم يظهر على الفور. وهذا يعني أن النوم المؤرّق، الذي استمر لأربعين دقيقة، كان في فائدة الباشا الهرم الذي يبلغ ثلاثة وثمانين عامًا. فنزل من عربته عند باب جناح النساء، أكثر نشاطاً مما كان عليه وهو يركبها من أمام قصر يلدز، وأقل احتياجاً لمساعدة خادمه.

فما إن وصل إلى الدرج، استقبلته عاملتان مستتان وعلى رأسهما عصابة، فأمسكته من ذراعه. وفي منتصف الدرازين المتعرج للسلم البلوي المزدوج، استقبلته زوجته، وعلى رأسها حجاب أبيض برداء النوم، وابنته برداء النهار، وكان وجهها شاحباً. ويمكن تفسير ذلك بأنه تأثير ضوء الصباح الخافت فقط.

لم ينبس الباشا ببنت شفة، بل اكتفى بابتسامة غامضة. وبينما حلت ابنته نعمت محل الخادمة تشيشمافلك، التي أخذت بذراعه اليمنى، وقالت له: "أبي، ما هذه الاجتماعات الوزارية التي لا تنتهي يا باشا!" وكانت ابنته ترتدي رداءً وردياً، طويلة القامة، شعرها أسود، وعيناها بلون البحر، لها وجه جميل وصوت عذب، لكنه كان غليظاً بشكل يثير الدهشة.

تقدم محمد شهاب الدين باشا دون أن يجيب، ودخل غرفة واسعة أمام دهليز القصر تُسمى (البهو الأزرق) بسبب لون أطقمها. وتكوّم على كرسي بجانب طاولة رخامية مذهّبة في وسط الغرفة، وقال للخادمة تشيشمافلك، التي انتظرت أمره عند الباب بعد أن أدخلته: "لا أريد قهوة ولا غيرها، لا



أريد شيئاً."

بقي الباشا في الغرفة مع زوجته وابنته بمفردهم. فقالت عزة، التي أصبحت سيدة القصر عندما أنجبت له نعمت، وبعد وفاة شريكها الأخيرة قبل ثماني سنوات، مُستكية ابنتها بلغة ما زالت لم تتخلص من اللكنة الشركسية: "لم أسمع بمجلس وزراء يستمر ست وثلاثين ساعة من قبل. حتى إنه عندما حلّ المساء، وسوس لي الشيطان بألف احتمال، فأرسلت حلمي أفندي إلى (يلدز)، وبمجرد أن أخبرني قائلاً: "ما يزال الاجتماع مستمرًا" اطمأنت ووقدت، لكن لم تذق عيناى للنوم طعمًا. ليتنا لا نزعج لولمة! استيقظت صباحًا كالجن، ولما استيقظت وجدت (وأشارت بيدها إلى ابنتها) هذه الهانم لم تتم، ولا حتى غيّرت ملابسها. أخذت كتابًا بهذه الملابس وظلت هكذا حتى الصباح. زوجي العزيز، ما الذي جعل الاجتماع يستمر طويلاً هكذا؟ أهنأك حرب أم ماذا؟

لم يخبر الباشا زوجه، التي يعلم سذاجتها وعدم قدرتها على كتمان الأسرار، عن الثورة في (روملي)، إلا أنه لم يُخفِ علمه المحدود بالوضع عن ابنته، الواصل بحذرهما وكتماهما لأسراره؛ لأن المعلومات التي حصلوا عليها في المجلس كانت جزءاً من الحقيقة. أما ما قالته زوجته قبل قليل، وهو أن الشيطان ألقى في روعها ألف احتمال مساءً، فقد عزت تأخر الباشا مساءً إلى احتمالية تعرضه للتحقيق افتراءً، بل ونفيه، وهي تعلم أنه استدعى إلى (يلدز) صباحاً. فتساءل الباشا: "كيف لم تتمكن نعمت من تهدئة أمها؟ ولم تمنعها من إرسال الخادم إلى القصر؟" لكنه لم يقلق بشأن هذا كثيراً. كان حلمي أفندي، الذي يبلغ الثلاثين ويحظى بمكانة مرموقة لشغله وظائف مهمة، خادماً لكبار الشخصيات وكاتباً خاصاً، وكذلك عضواً في مجلس المدينة، رجلاً ذكياً وحاذقاً. فلم يكن ليبيدي للمتحمسين لإعداد التقارير بقصر يلدز أن هناك قلقاً من السلطان في قصر



محمد شهاب الدين باشا بسؤاله: "أنفي الباشا لأنه لم يعد!" ولم يخطر ببال الباشا أن المتحمسين في قصر يلدز لم يعد في ملكهم القلم، وأنه قد سقط من أيديهم.

أخذت السيدة عزة تشرح كيف بدأ ألمها الناجم عن الحزن والقلق، والمراحل التي مرت بها، وما يجول في ذهنها تفصيلاً. تحدثت بتؤدة، كلمة كلمة، فأصبح حديثها دون معنى. بيد أن الباشا رغب في أن ينفرد بابنته ليخبرها بما حدث وليتشاطرا همهما. وكان متأكداً من أن نعمت شعرت بقلق عظيم.

خشي الباشا أن يغلبه النعاس وهو يستمع إلى حديث زوجه عديم النفع، المستمر كخزير الماء. فنهض بصعوبة، وبعدها قال لزوجته: "ما زال الوقت مبكراً، اذهبي إلى الفراش حتى ولو لم تنامي لتستريح، وتأكدي أن لا شيء يدعو للقلق." التفت إلى ابنته وقال: "نعمت! تعالي إلى غرفتي، ساعديني أنت في خلع ملابسي." وبناءً عليه، سار الأب وابنته - تقدمت نعمت الباشا - إلى دهليزين كبيرين يفصل بينهما حاجز زجاجي، وذهبا إلى نهايتهما حيث الغرفة التي ينام فيها الباشا بمفرده منذ سنوات طوال. وكانت غرفة نوم نعمت في الطابق الثالث فوق غرفته تماماً.

دخلا معاً إلى إحدى أكبر غرف القصر، الذي لا يحوي غرفاً صغيرة. وباستثناء الكرسي القابع على يمين السرير الواسع المنتصب في الأعلى كالعرش، ويصعد إليه بثلاث درجات كبيرة، فالمقاعد الموجودة بطول النوافذ، والأرائك المغطاة بالحرير، وكتابات الآيات والأحاديث على الحوائط، تعطي للغرفة هوية العهود السابقة. وعندما يشتم الباشا النشوق أو يحتسي قهوته في فنجان مذهب، جالساً على إحدى الأرائك برداء نومه



أو ثوبه الصيفي، فهذا يعني أنه وزير يناسب فترة محمود الثاني أو على الأقل عبد المجيد، وليس آخر فترة عبد الحميد الثاني.

جلس محمد شهاب الدين باشا على الكرسي القابع على يمين السرير، وكان ظهره عريضاً، وقماشه من القطيفة الحمراء التي نالت شرف أن أتى بها الباشا إلى هنا بعد أن كانت من ضمن الأمتعة التي جلبها خصيصاً من فيينا لتكون في نُزل (نیشان طاشي). وتحدث قائلاً: "أنا مرهق لدرجة أنني لا أستطيع خلع ملابسي وارتداء ثوب نمومي".

منع ابنته بإشارة من يده أن تنحني لتخلع حذاءه وتلبسه نعليه، فكان واضحاً أنه يريد أن يخبرها بما حدث في المجلس. وبناءً على ذلك، تراجعت نعمت قليلاً وسألته وهي واقفة:

— بالتأكيد تم بحث وضع (روملي) أليس كذلك سيدي؟

— نعم، تلقينا المعلومات عما يحدث هناك لحظة بلحظة أثناء الاجتماع، وأشارت هذه المعلومات إلى أن الوضع يزداد سوءاً.

— حسناً، هل اتخذ أي قرار يا باشا؟

رد محمد شهاب الدين باشا بصوت واهن:

— اتخذ قرار.

— هل تم استبدال تثار عثمان باشا؟ بما أنك تقول إن الوضع يزداد سوءاً، وأنه لم يتمكن من النجاح.

هزّ الباشا كتفيه وربما لم يُجب ابنته لدقيقة، خجلاً تقريباً من أن يُخبرها بأن تثار عثمان باشا ربما أُسر برداء نومه بالتواطؤ مع الثوار، وأُرسِل إلى جبال



رسنة. ثم أجابها بحياء، بصوت حريص على ألا يُفصح عما إذا كان مؤيداً أو معارضاً، فقد وجد هذا الحذر ضرورياً حتى أمام ابنته العزيزة:

— أمر جلالة السلطان بإعادة (المشروطة)^(١) في اللحظة الأخيرة، وكذلك المجلس بإعداد تقرير وعرضه على المجلس.

خيّم صمتٌ موحش مرةً أخرى، كأن حجراً ثقيلاً تدحرج إلى وسط الغرفة، حال بينهما وجعلهما لا يقدران على الحركة. استجمع الباشا قواه بعد هنيهة، ووضع يديه على ركبتيه مسترجعاً في مخيلته المشاهد التي سبورها:

— لم يكن رفقائي المقيمون في ساحل الأناضول أتوا عندما وصلت إلى القصر. وصلوا ظهراً -بعد تناول الطعام- فبدأ الاجتماع. حضر الوزراء كلهم حتى رئيس الأركان الجديد، ماعداً شيخ الإسلام ووزير البحرية ووزير الأوقاف الذي ما يزال في أوروبا. أحضر عزت باشا الرسائل والمستندات القادمة من (رومي) وقرأها علينا. وفتناً لفداحة الوضع منذ أن بدأ الاجتماع؛ لأن الصدر الأعظم افتتح المجلس بإخبارنا أن الضباط المتمردين اقتادوا عثمان باشا إلى الجبل، وأن المجلس انعقد للنظر في هذه المسألة. وبعد استماع الصدر الأعظم للمذكرات والرسائل الواردة أخذها وبدأ يقرؤها علينا واحدة تلو الأخرى منذ أن بدأ الاجتماع. فكان مفاد تلك الرسائل اتساع رقعة (الحركة)^(٢) وازدياد أهميتها، لكنني أظن أن الرسالة

١_ بدأت المشروطة الثانية أو الحقبة الدستورية الثانية للدولة العثمانية بعد ثورة تركيا الفتاة في ١٩٠٨ التي أجبرت السلطان عبد الحميد الثاني على إعادة دستور ١٨٧٦ ومجلس النواب العثماني. وقد علق عبد الحميد الثاني مجلس النواب والدستور سنة ١٨٧٨ بعد عامين فقط من العمل.

٢_ حركة تركيا الفتاة أو الشباب الأتراك هي حركة إصلاح سياسية في أوائل القرن العشرين أرادت استبدال الملكية المطلقة للسلطنة العثمانية بحكومة دستورية.



الأخيرة هي التي أثرت على قرار السلطان.

— وما الذي كُتب فيها يا أبي الباشا؟

تردد محمد شهاب الدين باشا لحظة في إجابة سؤال نعمت الذي سأله بصوت هاديء وتؤدة وكذلك في البوح بمفاد الرسالة، ثم أجاب حذرًا كأنه يفشي سرًا عظيمًا:

— أتت الرسالة من (سرز)، أرسلها المتصرف رشيد باشا باسم الجيش والشعب، مفادها أنه إذا لم يأمر السلطان بإعادة القانون الأساسي في أقرب وقت فسيبايعون ولي العهد السيد رشاد. لم يشأ السلطان مقاومة هذه الحركة التي أظهرت توسعًا وأمر عزت باشا بإبلاغ قراراته للمجلس.

— ألم يكن هناك نقاشات حول أمور أخرى سوى قراءة الرسائل؟

— هب بعضهم لانتقاد أفعال الماضي، ومن بينهم زكي باشا وهاشم باشا اللذان أدليا بتصريحات تُعد توصية بمقاومة الحركة.

لم تجرؤ نعمت هانم أن تسأله: "وماذا عنك؟ هل أظهرت دليل ولائك الذي دام لثلاثة وثلاثين عامًا لسلطانك؟" بيد أن السؤال جاء على شفيتها فأحس الباشا الهُرم، ورأى ضرورة الدفاع عن نفسه:

— إن المسؤولية الكبرى في هذا الأمر تقع على عاتق أولئك الذين لم يستوعبوا الموقف منذ اليوم الأول، ولا سيما المفتش العام حسين حلمي باشا الذي أنف من عرض كل خطير يخص الأمر على الرغم من أنه كان

وقادوا تمرّدًا ضد الحكم المطلق للسلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٨. وبعد تلك الثورة، ساهم حزب تركيا الفتاة في تأسيس عصر المشروطية الثانية. ١٩٠٨.



يعرض سفاسف الأمور كالشمس. ولو أن السلطان أرسل على الفور قائدًا مخلصًا بصلاحيات أكبر مثل المرحوم شمسي باشا بدلًا من تثار عثمان باشا الذي فشل ولم يستغل الوقت، وولاه جزءًا من الفرقة الثانية، لأصبحت السيطرة على الوضع ممكنة.

— حسنًا، وماذا فعل سعيد باشا في الاجتماع؟ كيف تصرف؟

— لم يحرك ساكنًا. انعقد لسان سعيد باشا الذي لم يفوّت فرصة للتحدث في أنفه الأمور، وظل ينظر حوله في الوقت نفسه كأنه يفحص أحشاءهم. فمن الواضح أنه كان يراقب أولئك الذين يبدون مؤيدين لإعادة القانون الأساسي ليتمكن من اتهامهم في حالة انتصار فكرة المقاومة وكذلك سيفعل مع من أظهروا تأييدهم للمقاومة ما إن تمت إعادة القانون الأساسي.

رأت نعمت -ربما كانت محجفة- أن لمشاعر الحقد والعداوة التي لطالما كان يضمرها أبوها تجاه سعيد باشا دورًا كبيرًا في هذا التصور. لم تقل شيئًا، فخيم الصمت مرة أخرى على الغرفة.

خلع الباشا طربوشه وبقي بالقلنسوة البيضاء التي كان يرتديها تحته. وحقق في الفراغ بعينيه البنيتين الممتزجتين باللون الأزرق اللتين انطفأ بريقهما، فبدأ الوزير الهرم غارقًا في أفكاره ثم قال في النهاية:

— صدر في الجرائد صباحًا إعلان رسمي ليلّغ الولايات والمناطق المستقلة ببدء الانتخابات في أقرب وقت لانعقاد (مجلس المبعوثان). هل سيفهم الشعب المغزى ويتجاهل الأمر؟ أم أن الوضع سيتخذ طوره القديم بعد أن يعم الهدوء ويزول الخطر؟ كل هذا مجهول، نسأل الله أن يجعل العاقبة خيرًا للدين والوطن.



ثم أردف في حالة هَرَمٍ يحتاج إلى المساعدة فقط شاعرًا بالبرد في يوم دافئ:

— ساعديني الآن يا ابنتي في خلع ملابسي مع (جولندام)، فقد أجهز عليّ الأرق. أود أن أشرب كأس لبن باردًا وأنام. ولا توقظوني ما لم يأت خبر من قصر السلطان أو الصدر الأعظم.

فامتلاً قلب نعمت هانم التي لم تكن تحب إلا أباه بركة الأم وشفقتها على إثر صوته المتعب المرهق.



الفصل الرابع

بعدما أسكت محمد شهاب الدين باشا نفسه عما يود قوله وأخذ ابنته وذهب، شعرت عزة هانم أنها مسكينة مثيرة للسخرية. فتلك المرأة التي بلغت الخمسين كجواني القصر المحررات ارتضت لنفسها الحادي والأربعين بصعوبة وتظن أنها ليست ابنة زوجها، بل حفيدته وجدت نفسها في وضع يُرثى له أكثر من زوجها العجوز الأولى التي ماتت قبل ثمانية عشر عامًا؛ لأنه دنا من السبعين وكان يحترم زوجته المسنة التي انحنى ظهرها ويستشيرها في أموره كلها. بيد أن علاقته بعزة هانم اقتصرت على تدليك ركبتيه المتألمتين منذ سنوات طوال. كان كل شيء ابنته فإن كان هناك أمر فابنته وإن لم يكن. وبالطبع الفضل في تخلصها من العبودية وتحريرها وإنقاذها من أن توهب لكاظم وأن تصبح زوجة ثالثة في هذا القصر الفخم في (روملي حصار) ونُزل (نیشان طاشي) الفاخر وكذلك أن تسمي سيدة القصر مع الوقت يرجع لإنجابها نعمت، لكن على الرغم من أنها تعلم ذلك جيدًا لم تمنل لابنتها، بل انتابتها مشاعر غيرة أحيانًا منها، فعانت لسنوات طوال عدم إصدار الأوامر، وعدم السيطرة على حياة ابنتها وتصرفاتها، ورؤية أن كل شيء في القصر والنزل طوع أمرها. فأشتكت عندما انفردت بنفسها في البهو الأزرق بعد مغادرة زوجها وابنته:

— أكما يقول أهل المدينة؟ شر كسية بعقل عصفور؟ على ما تحزين وتضيعين نفسك سدى، أتظنين أنه سيشكركِ على كل هذا فتهبين ببث حزنكِ له؟ ها هو لم يستمع لكِ حتى، لقد ضيَّعتِ عمركِ في سبيل هذا



الهرم. فما هو الشباب؟ وما هو الحب؟ وما هو أن يحب المرء؟ لم تشعرى.
زاد صداها بالفعل فغادرت البهو ذاهبة إلى غرفة نومها حيث علب
الدواء التي ستذهب آلامها في الأدراج راسية. عبرت الدهليز في صمت
واتجهت إلى جناحها في الطابق الأعلى.

كان جناحها المكوّن من أربع غرف في الطابق الثالث وغرفتها الكبيرة
حيث تنام والتي تحوي ثلاث نوافذ تطل على منظر خلّاب يشمل (بيكوز)
و(يوشا) ابتداءً من (كانليجا) فيمتد في الطرف الآخر إلى (أميرجان) و
(إستينيا) حتى (يني كوي)، لكن عزة هانم كانت ترى هذا المشهد من
خلف القضبان كل صيف، منذ أن خُصص لها هي وابنتها بعد أن تزوجت،
وكان مكافأة لها لإنجابها نعمت. بيد أنها لم تشعر قط بالحاجة إلى الاقتراب
من إحدى النوافذ للاستمتاع بجمال هذا المنظر الخلّاب. بينما كانت تقول
إنها لا تعرف معنى أن يحب المرء ويُحِب وما هو الحب، وإنها لم تذق له مذاقاً،
مكتوية بنار الغيرة التي تضمّرها لابنتها وإهمال زوجها، لم تأخذ في حسابها
علاقتها المستمرة منذ ثمانية عشر عاماً، وتنسى براءة ملذاتها الآثمة التي
ذاقتها وما تزال جراء هذا الذنب.



الفصل الخامس

لم يُوقظ الباشا من نومه فاستمر إلى ما بعد الظهر حتى العصر. جلست نعمت منذ وقت طويل وفي يدها إبرة تحيك بها في الغرفة الصيفية المطلة على الحديقة الخلفية والمتاخمة لغرفة نوم أبيها. وكان قد أتى ضيف إلى جناح أمها، كانوا من (قنديلي)، ليوم واحد. فقد كانت تعيش نعمت مع أكثر من خمسين شخص في القصر المطلي باللون الوردى ذي الأرصفة العريضة في مقدمته المكوّن طرفاه من طابقين وأوسطه ثلاثة طوابق. ولم يكن من بين كل هؤلاء أحد يعلم بما تمر به ومن شأنه أن يهز أركانها سوى اثنين: الهرم الذي لا يمكنه الاستيقاظ بحال، وتلك الشابة التي كانت تنتظر فسخ خطبتها، ويدور في رأسها آلاف الاحتمالات والافتراضات، بينما كانت تحيك قميصاً لنفسها دون أن تلقي نظرة لإيقاظ أبيها بنفسها. عندما فتح الباشا عينيه أخيراً أخرج من تحت وسادته ساعته الذهبية الكبيرة المفلطحة التي كان أهدها إياها حمّاه لزوجته الأولى وولي نعمته محسن باشا، ثم نظر فعلم أنه نام ثماني ساعات متصلة في الغرفة المنسدلة أستارها. عندما صفق يديه دخلت الوصيفة (جولندام) - شر كسية من قرية بالقرب من (أدابازاري) بيضاء كاللبن، طويلة القامة بعينين زرقاوين - فكان أول ما قاله لها:

— أين الهانم الصغيرة؟

دخلت نعمت من الباب الجانبي دون الحاجة لذهاب الخادمة ودعوتها؛ لأنها سمعت صفقته، ونظرت إلى أبيها الطاعن في السن بابتسامة محبة:



— نمتَ جيِّداً ما شاء الله. زال تعبكَ، أليس كذلك يا سيدي؟

— أنتِ أيضاً كنتِ آرقه يا عزيزتي؟ أنمتِ واسترحتِ؟

— نعم يا سيدي.

لاحظ شهاب الدين باشا في تلك اللحظة فقط أن ابنته أحضرت الجرائد فمد يده، وأخذ يحول بنظره في الجرائد الثلاث: (صباح)، و(إقدام)، و(مترجم الحقيقة). كانت الجرائد الثلاث متشابهات في العرض والطول والمظهر. وبالطبع لم تكن مصوّرة، لكنها تحوي الإعلانات الرسمية بعد توزيع الرتب والأوسمة في الصفحات الرئيسية. ونشر في عدد يوم الجمعة في قسم (التوجيهات) بأكمله منح رتب وأوسمة أقل درجة لأناس غير مهمين. وورد أول بيان رسمي أسفل تلك الأخبار معلناً عن الثورة بطريقة جافة غير مفهومة، أي أن السلطان حميد أعاد الدستور متخلياً عن نظام الحكم المطلق، لكن كم كان هذا المقال يشبه اللوحة التي أزيلت ألوانها البرّاقة بتميرير إسفنجة فوقها. لم يتمكن محمد شهاب الدين باشا من ملاحظة أدنى صدى للاجتماع الذي استمر ست وثلاثين ساعة والأزمة التي نتجت عنه في هذا البيان الرسمي.

— لم يرد خبر من القصر، أليس كذلك؟

— لا يا أبي. لا من القصر ولا من الباب العالي.

— وما أخبار القرية؟

— لم يُسمع أي شيء، لكن دعنا نسأل مرة أخرى يا سيدي.

ذهب سليمان أفندي ناقل أخبار الباشا إلى مخفر الشرطة ليقصص الأمر. لا، فلا يوجد جلبة ولا احتجاج، ولم يُر أي تصرفات مخالفة للأدب والولاء



في حي (روملي حصار) ولم تُرصد أي تحركات. ولم يرد سوى أن البدالين من (سالونيك) رفعوا الأعلام في بعض الأماكن (بإسطنبول) وهتف بعض الناس المجتمعين أمام (الجامع الجديد) "يحيا السلطان" أثناء مرور مسيرة السلطان عائدة من صلاة الجمعة.

عندما وقف الباشا لأداء صلاة العشاء أتى أحد جنود الباب العالي راكباً جواده. وفي اليوم التالي -أي يوم السبت- ورد خطاب موقع من الصدر الأعظم سعيد باشا يفيد بأن مجلس الوزراء سيجتمع في الباب العالي بعد الظهر بساعتين.

استقلت نعمت هانم ثلاثة قوارب مزدوجة أبحرت في تلك الأثناء من (جوكسو) متجهة إلى (كانليجا). ومن خلفها -خلفها قليلاً- ابن مرافق السلطان المشهور المشير عبد اللطيف باشا وهو أحد نائبي السلطان أيضاً السيد سادات الذي خطب نعمت قبل أربعة أشهر بناء على أمر السلطان يتبعها بقارييه. لكن السيد سادات كان متجهاً من ساحل الأناضول إلى (تشوبوكلو) حيث القصر الأبيض الكبير الذين يمشون فيه صيفاً. بينما كانت نعمت ذاهبة إلى ساحل (روملي) عن طريق خليج (كانليجا). وعندما أبحر قاربها ليعبر إلى الضفة الأخرى أشاحت بوجهها غير مكترثة بالتعليقات التي تلقتها من القوارب الأخرى ونوافذ القصر. وحدّت في الشاب الأشقر المستلقي على قاربه الزاهي ينظر إليها مبتسماً في الضوء الأحمر الذي أهدته الشمس للغروب، فنظرت نظرة أطول وأعمق من المعتاد.

أرادت نعمت أن ترى ذلك الشاب -في كل هذا الزي والبهاء ولو لآخر مرة- الذي لم تنفوه معه بكلمة، لكنها يتوددان لبعضهما بالتقاء نظراتهما من العربة أو القارب من بعيد منذ ثلاث سنوات. عندما نهض والدها وارتدى



ملا بسه صعد السلم وذهب إلى (جوكسو) مصطحباً خادمته تشيشا فلك التي أعدت القارب، وكانت قد كبرت بين يديه لذا كان يحبها كثيرًا.

تمنت نعمت أن تجد سادات هناك كما هي العادة كل يومي جمعة وأحد. بيد أنها لم تستبعد احتمال غيابه. فالبيان الرسمي الشاحب الذي لم يغادر القصر الوردي بـ (روملي حصار) أدخل بنظام القصر الأبيض (بتشوبوكلو)، وربما دفع عبد اللطيف باشا إلى عدم إخراج ابنه العزيز وأن ينزوي هو وأسرته بين أربعة جدران. فظلت نعمت تفكر منذ الصباح فيما حل بعبد اللطيف باشا في هذه الفترة التي يتبادر اسمه إلى خلدتها كلما ذكر النفي، والاعتقال، والتحقيق، والتقارير، والتجسس.



الفصل السادس

في صباح اليوم التالي استيقظت نعمت مبكرًا مع الشمس فانتظرت الجرائد على أحر من الجمر. وعندما أتت جالت بنظرها سريعًا في صفحاتها فلم يعد هناك توزيع للرتب والأوسمة. فكانت أعمدة الصحف التي زاد عددها بانضمام جريدة (ثروة الفنون) اليومية تمجد الحرية إلى عنان السماء. فكانت تقدم الشكر والامتنان للسلطان معلنة أن الأمة أصبحت حرة سعيدة حتى إن مظاهر الفرح في جريدة (إقدام) بلغت حد هذيان وجنون نوبة المرض بأهات وصيحات تتكرر عدة مرات في كل سطر. وعندما أتت جولدنام وأخبرتها أن الباشا استيقظ و ينتظرها ركضت نعمت إلى غرفة نوم أبيها.

وجدته يجلس على أريكته يقرأ القرآن مرتديًا نظارته الذهبية، فعادة الباشا أن يقرأ القرآن كل صباح ويختمه كل ثلاثة أشهر، لكن لم يمنعه إخلاصه وورعه الذي لم يصل إلى حد الزهد في أمور الدنيا من ملاحظة مجيء ابنته وفي يدها الجرائد. وما كاد يصل الوزير الهرم إلى نهاية الآية أغلق المصحف بدعاء مقتضب واضعًا المصحف على حامله الصدفي المرتفع باحترام. وأخذ الجرائد على الفور. أمعن في قراءة جريدة (الصباح) وهو يهز رأسه والبقية من بعدها. فربما يرى البدء بجريدة الصباح أولًا مناسبًا؛ لأن رتبة صاحبها مهران أفندي أعلى درجة من رتبة صاحب (إقدام) السيد أحمد جودت والسيد محمد جودت صاحب (مترجم الحقيقة). ويبد أنه التزم بهذه الأصول مجددًا لها، بقيت جريدة إقدام هذه المرة وقتًا أطول بكثير في يده. فبعد أن رمق جميع صفحات الجريدة غير مكتفٍ بقراءة العناوين الرئيسة



التي يتكرر فيها آهات فرح قرأها بعناية مرة أخرى.

نظر الباشا إلى ابنته الجالسة في صمت على كرسي أحمر جوار السرير. حنى رأسه وانسحبت على شفثيه عبارة: "ليجعل الله عاقبته خيرًا!" وملامح القلق والألم بادية على وجهه، لدرجة أن نعمت وجدت أن تظهر مطمئنة:

— لا يوجد ثمة إساءة للسلطان، بل يتكرر شكر وامتنان لا نهائي.

فرح الباشا الذي لم يرزق بأولاد بعد موت ابنه لزوجته الأولى في ريعان شبابه بخمسة عشر عامًا بإنجاب نعمت -كفرحة طفل- التي أتت في حين لم يكن في باله أن ينجب، فرباها بعناية موليتها اهتمامًا قلما يظهر حتى للذكور. لم يفوت تقديم نتاج خبرته مجددًا؛ لأنه لم يلحظ أن ابنته ما تحدثت إلا لتهديته:

— انظري يا ابنتي، صحيح أنهم يتحدثون باحترام وامتنان عن السلطان، لكن من أين أتى هذا الاحترام والامتنان؟ فطالما أن الإدارة منذ اثنين وثلاثين أو ثلاثة وثلاثين عامًا سيئة للغاية -أي منذ اعتلاء السلطان للعرش- وحكم باستبداد خيف ووصلت البلاد إلى حافة الخراب، فلا يمكن في تلك الحالة أن يكون الاحترام والامتنان صادقين، فكلاهما مزيفان. وعندما يحدث هذا فمن يضمن لي أن لن يشار غداً إلى السلطان الذي لا يجوز الإساءة إليه ورجاله وكذلك رجال الدولة جميعهم واحدًا واحدًا بأصابع الاتهام جراء هذه الإدارة الفاسدة؟! بالطبع سيشار إليهم. وعلى الجانب الآخر أَلن تتحرك غداً الدول الأجنبية التي قدّرت السلطان ولم تستطع مخالفة النظام الذي أقامه وتسعى لتقسيم ميراثنا؟ أَلن يعاون على ذلك اثنان وسبعون أمة طوعاً أو كرهاً يعيشون داخل حدودنا؟! فليجعل الله العاقبة خيرًا ويحفظنا.



أنبتت هذه الأدعية من مخاوف محب لوطنه؟ أم أنها أمني؟ أم أن السبب الحقيقي وراء هذا القلق والأمنيات عدة مخاوف شخصية؟ هل الأموال والسندات في البنوك والحلي والممتلكات وأعلى الأثاثات الشرقية والغربية التي تملأ قصر (رملي حصار) ونُزل (نیشان طاشي) جميعها نتاج نقود حلال والمدخرات الشهرية؟ بينما لم تجد نعمت إجابة لعلامات الاستفهام التي دارت بخلدها لأول مرة، وظلت تفكر متأملة لوحة كبيرة معلقة عند رأس سرير الباشا على الجدار المزين برسومات حافظ عثمان لمزهريات مليئة بالزهور.

كان فكر الأب وابنته منشغلاً بأمور معقدة يصعب حلها، فلو لم تتسلل (بولدوم) من فتحة الباب لربما خيم الصمت لدقائق أطول في الغرفة. (بولدوم) هرة رمادية وجهها جميل رآها الخدم وهي تحاول أن تتسلل من أحد أبواب متاجر القرية، فأعجبته فأحضرها قبل شهرين إلى حلمي أفندي الذي كانت زوجته مولعة بالقطط. عندما استقرت في القصر وتوفيت قطّة الباشا الغالية (باموق) وبوجود هذا المنصب شاغراً تولته (بولدوم) من مكتب الخدم فراق لها ذلك وقامت بوظيفتها محققة سعادة لم تسبق لهرة، كانت تتسكع أمام متاجر القرية. بعدما دخلت (بولدوم) تقدمت في زهو واثقة من نفسها. قفزت من فوق الوسائد المجاورة للأريكة التي كان يجلس عليها الباشا بجوار السرير، حتى إنها وكزت بصداقة طبيعية ذراعه المتكئة على ركبته وجذبتة فوجدت هذه الركبة أنسب مكان لها مؤمنة لنفسها أكبر مكان، وكانت لهذه الدرجة لا تعباً بشيء آمنة مطمئنة، حتى إنها ذكرت الباشا بمخلوق آخر يجول هذا القصر بالعقل الصغير نفسه في طمأنينة وتؤدة، وهو زوجته. سأل الباشا ابنته:

— أليس لأملك علم بشيء؟!



أجابته نعمت باحتقار تورطت فيه ولم تستطع إخفاءه:

— وكيف لها أن تعرف؟ تعلم أنها لا تقرأ الجرائد.

— لا تقرؤها أبداً، لكنها ستأخذها اليوم وتقرؤها، قد يبلغها ضيفها ومتملقوها بشائعات كاذبة، يا إلهي! دبّري أمركِ عزيزتي، لا أود أن ألفظ أنفاسي محاولاً تهدئتها.

علقت الكلمات الأخيرة في فم الباشا، فدخلت عزة هانم بسرعة. ترتدي ثوب نوم باكستانياً أبيض لا تخلعه من عليها طوال اليوم في أغلب الأوقات، تبدو مضطربة بوشاحها الذي عقدته على جبينها، مقطّبة الحاجبين، شاحبة الوجه، لدرجة أن محمد شهاب الدين باشا رمق ابنته بنظرة تقول: "أصابني ما كنت أخشاه!"

عندما وصلت إلى وسط الغرفة قالت لاهثة وهي تصرخ:

— يا إلهي يا باشا! جميع أرصفة القرية ومتاجرها زينت بالأعلام. كأن القيامة قامت! منح السلطان الحرية للشعب لذلك يحدث كل هذا. سيجلس سلطاننا من الآن في قصره دون أن يتدخل في أي شيء. ماذا يحدث يا باشا؟ وماذا يعني ذلك؟ أتمنى ألا يحدث سوء، وألا ينقلب الوضع رأساً على عقب.

أفكار منطقية. ارتقت زوجه في نظره فجأة إلى إنسان بملكة استشراف المستقبل والاهتداء إلى الحقيقة بقوة حواسه! حاول الباشا تهدئتها وتسكين قلقها بالحديث معها. ثم أثر الباشا أن يرتدي ملابسه ليصبح مستعداً لأي طارئ، وليتمكن من الذهاب على الفور ما إن أتت دعوة قبل الظهر من (يلدز) أو الباب العالي. ولم تكن لتأتي دعوة من هذا القبيل، لكن أثناء تأديته



صلاة الظهر في جامع القرية بلغه أن الخادم حلمي أفندي عاد من المدينة ويريد رؤيته.

بينما ذهب كبير الخدم حلمي أفندي إلى المدينة منذ الصباح بعربته الرابعة ذات الخيول الهَرَمَة الجافة والعجلات الخالية من الإطارات تحمل صناديق من المؤن واللوازم، مع أنه كان له نُزُل مخصص له، لماذا عاد سريعاً؟ ولم يريد مقابلة الباشا على الفور؟ استدعى الباشا ابنته التي ذهبت قبله بقليل مع أمها، وأمر في الوقت نفسه بإحضار حلمي أفندي وأنصت لما حكاه حلمي أفندي قَلْبًا عن الوضع في إسطنبول.

تزينت المدينة بأكملها بالأعلام، وطاف المتظاهرون جماعات في الشوارع. ذهبوا أولاً إلى وزارة المعارف وأنزلوا الوزير هاشم باشا من مكتبه في الطابق العلوي إلى الباب الخارجي، وأجبروه على حلف يمين الولاء للدستور، وتعرض الوزير لإهانة بعض الرعاع من المتظاهرين، حتى قيل إنهم بصقوا على وجهه. وبينما وصل جمع من الحشد إلى وزارة العدل عندما غادر حلمي أفندي اتجه جمع آخر إلى رئاسة الجيش، وقد ازداد عدد المتظاهرين بشكل مخيف، وأُشيع أنهم سيتجهون إلى قصر يلدز ويطالبون برؤية السلطان عند القصر، وأنهم سيقاومون ولن يبرحوا حتى يروا السلطان.

نظرت نعمت بقلق لم تستطع إخفاءه إلى والدها الذي يتوجب عليه أن يكون وسط هذه المدينة الثائرة بعد ساعتين على الأكثر.

استمع الباشا بهدوء وحزم دون أي تغير في لون وجهه وملامحه. وبعدما تناول طعامه ركب عربته -المبطنة بالحرير الكحلي- التي أتت أمام القصر للذهاب إلى الباب العالي في الوقت المحدد. بيد أن عبارة "بسم الله الرحمن الرحيم" التي أعتاد قولها عند الركوب خرجت قوية من فمه أكثر من أي



مرة، لدرجة أن سليمان أفندي الذي جلس في العربة وأخذ بيده لم يسمعها وحده، بل سمعها الحوذي مظلوم أفندي وهو واقف بتؤدة يمسك لجام الخيل في يده.

بعد أن انطلقت الخيول في طريقها سريعاً التفت الحوذي لسليمان أفندي بهدوء:
_ الآن بدأت مخاوف الباشا.

فلم يحبه سليمان أفندي.

وقد علم كل من بالقصر وجناح النساء والرجال بالوضع في إسطنبول، وغدا الخدم والجواري جميعهم سياسيين، فتلك الحرية سبب بفضل الله ونعمته في أن يتخلصوا من كل أنواع العمل والتعب منتفعين برغد القصر، فريسات الخدم والجواري في جناح النساء يتوسلن ويرسلن باستمرار الخادومات إلى القرية والسوق فيستقصين الوضع في إسطنبول ويخبرن الهانم بالأخبار التي حصلن عليها بمبالغات متعمدة.

أرسلت عزة هانم التي ازداد حماسها بالأخبار التي تحملها إليها الجاريات؛ لأنهن لم يجدن وجهاً من ابنتها أبداً إلى رئيس الخدم في نُزله الصغير أسفل الحديقة الخلفية عندما اقترب المساء ولم يظهر الباشا، وعندما علمت أنه لم يعد أيضاً دعت ابنه سليم - كما يطلق عليه الجواري فيما بينهن سليم بك - فأعطته تعليمات وأرسلته إلى الباب العالي. ورأت نعمت أن إرسال شاب يُعد طفلاً إلى الباب العالي ليستطلع حال أبيها سخفاً، لكنها مثلاً لم تستطع أن تحول دون إرسال رئيس الخدم إلى (يلدز) لم تتمكن من منع ابنه من الذهاب إلى إسطنبول.

_ هذا ليس ضرورياً يا أمي، مضي وقت العصر، فأينما يكون والدي فسيأتي.



أجابتها أمها:

— أأينما كان فسيأتي يا صغيرتي؟ وما يدريك أنه لن يستمر ست وثلاثين ساعة مثل اجتماع النواب أول أمس في يلدز؟

أصرت عزة هانم فرضيت نعمت؛ لأنها تعلم أنها إذا ما أرادت منعها فستلجأ أمها التي تلعب دور الزوجة المتعلقة بزوجها ببراعة إلى سلاحها الجاهز أي دموعها وتكره نعمت هذه الدموع الكاذبة. على الرغم من ذلك كانت نعمت تتوق في قرارة نفسها منتظرة عودة ابن رئيس الخدم على أحر من الجمر، لكن الغلام الذي يحب التجول في الشوارع ويزيد تسكعه كلما كبر عمره يذهب لجلب الأخبار السارة أو الخزينة فلا يعود. وصل الباشا أمام حديقة جناح النساء بعربته المبطنة بالحرير الكحلي قبل عودة رئيس الخدم أو ابنه، وسلم الباشا الذي نزل من عربته بمساعدة سليمان أفندي نفسه لأذرع الخادما عندما أصبح عند بداية السلم الحجري الكبير.

بدا الباشا منهنكاً ومنغمساً في تفكيره. وبعدها حكى بهدوء كأن الحياة وردية أمام عزة هانم كما يفعل دائماً شرح حقيقة الأمر كما هو عندما انفرد بابتته. حاصر المتظاهرون الباب العالي منذ الظهيرة فلم يُسمع ما يقال في اجتماع الوزراء من الجلبة والهناتفات، فاضطر الصدر الأعظم عدة مرات إلى قطع حديثهم والخروج لاستقبال ممثلي المتظاهرين، بل لجأ مرة إلى الصعود على صخرة مرتفعة ليتحدث إلى الجموع الغفيرة.

قالت نعمت:

— لقد أعاد السلطان المشروطة منفذاً ما طلبوه. فماذا يريدون أكثر من ذلك؟



هز محمد شهاب الدين باشا رأسه:

— يا إلهي! مطالبهم لا تنضب. يطالبون أولاً بعودة المنفيين جميعهم وإعلان العفو العام. فلو كان من بينهم مفترى عليه أو بريء أو مظلوم فهناك أوغاد وأشرار أيضاً. فإن أصبح جميعهم أبطالاً، أستنعم المدينة بالهدوء والأمن؟ انتشرت عبارات عن طرد ومعاينة اللصوص والجواسيس، لكن ما يدريك أن الشرفاء لن يتعرضوا لافتراء بينما يُبحث عن اللصوص والجواسيس؟

عمّ صمت وعندما وردت عبارة جاسوس تذكرت نعمت عبد اللطيف باشا، لكنها لم تذكر ذاك الاسم، وأردف أبوها دون أن تنطق بكلمة:

— قبيل المساء استقبل الصدر الأعظم وفداً يدّعي أنه يتقدم باسم (الجمعية)^(١) وربما في الحقيقة هو يتحدث عن نفسه. وأخبره أعضاء ذلك الوفد أن بعض الأشخاص في نظر الجمعية محكوم عليهم، ولا بد أن يتركوا مناصبهم من الآن، وكلما حدث ذلك بسرعة كان أفضل. ولم يذكروا اسماً من رجال القصر، من الواضح أنهم يخشون تخويف السلطان. وبعدما اكتفوا بقول جملة من قبيل «هم من يوقعون بين السلطان وشعبه، ويحرضونه على الشك فيهم»، أصرّوا على تغيير وزير البحرية ومشير المدفعية، وطلبوا من

١ _ جمعية الاتحاد والترقي التي أصبحت بعدها حزب الاتحاد والترقي هي منظمة ثورية سرية تأسست باسم جمعية الاتحاد العثماني في إسطنبول يوم ٦ فبراير ١٨٨٩، وأنشأها مجموعة من طلبة الطب في مدرسة الطب العسكرية الكبرى. وتحولت فيما بعد إلى منظمة سياسية وأصبحت الفصيل الأول في حركة تركيا الفتاة. وفي الغرب اندمجت الجمعية مع حركة تركيا الفتاة الأوسع وأطلق على أعضائها اسم أعضاء تركيا الفتاة، بينما عُرف أعضاؤها داخل الدولة العثمانية باسم إتحادجي أو كوميتجي، وتعني الودوديين والمنتهمين إلى الجمعية على التوالي.



الصدر الأعظم أن يقنع السلطان بضرورة إجراء بعض التغييرات وإعلان العفو العام في أقرب وقت، بيد أن سعيد باشا لا يجزؤ على عرض مثل تلك الأمور على السلطان، فغدا مندهشاً!

فسألت نعمت:

— ترى ماذا يفعل السلطان؟ أهو على علم بهذه المظاهرات؟

هز الوزير كتفيه:

— ألن يكون للسلطان علم والمدينة ثائرة هكذا؟ استدعوا الصدر الأعظم إلى يلدز أثناء اجتماعنا وتفرقنا على إثر ذلك، أسبب هذه الدعوة مهم؟ أم رغبة في مناقشة الوضع؟ سنعلم غداً.

— أهنأك اجتماع وزراء غداً مجدداً؟

فأجاب الباشا باندهاش على عكس اللازم والمعتاد:

— ألا يمكن للوزراء إن يجتمعوا كل يوم في مثل هذا الوضع؟

لو كان هذا السؤال غير المنطقي من عزة هانم لربما لام المسكينة.

لما لزم الذهاب إلى الباب العالي كل يوم لم يعد الباشا متقاعدًا من وظيفته في مجلس الوزراء ومعزولاً في زاوية، فعندما يجتمع الوزراء كل يوم على رأس الطاولة يتحدث الوزير الهرم في أمور الدولة ويدي بصوته. وإن حاصر المتظاهرون الباب العالي غداً وتعالق هتافاتهم تصبح الدقائق المخيفة التي يقضيها هناك أكثر شغفاً، فلا يمكن مقارنتها بساعات الفراغ في قصره.

وجدت نعمت أباهاراضياً رغم مرضه وحزنه ونشيطاً على تعبته.



الفصل السابع

هذا يعني وجوب تخصيص وقت أطول كل صباح لقراءة الجرائد؛ لأن أعدادها في تزايد كل يوم. تبعت جريدة (طانن) جريدة (ثروة الفنون) اليومية وتبع طانن غيرها من الجرائد. وقرأهم الباشا كل يوم جميعهم خافق القلب يفكر ملياً في أنه سيحصل على نصيبه يوماً من الإهانات التي تصدر تجاه غيره.

لم يتضاءل غضب الشعب، بل استشرى. انتشرت أمنية رئيس مجلس الشورى حسن فهمي باشا -أي الرغبة في العفو العام- في الصحف انتشار النار في الهشيم، والتي أفسحت المجال لدهشة وقلق بقية الباشاوات الذين عزلهم بناء على إعلان السلطان إعادة الدستور في مجلس الوزراء ليلة العاشر من يوليو، ونزل عشرات الآلاف في الشوارع مطالبين به. ونتيجة لعجز (وزارة الضبطية) المكلفة بحفظ أمن المدينة ووزارة الحربية التي تعاونها عندما يلزم الأمر، شمل العفو المجرمين الأندال الذين تعج بهم سجون إسطنبول، وتدفع المجرمون في الشوارع، حتى القتلة الذين كانوا يقضون فترة عقوبتهم على جرائم ارتكبوها قبل عدة أيام.

يظهر سعيد باشا في مجلس الوزراء المجتمع كل يوم أكثر حدة وشكاً وانفعالاً في كل مرة، ويشك في المجتمعين حول هذه الطاوله بقدر ما يشك في أهالي إسطنبول الثائرين بالخارج. وكان يظن سعيد باشا أن كامل باشا القبرصي الذي سلبه منصب الصدر الأعظم مرتين، وفي المرة الأولى لم يستطع هو الحفاظ على منصبه واستمرت ست سنوات، بالطبع سيطمع



مجددًا في منصب سعيد باشا، غير مكثف بمنصب مجلس الوزراء، ولم يشك في تكوينه علاقات سرية في القصر. إضافة إلى أن جمع شيخ الإسلام جمال الدين أفندي الناس أمام باب المشيخة -دون أن ينسى دعوة الصحفيين الأجانب- دون أن يستأذن سعيد باشا ويستشير أغضبه، وكذلك خروج علي أفندي الزنبيلي بوقاره في مشهد عظيم أمام ذلك الحشد مقسمًا يمين الولاة لدستور الخليفة والمصحف في يده.

إن كان يرى السلطان حميد ضرورة القسم على الدستور، أما كان يتوجب على سعيد باشا إعلان ذلك لشغله منصب الصدر الأعظم؟! وكيف لسعيد باشا أن يتحمل ظهور شخصين يتحدثان باسم السلطان في مجلس المشروطة ويمثلان الدولة وأحدهما -ليس سعيد باشا- يدعي أن له صفة شبه مقدسة؟! وفي كل اجتماع لمجلس الوزراء يتوكأ الوزير الهرم على عصاه يجرجليه المتألمين جرجاً، ويركض على إثر نداءات المتظاهرين التي يعلو صداها أكثر مع مرور الوقت. وكلما ذهب إلى ديوان الباب العالي أو السلم دار بخلد أن خصومه بالمجلس الذي غادره للتو تعاونوا ليهينوه أمام الحشد المرتفعة أصواته الهادرة لإجباره على الاستقالة، فكان يمضي آخذًا في اعتباره كل الاحتمالات. وبعد أن يستمع إلى خطب شتى غير متماسكة ويرد عليها قاطعًا عباراتها، فيسكن القلق ولو لساعة، ويستمر التصفيق طويلاً، ليعود في كل مرة إلى مجلس الوزراء شاعرًا بالنصر في قلبه. وكلما دخل قاعة المجلس يعتذر عن تأخره للأعضاء الذين لا يجلسون دون أن يمضي إلى مكانه على رأس الطاولة، واقفين على أقدامهم المتألمة مثل قدميه، ويرغب في إطلاق قهقهة انتقام، لكنه يصل إلى مكانه دون أن يبح صوته مستعدًا لصراعات جديدة برأسه المسيطر على جسده الذي لا يتحكم به من خصره إلى أسفل، ويتكوّم على مقعده. ثم يطرح المشكلة تلو الأخرى متعمقًا في



التفاصيل دون أن يصل إلى قرار، مما جعل المجلس منعقدًا إلى ساعات متأخرة من الليل، فأرسل الباشاوات المهزّمة إلى قصورهم منهكين.

وفي مجلس الوزراء، رغم مرور الأيام، استقال واحد فقط من هؤلاء الوزراء برغبته وأتى غيره، أي أن وزير المعارف هاشم باشا استقال بمجرد أن بلل البصق وجهه، فحل محله المستشار القانوني للباب العالي السيد حقي الذي لم يتقلد أي منصب وزاري من قبل. ولم يغادر أحد من الباقين.

لم يغادر أحد قصر السلطان بعد. فكل في منصبه بداية من عزت باشا وتحسين باشا إلى أبي الهدى أفندي وعبد اللطيف أفندي. افتقرت صيحات الكراهية والإهانة المتصاعدة في أعمدة الصحافة وهتافات المتظاهرين وتلاحمهم للقوة التي من شأنها الإطاحة بكل هؤلاء الرجال، ولا بواحد منهم حتى.



الفصل الثامن

دخلت نعمت وفي يديها الجرائد بينما كان محمد شهاب الدين باشا يجتسي قهوته غير المحلاة في قدح وعاؤه فضي كعاداته كل صباح، وعندما شرب آخر رشفة ومد قدح القهوة إلى جولندام المنتظرة وفي يدها صينية ابتسم باستخفاف وقال لابنته:

_ أزدادت الأعداد مرة أخرى؟

_ لا، لم تصدر جريدة جديدة اليوم.

_ ما شاء الله!

ترددت في بث القلق الذي بداخلها، لكنها سألت بشكل بيدي هذا القلق:

_ أجذبوا أحدهم مجددًا؟!

فأضاف خائفًا بحذر:

_ أهنأك شائعات حولي، قولي لأري.

_ لا يا أبي والحمد لله، لا يوجد أي شيء. لكن جرائد اليوم مليئة بالأحداث المهمة.

سأل تحت وطأة التعب الذي مر به وشعر أنها ليست مهمة طالما لا تخصه:



— وما تلك الأخبار المهمة؟!

— عزل السلطان زكي باشا بشكل غير مباشر، وهرب وزير التجارة والزراعة سليم ملحمة باشا بمساعدة السفارة الإيطالية، واستقال وزير المالية ضياء باشا.

لم يتبادر إلى ذهن محمد شهاب الدين باشا أنه لا يحق للسلطان عزل الوزراء وفقاً لأحكام القانون الأساسي، ولم يعبأ بهروب ملحمة باشا الذي لا يوجد له مكان بين الوزراء على الرغم من حمله لقب وزير، لكنه اهتم بالخبر الثالث فقط. سعد خلسة بتعرض آخر من شغل المنصب الذي تولاه ثلاث مرات لعدة سنوات لكارثة، لكن رأى من الواجب التظاهر بالحزن:

— ضياء باشا مدين بمنصبه لعزت باشا وكان دائماً تحت سلطته، لكن قول إنه رجل غير كفء ظلم. ومقارنة بأقرانه المقربين نظيف باشا ورشاد باشا فهو ذكي وقوي، فلم يُتصور أن يواجه مصير هاشم باشا. غادر المجلس بالأمس مبكراً وعاد إلى الوزارة، هل أهين في مكتبه أم في الشارع ليستقيل؟ هل هذا موضح في الجريدة؟

— لم يُجبر ضياء باشا على الاستقالة يا سيدي. لم يعجبه مجلس الوزراء ولم يجد أعماله صواباً فانسحب وقدّم استقالته للجرائد.

تكرر الباشا فجأة ومد يده وأخذ كل الجرائد التي في يده ابنته، وبعدما وضع نظارته ذات الأذرع الذهبية مقلباً نظره في صفحات أول جريدة أمسكها وعثر سريعاً على الاستقالة فقرأها بغضب. جلست نعمت على كرسي أمامه وراقبت الأفق من النافذة، كأنها لم تحفظ ذلك المشهد من اعتيادها على رؤيته.



بعدما قرأ الباشا الاستقالة والتصريحات حولها والإعجاب بالوزير المنسحب، ألقى الجرائد جانباً ورفع رأسه وتبادل الأب وابنته النظر:

— قرأت هذا يا نعمت، أليس كذلك؟!

— قرأته يا أبي.

— وما رأيك؟

أجابته براحة وثقة إنسان تولدت قناعة داخله:

— علم أن هذا المجلس ومن به يترنحون. فسعى لتقوية منصبه في المجلس الذي سيشكل قريباً.

أغمض الباشا عينيه ولم يجب لفترة، مؤكداً على ذكاء ابنته خلال هذا الصمت، وأعجبه.

ربما استمر الصمت لدقيقة في الغرفة، وكأن نعمت هامت في مشهد المضيق من النافذة، والتقت عيناها بعيني والدها مجدداً عندما أدارت رأسها، فقالت الفتاة الشابة:

— أبي، أيها الباشا، أنعلم فيم أفكر؟ لعلك تقدم انتقادات لازعة وتعلن للجرائد استقالتك أيضاً، فمثلاً يمكنك أن تقول إنك لا تستطيع أن تزامن في المجلس نفسه وزير بحرية يدعو لسرقة الشعب، وتحول اسمه بين الجنود من رامي إلى حرامي. فإن سرّ ذلك من الضربة التي ستوجهها لسعيد باشا فسُتقدّر فعلتك هذه على أي حال.

بعدما هز الباشا رأسه كأنه يقول: "لا يمكن أن يحدث شيء كهذا، لا أستطيع فعل ذلك". تحدث قائلاً:



_ ضياء باشا رجل حديث العهد، أنا من منحه رتبته، فكان يقبل يدي حتى بالأمس القريب. فهو وزير منذ سنتين وأنا منذ أربعين سنة، فلا يمكنني أن أدير ظهري للماضي بسهولة وارتياح مثله. أردف بعدما فكر لدقيقة: هيا لأطأ على ذكرياتي وأفعل مثلما فعل دون أن أولي أهمية لأي شيء، فلست أنا من نقل صلاحيات الباب العالي إلى يلدز وحرص السلطان على استبداده، بل سعيد باشا. فالسبب وراء عدم استقرار الأمور تردده وحساباته الخفية، لكنني لست متأكدًا من أن استقالته ستكون في مصلحتي، إنما قد يكون لها أثر سلبي. دعينا ننتظر لنرى ما سيحدث.

هزت نعمت هانم كتفيها:

_ فلننتظر، وماذا في ذلك؟ فلننتظر، لكن الأحداث لا تنتظر، فهي تتلاطم كأمواج البحر.

ارتعد الباشا فجأة، فابنته التي لم تقصر يومًا في احترامها ولو لمرة تعارضه. أهبت رياح (الحرية والمشرولية) في قصره أيضًا لتقلبها ضده؟ فلم يبذل الوزير الهرم أي ردة فعل.



الفصل التاسع

بينما سينهض محمد شهاب الدين باشا بعد قليل ليرتدي ملابسه للذهاب إلى اجتماع الوزراء الذي سينعقد بعد الظهر، تذكر أنه لن يرى اليوم اثنين من رآهم أمس على طاولة الاجتماع. ترى من سيكون وزير المالية الجديد؟! فقد اضطر السلطان عبد الحميد الذي بلغ الثمانين قبل سنتين ونصف، وعلى الرغم من كونه لا يقوى على تحريك ساكن إلى إزاحة ذلك الهرم من وزارة الأوقاف، إلا أنه تمنى لو عُرض عليه منصب وزارة المالية في هذا الوقت العصيب الذي أثقل فيه كاهل الوزارة. ولو عرض عليه لوافق دون تردد، لكنه بينما يعبر الجسر ويقترّب من الباب العالي، سرعان ما يتحول أمله إلى خوف. فبعد أن أزيح وزيران في وقت متأخر من الأمس أحدهما أجبر على الوزارة، أمستحيل أن يلحقه المصير نفسه اليوم ظهرًا؟! أليس ممكنًا أن يُعرض عليه أمر مكتوب بإقالته من وظيفته عندما يدخل الباب العالي؟! اطمئن عندما وجد نفسه داخل مجلس الوزراء جالسًا على كرسيه دون اعتراض، لكن إلى متى ستستمر هذه الطمأنينة؟ الباب العالي محاط بالمتظاهرين كعادته، وبينما تستمر مباحثات المجلس في قاعته تأتي صيحات من الخارج: "فليسقط" وامتزجت بأصوات: "فليحيا". وقد حكى وزير البحرية أن عربته أثناء مرورها تعالت لها صيحات الاستهجان، وتعرض لشتى أنواع الإهانة. كان يتحدث عن تلك الأمور براحة وهدوء شديدين، وكبر لا يمكن الوصول إليه، كأنه يتحدث عن إهانة أحد غيره. أنبت هذه الطمأنينة من كونه بريئًا وخاليًا من كل الجرائم والآثام؟ أم أن حسن رحمي



باشا واثق في أن السلطان سيسترد سيادته وسيبقية في منصبه؟!

بعدما انقضى مجلس الوزراء، وبينما وجد الباشاوات البالغون السبعين والثمانين وعُزل نصفهم من مناصبهم أغواتهم ينتظرونهم كالعيد، رأى محمد شهاب الدين باشا رئيس خدمه - كان يحرص المحترم حلمي أفندي ألا يختلط بالأغوات، لأنه حصل على لقب أفندي عضوًا في مجلس المدينة - ينتظره بين الأغوات، فسأله:

— من أين أتيت هكذا يا مولانا؟ أمن مجلس المدينة؟

لم يكن حلمي أفندي أتى من مجلس المدينة فحسب، بل بعد التجول في عدة أماكن. فذلك الرجل الذي كان - كأمثاله - يقدم تقارير للقصر في عهد السلطنة عن سيده، كان صادقًا في الأخبار التي سمعها حول منصب سيده الذي يعد ضروريًا من أجله، منذ أن بدا قصر يلدز منشغلًا بشؤونه؛ لأن هذا الأفندي سقط في مخاوف شخصية، وقد جاء راكضًا إلى الباب العالي بعدما حسب ما يمكنه التحدث به إلى سيده، وبعد أن شكر محمد شهاب الدين باشا منحنياً أخبره أن هناك ثمة أمور يود عرضها عليه. فحظي بشرف نادر مجددًا، أي أن الباشا أجلسه في عربته، فسمح له بالجلوس منكمشًا على يساره. فحكى حلمي أفندي في الطريق.

هناك حقد تجاه رئيس مجلس المدينة رشيد ممتاز باشا، وما أجمع هذا الشعور كون ابنه صهر عزت باشا. وقرر أعضاء الأمانة من الأحرار ومن انضموا إلى الجمعية أو الذين تظاهروا بذلك البصق على وجهه في مكتبه إذا تأخر عزله لعدة أيام أخرى.

صمت حلمي أفندي لوهلة بعدما أوضح هذا الأمر لسيده، فمن الواضح أن صمته انتظار لأمر باستكمال الحديث، فقال الباشا:



— على كُلِّ، ليس هذا ما أتيت إلى الباب العالي لتقوله، أخبرني بما تودّه حقًا يا حلمي أيّا كان، لكن ليس من الصعب توقّعه من هذه البداية، فمثلما أن مصاهرة عزت باشا ستضر رشيد ممتاز باشا، كذلك زواج ابنتي من ابن عبد اللطيف باشا قد يضرني، أصبحت الخطبة على كل الألسنة؟ أقيل لك شيء عن هذا الأمر؟

— نعم، شاع أنك يا سيدي ستصاهر ابن عبد اللطيف باشا، وظلت التساؤلات منذ الصباح من قبيل: "كيف لوزير محترم أن يزوّج ابنته الوحيدة من ابن عدو للأمة مثل عبد اللطيف باشا؟"

— وبِمَ أجبت من يسألون مثل هذه الأسئلة؟

— قلت إنه أصبح من الضروري الموافقة بأمر من القصر، لكن لم يعد الأمر حتميًا الآن.

هز محمد شهاب الدين باشا رأسه، ولم يدعُ رئيس خدمه إلى التحدّث أكثر.

لم يرَ الوزير الهرم أحدًا مناسبًا لابنته طوال سنوات، حتى إنه أوصلها إلى سن العنوسة وفقًا لعادات الزواج بين الناس، بيد أنه قبل على مضض تزويج ابنته من ابن عبد اللطيف باشا السيد سادات، بناءً على أمر السلطان الذي أبلغه به صانع ملابس السلطان. وقد صدر هذا الأمر بعدما اقتنع السيد سادات بحبه لنعمت، حيث إنه كان يقابلها بعربته أو قاربه في أماكن تجوله داخل المدينة وخارجها في (سوق باي أوغلو) شتاءً، و(كاغيت خانة) في الربيع، وفي (ديوان يولو) و(شهزاده باشي) في رمضان، وفي (جوكسو) و(فنار بهشة) صيفًا. ولمّا أدرك أن الشابة لا تكثر له وأنه لن يجرؤ على عرض الزواج عليها مباشرة أرسل أمه إلى جناح النساء بقصر السلطان،



ونال ما أراد بأن جعل أمه تتوسل زوج السلطان الثالثة وأم أحب أبنائه برهان الدين. فكر محمد شهاب الدين باشا أن يرفض هذه الخطبة في اليوم التالي لإعلان الحرية، معتبراً أن الإكبار في زمن الاستبداد قد تلاشى بعد الثورة، وبذلك يتجمل أمام محبي الحرية، لكن خوفه من عبد الحميد الذي استمر في استبداده حتى النخاع حال دون قيامه بذلك.

عندما عزل السلطان عبد اللطيف باشا من وظيفته في القصر قرر في البداية محمد شهاب الدين باشا أن ينتظر بعدها فسخ خطبة ابنته؛ لأنه لم يعد لرغبة السلطان السابقة بتزويج ابنته من ابن رجل فقد دعم السلطان معنى، ولم تعد سارية. وبينما تأخر عزل عبد اللطيف باشا يزداد تشويه سمعته كل يوم في الجرائد أكثر، حيث يتعرض الباشا إلى كراهية أشد وطأة وأخطر من الرأي العام، فالرجل الذي عاش أشبه بالسجين في قصر (تشوبوكلو) بناء على أمر بالآ تطأ قدمه قصر السلطان على الرغم من أنه لم يُعزل رسمياً، ظل محتفظاً بألقابه ونياشينه، لكن كان يبدو أنه سيجر إلى السجن في المستقبل القريب.

لم تكن نعمت مضطرة أن تراعي الأفكار التي كبلت يديها أمام السلطان، فبملكها أن تفسخ هذه الخطبة، ويمكن للباشا أن يقول إنه ضعف أمام ابنته فلا يسعه أن يجبرها على الزواج من رجل لا ترغبه.

حدث محمد شهاب الدين باشا نفسه متأملاً هزة عربته: "تعلم نعمت بالطبع أخطار هذه الزيجة، فلماذا لم تفسخ الخطبة من نفسها؟ فتزويج ابنتي من ابن رجل يبغضه الشعب إلى هذه الدرجة أمر لا يُغتفر، فلماذا لم تقدر ذلك؟" وتساءل شاعراً بالحزن: "أم أنها تحب هذا الرجل لدرجة أنها تفضّله على أبيها؟"



يرى الهرم الذي دنا من قبره مستقبلة الخاوي الذي لا بد وأنه سئم منه أهم لأيامه الأخيرة من سعادة ابنته طوال العمر. وابنته ناقمة عليه لأنها ربما تفضل سعادة عمرها دون تردد على شرف أبيها ورخائه في أيامه المعدودات، وحزنت لهذا، لكنه سيغير رأيه عندما يدرك أنه جعل ابنته ناقمة عليه بالباطل، وأحزنها عندما يعود إلى القصر ولا يجد نعمت هناك، ومن المعلومات التي سيحصل عليها عندما يقابل زوجه المغطى رأسها بالحجاب.

أتت نعمت قبل ساعة لأمها وأعطتها خاتم الخطبة والهدايا التي حصلت عليها من عبد اللطيف باشا وزوجه مديحة هانم والسيد سادات نظير الخطبة، وكذلك صورتها، فرصت عزة هانم كل هذه الأشياء في صناديقها على طاولة الكتابة، وقالت:

— حاولت أن أجعلها تراجع، لكن.. أتسمع كلامي؟ لم تعطني فرصة لأتحدث، وقالت: «أريد أن أبقى بمفردي الليلة، سأشرب الحساء وأنا م بكرًا». ثم خرجت. وبعدها شربت الحساء أغلقت عليها بابها، يا إلهي يا باشا! فأنت لا تسمع كلامي لذلك سنعاني دائمًا من تصرفاتها، تلقت هذه الفتاة مختلف العلوم على يد المرأة والرجل المسلم والمسيحي، لدرجة أنها فقدت جنسها، فمن الآن لن يعجبها زوج آخر، فلن ننعم برؤية أولادها.

— لم أفهم يا هانم! فكل ما حدث هذه الأيام لا يمكن لأحد أن يفهمه. أخذت نعمت في اعتبارها أن أنصار المشروطة والحرية لن يغفروا لي تزويجي ابنتي لابن عبد اللطيف باشا، لذلك تخلت عنه، ربما خلعت خاتمها من إصبعها وقلبها منقطر، لكنها فعلته في الوقت المناسب، لأنهم مثلما لم يغفروا لرئيس مجلس المدينة تزويج ابنه من ابنة عرب عزت باشا، بدأوا يقولون عليّ أحاديث غير لائقة، لأنني سأزوّج ابنتي من ابن عبد اللطيف باشا.



فقلت عزة هانم دون أن تفهم إجابته:

_ لكن رشيد باشا زوّج ابنه بحفل زفاف فخّم، أما نحن فكانت مجرد خطبة.

فأجابها محمد شهاب الدين باشا ملوحًا بيده بأقصى قوته:

_ الحمد لله أنها مجرد خطبة، فتُفسخ وينقضي الأمر، وإلا -نعوذ بالله-
لكنك غرقت في شربة ماء مربوطاً من قدميَّ بحبل مع عبد اللطيف باشا.



الفصل العاشر

لم تزعم نعمت أنها ضحت من أجل أبيها بقرار فسخ خطبتها، لأنها لا ترغب في حما زُج به في السجن بعدما عُزل وتجرد من أوسمته ورتبه وحُكم عليه ولا في زوج يمحو مستقبلها بأكمله. بيد أن سادات بوجهه الذي زين مخيلتها منذ ثلاث سنوات تصورته وتجسد في مخيلتها ببشرته البيضاء وشاربه الأشقر وعينه البنيتين الواسعتين بنظرتها الراقمة، فاحترقت في ألم الأمور التي لم تكن والآمال والأحلام التي لم تتحقق. فكانت تتساءل: "أسأعاني هذا الألم، فيحزن قلبي وتصاب يدي برطوبة باردة؟ ترى أسيستم ذلك كثيراً؟"

لا، لم يستمر طويلاً، فقد كان حداد حب لم ينفذ إلى جسدها ولم يتغلغل في قلبها ولم يثر فكرها أبداً، فبقي تقريباً متعة للعنين، فبعد أن تركها مؤرقة حتى الصباح دون أن تدمع لها عين انتهت قبل صباح اليوم الجديد فوجدت نعمت نفسها في صباح اليوم التالي إنساناً آخر. أخرجت من حياتها السيد سادات فأصبح فؤادها فارغاً. وأول ما فعلته عندما استيقظت أخذت الجرائد وجالت بنظرها في صفحاتها وبحثت ما إن كان هناك أخبار أو مقالات عن أبيها أم لا. فبحثت عم اسم أبيها ورأت أنه من غير الضروري النظر إلى الأسطر التي وردت ضد عبد اللطيف باشا على حدة، إلى أن التقت بمقال قصير فجأة في مكان لم تكن تتوقعه، في الصفحة الثانية لجريدة (صباح) التي مازالت تعتقد أن يلدز الجاد الرصين، بل والحذر ما زال لم يقل كلمته الأخيرة بعد. فقرأت المقال بحمرة من تلقى لكمة في وجهه وبروح من أصيب بمرض معدٍ دون أن يتفاجأ بالأعراض التي ظهرت



عليه. عنوان المقال (مجلس الوزراء ليس دار عجزة) وبعدها وردت أسئلة في المقال من قبيل: "ألن ينسحب بعد حرامي باشا وهل سيظل ممدوح باشا في منصبه والذي يستمر في تقديم خدماته الخبيثة لقصر (يلدز) في شؤون متعلقة بتعيين السيد حمدي العميل السري في وزارة الضبطية، واستمرار الرقابة على البريد وتأخير العفو العام؟" استمر المقال على النحو التالي:

"ففي مجلس الوزراء من لا نعرف شيئاً عن عفتهم ونزاهتهم وهناك من نرغب في أن نحكم ما إن كانت ثرواتهم الطائلة نتاج ادخار أم ماذا، وهناك هَرْمَى قد بلغوا من العمر أرذله فلم يعد بملكهم سوى الجلوس على سجادة الصلاة والدعاء لخير هذه الأمة. وفي مقدمتهم محمد شهاب الدين باشا الذي تعين في مجلس الوزراء بعدما أصبح شبه متقاعد للعصر القديم ونراه يذهب كل يوم إلى الباب العالي وهو يغفو في عربته مترنح الرأس يمنية ويسرة. فكيف لنا أن نضمن أنه لن تأخذ الهرم المسكين سنة وهو يناقش أكثر القضايا أهمية ومصيرية في مجلس الوزراء؟ وكيف لنا أن نشق أنه سيصيب في رأيه إن أيقظوه ليصوت في مثل تلك الأمور؟ فمتى سنمنح الفرصة لذلك الهرم المبارك الذي وهب نفسه للأمة مقابل مئات العملات الذهبية منذ عهد السلطان عبد العزيز لينام في قصره الرائع ونزله بارتياح مرتدياً قلنسوته؟"

بعدها فكرت نعمت لوهلة في أن تخفي هذه الجريدة علمت أن هذا التصرف لن يكون مناسباً، فإن علم أبوها بطريقة أخرى سيكون الوضع مذكرياً، فأعطته نسخة من جريدة (صباح) أولاً:

— هناك مقال وقع عنك يا سيدي.

أخذ الباشا الجريدة ساعياً إلى إخفاء عجلته وقرأ المكان المشار إليه.



فالهَرَم الذي عمل في الوزارة لمدة أربعين عامًا واعتاد أن يُذكر اسمه قبل هذا وإلى الآن بعبارات الاحترام فيوضع قبل اسمه دائمًا كلمة (حضرة) أو (رجل الدولة) شعر بالإهانة، ليس لتلك العبارات الأخرى، لكن لذكر اسمه وقبلة كلمة (باشا) فقط، فكان المقال اختبارًا حقيقيًا لكبريائه وأعصابه، ونجح الوزير الهَرَم من اجتياز هذا الاختبار بنجاح ونظر إلى ابنته بهدوء بدا أنه مصطنع، وسألها:

— أحنزنت؟

وأردف مقهقهًا:

— فهذا هو عصر المشروطة الرائع! لا بد من التأقلم على كل شيء، ولكن لا تدعي أمك تعرف بهذا، تعلمين أنها تغالي في الأمور.

حافظ الباشا على تصرفه الهادئ والطبيعي خلال الساعات التي قضاها في قصره بيد أنه بينما كان يركب عربته للتوجه إلى الباب العالي توقف لوهلة وفكر ما إن كان سائسه وخدامه المخضرم قد لاحظا غفواته داخل العربة أم لا، وكذلك هل تحدثا قائلين: "أستعثر هذه الجثة الحية وهي مترنحة على علاج لهموم الدولة والشعب" أم لا. مر الباشا من بين جدران عدة قصور ارتفاعها بارتفاع الناس ابتداء من قبل أن يصل إلى (كورتوشيشمي) حتى ذهب إلى (بشيكباش)، فذلك بالتأكيد يحكم على المرء بالنوم المحتم، لم يألُ محمد شهاب الدين باشا الذي لا ينكر أمام نفسه أنه يغط في نوم عميق في هذا الجزء من الطريق جهدًا في الجلوس معتدلًا هذه المرة والاعتناء بالجدران مغلقة المظهر، وإخفاء حزنه بفضل أنه أشغل ذهنه بأمور شتى، حتمًا قرأ أصدقاؤه ومن بينهم الصدر الأعظم ذلك المقال في الجريدة، وهناك من سيحدثه في المجلس عن ذلك؟!



لم يتطرق أحد إلى هذا ولو بإيماءة، ولكن بعد أن انتهى الاجتماع وتفرق الجمع قال سعيد باشا:

— مضى السلطان إلى غرفته مع صديقنا المحترم طرخان باشا الذي تعين في وزارة الأوقاف، ولم أستطع أن أخبر مولاي بفكري عن هذه المسألة، على الرغم من أنه تلطف في سؤاله عن رأيي. طرخان باشا ألباني من مدينة (إبوانيا) التي معظم سكانها من أصل يوناني، وقد شغل أيضًا منصب وزير الخارجية لفترة من الوقت، بدأ تعليمه في المدارس اليونانية واستكماله في (أثينا)، فلغته التركية ضعيفة ولا يملك أدنى معرفة بالدين الإسلامي، لذلك توليه عدة وزارات أخرى قد يكون مقبولاً، لكن غير معقول أن يتولى وزارة تعتني بالمساجد، والتكايا، والمؤسسات الدينية المختلفة. إضافة إلى أنه لا يمكنه تعلم كل هذا ولو بشكل سطحي لانشغاله بشؤون وزارة الخارجية، فكان عليه دائماً أن يحضر مراسم الافتتاح داخل البلاد وتمثيل الدولة في البعثات الخارجية. عاد مؤخراً من مؤتمر السلام في (لاهاي) أي أنه لم يحضر اجتماع الوزراء الذين قضوا ستاً وثلاثين ساعة في يلدز يستمعون إلى ملخصات الوثائق والرسائل ويشربون القهوة ويبحثون ما إن كان ستُعاد المشروطة أم لا.

التفت سعيد باشا الذي لم يعرب عن همه — طرخان باشا — عندما جلس الوزراء الثلاثة على رأس طاولة الصدر الأعظم إلى محمد شهاب الدين باشا:

— استأثرت من المقال غير اللائق الذي كتبتة الجريدة.

توقف محمد شهاب الدين باشا عند كلمة (استأثرت) بطريقة توضح أنه أولى أهمية كبيرة لهذا المقال، فقال بأسلوب يصف النار التي سقطت في قلبه أنه انتفض فجأة بغضب لم يشعر به وهو يقرأ أو أنه نجح في إخفائه.



وعلى الرغم من أن شابور شلبي باشا تسامح في أنهم بدأوا بتشويه ماضيه منذ عدة أيام وكُتب صراحةً أنه أعطى السلطان عبد الحميد أول درس في الاستبداد وتسبب في الإطاحة بمدحت باشا، بدت نظرتة إلى طلب إراحته غيره والاعتناء بصحته فقط أمر يتطلب مواساة عظيمة لا يمكن تحملها، ورؤية رجل حديث العهد أنها النهاية وقوله هذا أمام الباشا الألباني الذي يعلمان كلاهما أن متصرفيته على حافة الهاوية في أنطاليا بدا لمحمد شهاب الدين باشا مشيناً، فقال:

— نعم، فربما نُشر هذا الهذيان ضدي نتيجة لتعليقات، ومن المعروف أنه لن يسلم أحدنا من هذه الأفاعيل، لكن إن كان مجلس الوزراء يرى أن توضيحي ستعزز موقفه فأنا أنتظر أمره بالاستقالة.

أصر على عبارته (ربما نتيجة لتعليقات) وقد قالها بصوت غليظ جهوري وهو يجلس على كرسيه منتصباً كأنه أصبح شاباً فجأة، فلم ينس أن للصدر الأعظم سعيد باشا دوراً في إعفائه من وزارة المالية للمرة الثانية وتجوله بين الولايات لسنوات في ذلك الوقت.

حرص سعيد باشا الصغير على إنقاذ الموقف بأكثر جملة المزخرفة مدركاً الأمر، وأسهب قائلاً إنهم يستفيدون من حياته التي استمرت أربعين سنة بين وزير ووالٍ وكذلك ثمار تجاربه (إذ شغل محمد شهاب الدين باشا أرقى المناصب بكفاءة وجدارة) فلن يُتخلى عن كل نتاج تجاربه بالقطع في هذه الفترة الحرجة.

كان اليوم التالي هو الجمعة الثانية من عهد الحرية. فخبّر خروج السلطان حميد إلى مسيرة يوم الجمعة عائداً من الصلاة وسط حشد لم يسبق له مثيل بعد أن تردد كثيراً في الدخول بعربته وسط هذا الزحام وأن الشعب صفق



له تصفيقًا حارًا انتشر في القصر. اقترب وقت العصر فحلت الساعة حيث أمرت نعمت بتجهيز ثلاثة قوارب للتوجه إلى (جوكسو) وعندما لم تطلب نعمت أتت الخادمة تشيشيا فلنك وسألتهما فأجابتهما الشابة:

– رأسي يؤلمني قليلًا، لن أخرج.

وحقيقة لم يكن رأسها يؤلمها، لكن كم من الأمور حدثت هذا الأسبوع! فما حدث على سبيل المثال جعل مجيء السيد سادات مع بحارته ذوي القمصان البيضاء المذهبة بقاربه اللامع إلى الخور مستحيلًا. وقالوا إن الناس بالأمس في بواخر الشركات صاحوا أثناء مرورهم من أمام القصور "أيا، تبًا لكم!" فبينما يقترب القارب المزخرف من أرصفة القصر وعزم السيد سادات الذي تزين صدره بشرائط السلطان على الركوب، فما الإهانات التي أطلقت؟ وماذا سمع الشاب أيضًا من القوارب المستأجرة الممتلئة بالناس في (جوكسو)؟ وكم عدد القوارب التابعة للقصور في الوضع نفسه ما كان ينبغي أن تأتي إلى (جوكسو)؟

فكم كان محزنًا رؤية (جوكسو) التي لن تطأها قدم السيد سادات لأول مرة، أخذت نعمت في الحسبان ظهوره أمامها فجأة بعد أتى في قارب مستأجر إلى الخور بملابس مدنية لكيلا يجذب انتباهها ونظرته المتألمة، فكانت تخشى ذلك. بيد أن تراجع الفتاة عن الذهاب إلى (جوكسو) في الجمعة الثانية للحرية لم ينجم عن هذه الأفكار والمخاوف فحسب، أما كان من الممكن أن يضع أحدهم ممن أتوا في القوارب المستأجرة مقال الجريدة المنشور في وجهها ويسألها: "أيتها الهانم، لماذا لم تحضري أباك الباشا المحترم معك؟ أسيعفو دائمًا في عربته؟ فليغفُ في القارب قليلًا أيضًا". وفي هذه الحالة ألم يكن مؤكدًا أن يتبع هذه الجملة قهقهة؟



جميلة ولديها كبرياء بعيونها الناضرة التي لا تنحني لترى استمتاعها بتقدمها كأنها لا ترى الناس أثناء سيرها بالعربة والقوارب التي لا تجرها الخيول والبحارة، بل قوة الثروة، وتعبر من وسط الناس وهي في عربتها أو قاربها وتتقدم بعد أن تدهسهم تقريباً، كل ذلك أصبح من الماضي خلال أسبوع واحد.

فما الفائدة من الذهاب إلى (جوكسو) متألمة متخفية في حين أن الشعب يحمل لها ضغينة وكرهية في كل مكان ستذهبه؟ وقد تتعرض لإهانة في حضور رجالها وجواربها وخدمها.



الفصل الحادي عشر

أراد جيش النساء بجناح النساء بقصر يلدز بدرجاتهن ورتبهن المختلفة: زوجات السلطان، والأميرات، و(المحظيات)، ومفضلات السلطان، وخازنات الحريم، والجواري من السلطان حميد عدم الخروج في مسيرة صلاة الجمعة، وبعد كثير من التردد والتوتر والانزعاج وعندما خرج السلطان من قصره مصطحباً الصدر الأعظم سعيد باشا، ووزير الحرية عمر رشدي انتظروا عودته دون ألم أو مكروه بقلق مبيت، وبعدما علم أن السلطان عاد مثلاً ذهب وسط حشد من الناس لم يسبق له مثيل ولم يخطر ببال وتصفيق حار ودخل ديوانه أقمن الاحتفالات، احتضن بعضهن بعضاً ودمعت عيونهن. واعتبر عبد الحميد هذا التصفيق الحاد دليلاً قاطعاً على حب الشعب له، خلافاً لكل الشبهات والادعاءات، فسيستفص فجأة واستجمع شجاعته ليطالب أمراً يراه ضرورياً لخلاص عرشه، حتى لو كان ثمنه فرض مواد الدستور، وهذا الأمر الملح هو حقه في اختيار وزرائه، ولا سيما الحرية والبحرية، ولم يكن في وسع سعيد باشا أن يرفض حق السلطان الذي طلبه. فالصدر الأعظم الذي لم يستطع نيل الشرف الذي حظي به شيخ الإسلام جمال الدين أفندي بمقتضى القسم الذي أداه على الدستور أصر على وثيقة تعهد بالولاء للمشر وطية عند وصوله للباب العالي، واشترى هذه الوثيقة بترك اختيار وزير الحرية والبحرية للسلطان، وفي الوقت نفسه ربما اهتز من هزيم التصفيق المتعالي أثناء مسيرة صلاة الجمعة، فزاد خوفه من السلطان، لذلك لم يكن في وسعه أن يعارضه، وبالأحرى



يمكنه تجاهل الأمر؛ لأن عامة الشعب وحتى المتعلمين منهم ليسوا خبراء في القانون الدستوري.

وفي صبيحة يوم السبت حيث ستُقرأ الوثيقة، وربما تمر دون اعتراض، سيعلم الشعب من الجرائد خبراً آخر فيثور ويهتز غضباً. ركب عزت باشا الشامي -الذي يُنظر إليه بحق أو بباطل على أنه أقدر وأخبث أداة من أدوات نظام الاستبداد المنهار- باخرة، وقد فر من قصره الصيفي في (بويوك أضه) متجهاً إلى (جناق قلعة) وفي حوزته أمر من السلطان يفيد بأنه ذهب لإقامة مراسم افتتاح بمناسبة وصول سكة حديد الحجاز إلى المدينة؛ ولذلك وقف الموظفون من لديهم أمر من الباب العالي بإنزاله من السفينة موقف الرائي أمام هروبه. فبينما تعالى تصفيق الشعب الحاد وهو ينقل السلطان حميد من قصر يلدز إلى جامع الحميدية ثم يودعه من الجامع إلى قصره عائداً تساءل السلطان: «تري هل استطاع عزت أن يهرب؟» وربما أول ما سيفعله عندما يلج يلدز ودوي هذا التصفيق مازال في أذنه هو أن يسأل رجاله ويحيوه: «قد هرب»، فسيتنهد قائلاً: «آه!».

لكن هل هرب السلطان حميد عزت باشا الذي يكرهه الجميع؛ لأنه كان يخاف مما سيقوله إذا ما قُبِض عليه وقُدِّم إلى المحاكمة؟ أم أنه اعتبر تقليد أسلافه الذين حاولوا إنقاذ عروشهم وحياتهم بالانحناء للإنكشارية الذين يثيرون الفتن طوال قرون ذلاً؟ وكذلك بإلقاء منجزات رجالهم المفضلين إلى الثوار الذين أوصلهم المجتمع إلى المقدمة بينما كانوا أدنى طبقاته بالأمس ويحيطون بالقصر مطالبين بكل شيء حتى رأس السلطان، ولهذا قام بذلك؟ عندما قرأ محمد شهاب الدين باشا ما نشرته الجرائد عن الهروب لم ير ضرورة التفكير في هذه الجوانب، بيد أن هروب عرب عزت باشا لن يحل المسألة بالتأكيد. ألم تحط كراهية الشعب بعدد من الباشاوات الآخرين أمثال



حسن رحي باشا الذي لا يزال يشغل منصبه في المجلس ورئيس الكتبة تحسين باشا ورئيس المساعدين الشخصيين عبد اللطيف باشا الذين أرسل أحدهما إلى قصره والآخر إلى نُزله بالرغم من أنها ما زالا يحتفظان بلقيبهما؟!!

لم يعد لسلوك السلطان عبد الحميد الذي أمّن هروب عزت باشا معنى بعدما ترك الآخرين لمصيرهم، غير أن محمد شهاب الدين باشا الذي لم يخطر بباله عزت باشا أو غيره من الباشاوات كان يفكر في نفسه ومنصبه فقط. فوثيقة السلطان ستتيح له إحداث تغييرات في الوزراء، فبعد انسحاب وزير المالية طوعاً واستقالة وزير الداخلية بعد أن رأى نفسه مجبراً على ذلك سيتم اختيار وزيرين جديدين وربما تحدث تنقلات وتغييرات أخرى. ويمكن لسعيد باشا أن يشفي غليله في هذه الأثناء ويعزل محمد شهاب الدين باشا من الوزارة محدثاً نفسه: «جالت شيخوخته على ألسنة الجرائد». على الرغم من أنه تحدث بالأمس عن حياته وزيراً لمدة أربعين عاماً، وعن نتاج خبراته التي سيقدمها، والتي حصل عليها نتيجة لشغله أرقى المناصب بجدارة وكفاءة، وأنه في حاجة إلى هذه الخبرات أكثر من أي وقت مضى. بيد أن محمد شهاب الدين باشا لم يشك في أن تلك الكلمات التي خرجت من فمه لن يكون لها أية قيمة. وربما سيفطن السلطان في المستقبل القريب لكون الثقة في شابور شلبي الذي ما زال ينتظر عونه ليست في محلها.

كان محمد شهاب الدين باشا يذهب إلى الباب العالي كل يوم ويتتابه هذا القلق والخوف والانتهاه من قراءة الوثيقة السلطانية، سيعلم أنه عُزل من الوزارة ولم يُخَطَرْ بالوضع أمام الجميع من قبل لفهمه ليعود إلى (روملي حصار) بحمرة هذه الصفحة التي سددها سعيد باشا لشخصين من قبل.

كان ينبغي لمحمد شهاب الدين باشا أن يعود على الفور؛ لأنه لم يعد لديه



أي عمل في الباب العالي، لكن لو دخل غرفة الصدر الأعظم مع الباشاوات الذين حافظوا على مناصبهم بمهارة والباشاوات الجدد اُهْرِمَ مثل من رحلوا مثل وزير الداخلية الجديد حجي عاكف باشا الذي دنا من الثمانين، فسرى أن شيخ الإسلام هاجم شابور شلبي واصفًا اختيار السلطان لوزير الحربية والبحرية ضربة للدستور، وكيف أعلن أنه لن يظل في وزارة كهذه وأن هذا التصرف مهين وسيقدم استقالته للسلطان، وكيف غادر الغرفة، وسيدرك كيف ارتعدت فرائضه بمجرد تشكيل الوزارة، فيمكنه حينها أن يعود إلى قصره مطمئنًا وهو ينظر بأمل إلى شخصية وزير المالية الجديد عديمة الفائدة.



الفصل الثاني عشر

— أتى الباشا أيتها الهانم الصغيرة.

غلب نعمت النعاس وغابت عن الوعي قليلاً مستلقية على الأريكة، وإلا لكانت سمعت ضجيج العربدة التي أتت بوالدها وأصوات نعال خيولها، فانتفضت وسألت جولندام التي أخبرتها:

— أين؟ في جناح الاستقبال أم هنا؟

— في جناح النساء يا سيدي، فهو يجلس في (البهو الأزرق) مع السلطانة منذ عشرين دقيقة.

— ألم يطلبني؟

— سأل بمجرد أن أتى وقلنا له إنك نائمة.

— لم أنم يا عزيزتي، ومن أين سيأتي لي النوم؟

انزعجت من إبلاغ والدها بخبر مثل هذا، فركضت في قلق نحو الطابق السفلي إلى (البهو الأزرق). وجدت أباه قد تكوّم ببذلته وطربوشه على كرسي أمام النافذة، وأمها جالسة على الأريكة بجواره دون أن تسند ظهرها كأنها لم تنس أنها كانت جاريته، جالسة ويدها متشابكتان، فقد نفذ منذ وقت طويل ما يمكن أن يقوله لبعضهما.

لما دخلت نعمت رفع محمد شهاب الدين باشا رأسه المنحني وتحدث بأداء من لم ير من يحب منذ زمن:



— لست مريضة، أليس كذلك يا ابنتي؟ قالوا إنكِ نائمة فلم أرد
إزعاجكِ.

— لم أكن نائمة يا سيدي، كنت أغفو من الحزن وعدم مرور الوقت.
اعتدل الباشا ثم نهض، وبينما سار مومئاً بيديه لابنته أنه سيذهب معها
ودّع زوجته بجملة لطيفة، عادة ما يقولها عندما يود أن يفلت من يديها:
— أستودعك الله، نلتقي مجدداً بعد الغداء.

لم يدخل الباشا غرفة النوم الموجودة بجناحه، جلس على أريكة بغرفة
الكتابة المجاورة لها دون أن يتحدث ببنت شفة، وانتظر أن تسأله ابنته:

— أهناك خطب مهم في وثيقة السلطان يا أبي الباشا؟
أوماً محمد شهاب الدين باشا برأسه:

— بعض الأمنيات والوعود والتعريفات والتفجيرات حول مواد
القانون الأساسي، وقد تم تمديد مادة واحدة من هذه المواد، كان للصدر
الأعظم الحق في اختيار الوزراء كلهم ماعداً شيخ الإسلام، وعرضهم
على السلطان للموافقة عليهم، أما الآن فسيختار السلطان مباشرة وزيري
الحربية والبحرية.

— يعني أن السلطان سيحصل على صلاحية جديدة؟
— مثل هذا.

— وكيف سيستقبل هذا؟ ألم يزد الصراخ؟!

— استمع الشعب لهذا في صمت. ولم يُلح في الأفق أي اعتراض،
لكن عندما يدرك أحدهم وينكشف الأمر لا شك أن الجميع سيصرخون



ويثورون، وليفكر سعيد باشا في هذا الأمر حينها.

لو أدركت نعمت معنى العبارة التي قالها وهو يرغب في غرق هذه الوزارة لانزاح عنه عبء، لكن الوزير فهم أنها لم تستوعب من سؤالها:

— ومن عيّن سيدنا في هاتين الوزارتين؟

— ترك الوزيرين السابقين في منصبيهما.

— يعني أن حسن رحمي باشا الذي بُصق على وجهه قبل أيام ما زال في منصبه، أليس كذلك؟

— نعم، ما زال في منصبه حالياً. ثمة بعض التنقلات والتغيرات، تم تعيين وزيرين جديدين للمالية والداخلية. انقسمت وزارة التجارة والنفعية إلى اثنين، واستبعد سعيد باشا ذهني باشا الذي لم يكن يحبه من كليهما، وأمست وزارة الغابات والتعدين وكالة مرة أخرى. وبعد ذلك...

قال محمد شهاب الدين باشا الذي تحدث بنبرة من لا يعبأ بكل هذه التفسيرات: "بعد ذلك" بأسلوب يُشعر بأن أهم ما سيقوله سيأتي بعدها، وبالرغم من ذلك صمت فجأة، فأدركت نعمت أنه ينتظر إصرارها ليكمل حديثه. غلفت إصرارها باحترام، وسألت:

— نعم، وماذا بعد يا سيدي؟

— استقال عبد الرحمن باشا من وزارة العدلية، فأصبح عضواً في مجلس الوكلاء مثل كامل باشا.

فقال نعمت بأداء طيعي دون أن تسقط في شك:

— هذا يعني أن عدد أعضاء مجلس الوكلاء زاد من اثنين إلى ثلاثة.



فقال محمد شهاب الدين باشا بنبرة مرهقة متقطعة في حجل:

— لا، لن يزيد، بل تم الاستبدال.

ترك نفسه وهو يقول ذلك، وانغمس الباشا في مقعده دون أن يرى أهمية لإخفاء شيخوخته وولعه كالمعتاد دائماً، ارتخت أعضاؤه كأنه على وشك الانهيار. وهكذا لم يتبادر إلى ذهن نعمت أن تسأله: "بما أنك تركت منصبك بمجلس الوكلاء، فأني وزارة ستتولى؟" وحزن أبوها لأنها لم تدرك كل شيء في اللحظة التي قال فيها: "أصبح عبد الرحمن باشا عضواً في مجلس الوكلاء مثل كامل باشا". لكن أما كان يتوجب على الصدر الأعظم أن يرسل خطاباً مسبقاً من سطرين يبلغه فيه أنه لن يكون من ضمن الحكومة المشكلة حديثاً؟ ما كان يجب أن يُخبر والدها بإقالته أمام مئات الشهود، أليس كذلك؟ تذكرت الفتاة أن شابور شلبي قبل يومين تحدث عن تقديره وإعجابه بالدها، فهمست قائلة: "جملة احذر كل من اقترب من الأرض لم تُقل عبثاً".

كان محمد شهاب الدين باشا ينظر إلى الخارج من النافذة بعيونه التي لا ترى شواطئ (أناضولو حصاري) و(كانليجا) المحاصرة بظلمة الليل بنظرات متألمة، وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة حزينة:

— بعد تقلدي للمناصب لمدة خمسة وستين عاماً اليوم ولأول مرة أعزل عن وظيفتي.

شعرت نعمت أنه يحتاج إلى مواساة:

— من المؤكد أنه لن يُغفر لسعيد باشا موافقته على تغيير القانون الأساسي لصالح الحاكم، وسيضطر إلى الاستقالة. وأظن أنه من الصواب عدم تواجذك في الوزارة في هذه الأثناء؛ لأن تواجذك قد يُفسر أنه قبول بالجرم



المُرْتَكِب.

أصغى الباشا إلى هذه الكلمات بكل حواسه، وهز رأسه قليلاً:

— ليحضر والي الطعام هنا، لكن لأخلع ثيابي أولاً.

وأردف بصوت خافت:

— لم أفصح لأمك بأي شيء، وليعلم من بالقصر وهي أيضاً ما حدث غداً من الجرائد، لا بد أن أجتمع مع رئيس الخدم غداً لنتخذ عدة قرارات، فلم يعد منزلنا مجلس وكلاء بعد الآن. فلا بد من خفض المصروفات وتقليل الأعداد سواء في جناح النساء أو جناح الرجال.

كان حزيناً وهو يقول هذا خجلاً من الآن، خشية الخروج على أهل القصر عاطلاً معزولاً عن عمله لدرجة أن نعمت أحست بوجود تكرار مواساته التي قالتها منذ قليل:

— لا بد من الامتثال لمتطلبات هذه الفترة وعدم الانزعاج بالمظهر، أكرر مرة أخرى: حفر سعيد باشا قبره بيده، سيسقط، ولن تترك الدولة وزيراً مثلك في الزاوية.

شرد الباشا ولم يجب. فكرت نعمت وتساءلت في نفسها: "كيف له أن يتحمل إن تبع هذا الإهانة والسجن والخزي؟" بيد أن الباشا أصبح رجلاً مختلفاً متنفساً هواء عجيبياً، كأن دماء جديدة دبت في عروقه. راق له أن يسقط سعيد باشا، فانشغل ذهنه حينها بالبحث إلى من سيؤول منصب الصدر الأعظم. وأول ما تبادر إلى ذهنه اسم كامل باشا، فكانوا يتحدثون عنه بالفعل. ومع ذلك هناك وزير آخر لا يقل عنه خبره، لكن لم ينهكه منصب الصدر الأعظم، وزير آخر تلقى الضربة التي وجهت للقانون



الأساسي برباطة جأش ولم يبقَ في الوزارة التي حُكم عليها بالسقوط. غرق الوزير في هذه الفكرة فجأة لدرجة أنه ربما مرت دقيقتان أو ثلاثة، قبل أن يقول لابنته الواقعة تنتظر أمره: "ساعديني في خلع ملابسي يا ابنتي"، ليذهب إلى الغرفة المجاورة.

استيقظ محمد شهاب الدين باشا صباح اليوم التالي مبكراً عن كل يوم، أمسك الجرائد بشغف كبير يبحث عما كُتب فيها عن إقالته من الوزارة. فلا يوجد أي شيء أو كلمة عن هذا، لكن خصصت الجرائد أعمدها لانتقاد قرار ترك حق اختيار وزيرى الحرية والبحرية للسلطان، فوصفوه بأنه ضربة للمشروطة. ويصفقون لشيخ الإسلام؛ لأنه رفض هذا الوضع واستقال. أحسنت ابنته التخمين، ستكون حكومة سعيد باشا الجديدة قصيرة الأجل. ففكر الباشا في القيام بأمر تعجل بهذا السقوط، لكن لم تبرز خطة أو نوع ما سيقوم به في ذهنه. فقرر أن يقضى أول أيامه وهو عاطل دون منصب بعد أن قضى ستين سنة ونيف في خدمة الدولة في قصره يستقبل ضيفه دون أن يغادر، وينصت إلى تأثيرهم على الرأي العام من أفواههم. وقد ارتدى الرجل المسن ملابسه من الصباح؛ لأنه لم يرد أن يظهر أمام ضيفه برداء نومه رجلاً مسناً يحاول أن يتخلص من تعب في الزاوية، ومر إلى جناح الضيوف لاستقبال زائريه، وقد ارتدى بذلته التي أمر (مير) بصنعها بصف من الأزرار الأمامية، يسير بملابسه الرسمية في أبهى حلة.



الفصل الثالث عشر

لم يأت أحد لرؤية الوزير المهْرَم الذي عُزل من منصبه بعدما خدم الدولة خمسة وستين عامًا، حيث عمل واليًا على طرابزون، وسوريا، وقونيا، وطرابلس الغرب، وأيدین، وتقلد منصب الوزير في وزارتي المالية والأوقاف، وعضوًا في مجلس الوكلاء. ربما لو حدث ذلك أثناء وجودهم في القصر لتحمل شخص أو اثنان عناء هذه الزيارة. ففي الوقت الذي يولي الجميع أهمية لهذا الوقت الثمين، من يمكنه أن يخصص يومًا كاملاً للذهاب إلى (رومي حصار) والعودة؟

لم ير أحد ضرورة لمواساة الوزير الذي يظن أنه ترك قابلاً في زاوية ينتظر موته. ولم يعتبر آخر كون رؤية الحزن الذي ارتسم على وجهه مهمًا لدرجة المخاطرة بالسفر إلى (رومي حصار). لا رسول مرسل من قصر يلدز لنقل التحيات لوزير الأربعين عامًا، ولا من الأصدقاء القدامى ولا حتى أحد المتملقين. فانتظر محمد شهاب الدين باشا ببذلته حتى المساء هباء.

مقابل هذا أتت كثرات إلى جناح النساء، جاءت نساء من القصور المجاورة وحتى من بعيد بالباخرة، وبالعربة وسيرًا أو في قوارب بقلوب تضم الفرحة وأعين يقظة لرؤية عزة هانم وابنتها، ليعبرن عن مدى حزنهن وإشفاقهن وليظهرن كدرهن المبالغ فيه كأن هناك جنازة في القصر المهيب. حتى ولو لم تظهر نعمت أمام السيدات والأميرات بدموعها؛ لأنها بقيت في جناحها، فهذا لم يخلّ دون خروجهما مع قريناتهما ومضايقتهن لها بالتصرفات المتباهية. ولا سيما محيي أرملة السيد خير الله مستشار أبيها عندما كان وزيرًا



للمالية وابنتيها المتزوجتين من قصرهن في (أميرجان) في وقت متأخر، وبقاؤهن لتناول العشاء سيكون عذاباً في حد ذاته؛ لأنهن استدعوا وأبلغن أثناء نزولهن إلى غرفة الطعام. أو بينما تقسم مخمورة هانم زوجة السيد خير الله -التي أصبحت سيدة من الدرجة الثانية بعد وفاة زوجها- بأيامان لا تنتهي أمام عتبة قاعة الطعام المخصصة لجناح النساء على عزة هانم التي مرت أمامها وأرادت أن تدخلها، لكن مخمورة هانم تؤكد أنها ليست أهلاً لهذا الشرف الاستثنائي ولا يمكنها ارتكاب هذه الوقاحة، حينها أتت الخادمة (بيدار) واقتربت من نعمت ومالت نحوها وأخبرتها بأن رئيس الخدم يريد رؤيتها ويقول إنه لديه أخبار سرية ومهمة. وقالت عزة هانم التي رأت في تلك اللحظة المحادثة عندما تحولت إلى جدال شاق:

— ماذا هناك يا ابنتي؟

وعلى الرغم من أنه لا زوجها ولا ابنتها يقحمونها في لعبة الأمور المهمة، أرادت عزة هانم أن تظهر أنها تعلم كل شيء والتدخل في كل المسائل كأن كل الأمور تتم بأمرها وأن تقنع الأغراب بأنها تهيمن على كل شيء. وبينما كان قلب نعمت يخفق من الحماس أجابته بسلوك طبيعي:

— لا شيء.

وغادرت نعمت دون أن ترى ضرورة معرفة أي من السيدتين ستدخل غرفة الطعام.

كان حلمي أفندي ينتظرها في الطابق السفلي واقفاً أمام الجدار الزجاجي المؤدي إلى الجزء الحجري بالداخل مبدئياً احتراماً متملقاً. فأخذته نعمت إلى غرفة الكي هناك على الفور. كنت نعمت لهذا الرجل الذي اكتشفت



وجهه الحقيقي منذ سنوات كثيرة ضعيفة شديدة؛ لأنه جعلها تعادي أمها. وعلى الرغم من ذلك أجبرتها الحياة على أن تعامله كقريب لدرجة أنها لم تكن تغطي رأسها أمامه، فقد وُلدت على يد ذلك الرجل الذي خدم أباهما منذ ثلاثين عامًا. عندما بقيا بمفردهما في غرفة الكي قالت له بتعابير باردة ارتسمت على وجهها فجأة:

_ أَلديكَ ما تقولُه؟

_ نعم، سأعرض عليك أمرًا مهمًا، هناك شائعات تتناقل على السنة المدينة بأن رجال جميعة (الاتحاد والترقي) يعدّون تحركات ضد بعض الباشاوات. ومن أُعلن بالأمس عزلهم من السر عسكر للشعب في ملحقات الجرائد هم حسن رامي باشا، وممدوح باشا، وتحسين باشا، وأبو الهدى أفندي، ورشيد ممتاز باشا.

عُزل رشيد ممتاز باشا لتوه من منصبه برئاسة المدينة، أي من رئاسة الدائرة التي كان رئيس الخدم حلمي أفندي عضوًا في مجلسها. ومن يدري كم ترك حلمي أفندي من لعب على طرف بذلته حينما قبلها تعظيمًا، والآن يقلل من اسمه ويقول ذلك الخبر دون احترام أو شفقة.

ثم توقف وأردف بصوت هادئ وهو يعلم أنه لمس جرحًا:

_ عبد اللطيف باشا.

وصمت مجددًا.

أرادت نعمت إجابة وكانت غاضبة:

_ حسنًا، ماذا سيحدث لأولئك الباشاوات؟



— سيؤخذون غداً ليلاً من قصورهم ونُزّهم ويُساقون إلى وزارة الضبطية، ويُجبرون على دفع كثير من الأموال ليكفروا عن الجرائم التي ارتكبوها في حق الشعب، ومن المحتمل أن تتعرض بيوتهم للنهب.

نظرت نعمت إلى رئيس الخدم ذي اللحية الشقراء التي لم يضرب فيها البياض بالرغم من أنه أقبل على الخمسين، كأنها تنظر إلى عدو، وسألته بنبرة كأنها تأمره بقول ما يريد قوله في الأساس ولم يتلفظ به بحال:

— أهذا فقط؟

— يُشاع أن هناك غضباً على الباشا، وأنه من بين الأشخاص الذين تستهدهم الجمعية، وبالتأكيد هم في خطر، لنأخذ بعض التدابير.

أغلقت الفتاة عينيها لوهلة كأن البحر يحيط بالقصر العظيم من جوانبه الأربعة. "بالتأكيد هناك خطر.. يُشاع..."، على كل بسبب هذا الخطر المؤكد لم يطرق أحد باب جناح الرجال اليوم، لكن لحظة ضعفها تلك استمرت لثانية ففتحت نعمت عينيها وحدّقت ببرود واتزان في الرجل الذي يفرك يديه أمامها، وهمس لها سرّاً؛ لأن أباها قد استأجره قبل ثلاثين عاماً، ويُقال إن لديه دوافع قذرة. ولو وطأ الرعاع وعلى رأسهم عضو من الجمعية غداً القصر المكتظ عن آخره بأعلى الأثاث فمن يضمن أن هذا المخلوق لن يرشدهم؟ ترى، ألن يكون من الأجدي أن تُرسل غداً على الفور الصناديق المخملية الممتلئة بمجوهرات الأم وابنتها إلى خزانة البنك كما نُقلت النقود والسندات؟ لكن من يدري أن هذه الليلة ستمر بهدوء وسلام؟ وإن أحاط للصوص بصيحاتهم وإهانتهم قصر الهرم الذي كان يحلم بمكان في الوزارة التي ستُشكّل حديثاً بعد التي سقطت، فماذا سيحدث وماذا سيفعل؟ بينما كانت نعمت تفكر في كل ذلك أجابت بصوت صارم في هدوء، مندهشة من



قدرتها على إخفاء حزنها وكرها بداخلها:

— لم يتصرف أبي الباشا مثل هؤلاء الرجال الذين ذكرتهم حتى نفكر في تدابير وحلول بدافع الخوف، لا بد وأن يُحترم الوزير الذي عمل قرابة الأربعين عامًا بأمانة وإخلاص.

استدارت بانحناء خفيفة وتركته في الغرفة وعبرت الممر الحجري كله ودخلت غرفة الطعام الموجودة على الجانب الآخر من الحاجز الزجاجي، وأمام ضلفتي بابها الكبير نافورتان. مرت إلى مكانها على مائدة الطعام التي تجلس عليها أمها وضيفها وجلست في مكانها، وربما امتقع لونها، فسألتها أمها التي لم يطمئن فضولها منذ قليل بفضول أكبر هذه المرة:

— ما الخطب يا ابنتي؟ إلى أين ذهبت وأتيت؟

لم تستطع نعمت أن تتمالك نفسها، وعلى الرغم من حرصها على أن تظهر ابنة مطيعة ومحترمة أمام الغرباء غضبت وأجابتها:

— يا إلهي يا أمي! قلت إنه أمر غير مهم.

أبدت جارتهم مخمورة هانم التي أتت لزيارتهم مع ابنتيها حرية وجورية التي أكبرهن في عمر نعمت وعلى الرغم من ذلك أصبحتا عروسين منذ زمن طويل؛ لأنها لم يبحثا عن أمراء الهند واليمن، أنهن لم يلاحظن عتاب نعمت لأمها، والذي سيجعلنه موضوعاً للحديث بتعليقات مختلفة بمجرد أن تطأ أقدامهن خارج باب القصر.

أصاب نعمت الأرق فلم تنم جيداً مساء، اخترق صوت خرير الماء النوافذ المفتوحة مع الرياح الآتية من البحر الأسود في إحدى ليالي شهر يوليو، فأيقظها طوال الليل وأعطى انطباعاً بأنه ضجيج أولئك الذين



يحصرون القصر لأخذ الباشا.

لم يحدث شيء سوى تقدم الليل واقتراب الصباح، هذا يعني أنه لن يكون هناك هجوم على القصر حتى ليلة غد على الأقل، سيتسنى تهريب المجوهرات وإنقاذها، لكنها تذكرت فجأة الجرائد التي ستصدر من المطابع في الصباح فتنتشر في أرجاء المدينة والدولة كلها، ففكرت في أنه ربما المقالات المليئة بالأكاذيب والافتراءات والشتائم تُعد الآن لتكتب في أعمدة هذه الجرائد، وبعدها تبادر ذلك إلى ذهنها حل الصباح دون أن يغمض لها جفن.



الفصل الرابع عشر

لم ترَ نعمت صباحًا كل الجرائد، لكن جريدة (ثروة الفنون) اليومية تشن هجومًا رهيبًا على أبيها بمقال يحمل توقيع خليل نزهت مستخدمًا أدلة واضحة. وعلى الرغم من أن المقال كان يعطي أحكامًا قاطعة ويلقي باتهامات خطيرة كان مهذبًا. لا بد أن من كتب هذا المقال هَرِمَ تابع حياة الباشا خطوة بخطوة، فهو يروي أن شهاب الدين باشا خلال فترة توليه وزارة المالية لثلاث مرات وقعت الدولة على ثلاثة قروض كبرى، وأن أحد هذه القروض وهو القرض الثاني تم بعد حرب ٩٣ في أكثر فترات الدولة اضطرابًا وأشد فترات الخزينة انهيارًا، وأن الباشا قد حصل على أعلى عمولة أو رشوة حينها، وأن المسجد الذي بناه في روملي حصار حيث يوجد قصره، خلف رصيف الميناء بين مسجدين قديمين كان كفارة لهذه الرشوة.

ذكر المقال الموجود في الجريدة قيمة العملات وبلغت قيمتها مئتين وخمسة وستين ألفًا من الذهب البريطاني: مئة وعشرين ألفًا في المرة الأولى، وثمانين ألفًا في المرة الثالثة. وكان محمد شهاب الدين باشا قد وقع على شروط قاسية لصالح البنوك التي أقرضت الدولة على أن تمنحه القدر نفسه من الأموال، ألن يُجبر الوزير الهَرِم الذي لم يُسأل عن هذه الأموال؟ وحتى لو لم يسرق شيئًا آخر، من يعلم إلى أي مدى تعاظمت ثروته بفوائد هذه النقود منذ سنوات على إعادة أصل الأموال على الأقل إلى خزينة الدولة المعروف أنها تعاني أزمة مالية طاحنة؟

فكرت نعمت للحظة مرة أخرى ألا تعرض الجريدة على أبيها، لكن



للحظة فقط، فإن كان افتراء على الرغم من أسلوبه الحازم لا بد من مقاضاته، ولو كان صحيحًا فلا بد من الإنكار أو على الأقل التفكير في حلول لقلب الكلام، لكنها عندما دخلت غرفة أبيها لم تعطه هذه الجريدة على الفور، حزن قلبها مدركة من محادثتها القصيرة كم أنه يجهل وضعه الحقيقي والمخاطر التي تحاصره.

تحدث محمد شهاب الدين باشا لابنته بنبرة متحمسة قليلًا، وعيناه تلمعان أكثر من أي وقت مضى:

— اجلسي وانظري ماذا أقول.

ثم أردف:

— ما رأيكِ؟ أريد أن أجهز العربية وأذهب إلى (نیشان طاشي)، إلى نُزل كامل باشا.

لم تفهم نعمت السبب وراء طلبه هذا فجأة في ساعات الصباح الباكر، فسألته:

— لماذا يا سيدي؟

اندهش الباشا من ابنته لأنها لم تستطع أن تدرك (السبب) من نفسها، بل واستاء قليلًا، واعتبر ذلك عدم اكتراث منها، وبما أنه من المؤكد أن كامل باشا سيخلف سعيد باشا، ألن يسعد الصدر الأعظم القادم تشاوره مع شخص سيدخل الوزارة الجديدة؟ تحدث بوضوح أكثر:

— ألن يكون التحدث مع كامل باشا من الآن مناسبًا؟

أمل أن تظن ابنته لكل شيء بعد تأكيده على كلمة (من الآن).

لم تقوَ نعمت على الدخول في مثل هذا الموضوع، فمدّت له جريدة (ثروة الفنون):



— كتب خليل نزهت مقالاً بتوقيعه عنك يا سيدي.

ارتدى الباشا نظارته القابعة جواره وقال:

— لا أعرف أحداً يدعى خليل نزهت، أهنأك شيء ضدي؟

— نعم يا سيدي.

— أعطيني.

فأخذ الجريدة بهدوء بالغ، لكن عندما شرع في قراءة المقال الموجود في الصفحة الأولى بعناية لاحظت نعمت أن يديه بدأتا ترتعشان، وكلما استمر في القراءة ازدادت رعشتها وامتقع لونه، فلا بد أن المقال يروي الحقيقة.

رفع محمد شهاب الدين باشا رأسه بعدما قرأ إلى الامضاء منهياً المقال، ونظر في وجه ابنته:

— يعني أن الجثة التي مر على دفنها ثلاثون عاماً بُعثت من جديد. لا بد أن هذه صنعة شابور شلبي تتحرك أصابعه بين الحين والآخر، وإلا فكيف لصحفي أن يطلع على أسرار الدولة؟

ارتسمت على شفتي نعمت ابتسامة مشعثة، إن كان الأمر هكذا فليست سرقة مفتراة، وثورة الباشا التي لا تعرف مقدارها بالتحديد تعتمد على الرشاوي الثلاث الضخمة والسرقات. فقد تحدث أبوها أول أمس عن نزاهته، وصاح قائلاً: "لم أقم قط بتحديد هذا القدر لتعيين قاض أو ذلك القدر لتنصيب متصرف، وتطبيق ذلك عن طريق رئيس خدمي مثل أي باشا آخر، ولا يمكن لأحد أن ينسب لماضي مثلاً قبيحاً عن باشا أنه حصل على رشوة بقيمة خمسة وعشرين قرشاً أثناء مهمته القصيرة بالرغم من عظمتة". أكان يعزو ترفعه عن مثل هذه الرشاوي الصغيرة لجمعه أكوام الذهب من



القروض الثلاثة فقط؟ يمكن أن يبقى شريفاً باستثناء هذه الذنوب الثلاثة، لكن ها هي ذي الحقائق تنكشف من جانب واحد.

بعدما تحرك محمد شهاب الدين باشا من فوق الأريكة حيث يجثو على ركبتيه كأنه سينهض، تكوّم مرة أخرى في مكانه واشتكى وهو يكاد يصرخ:

— الرجل الذي يُدعى خليل نزهت كائن عديم الضمير والحياء، سعت بحرص شديد إلى صون قانون الدولة أثناء توقيع القروض التي ذكرها، فلم يتم التوقيع على مثل هذه الشروط المناسبة ولا قبلي ولا بعدي. ولم يُعرض عليّ رشوة ولو بعشر عملات خلال مفاوضات القروض الثلاثة، ولو عُرض لم أكن لأقبل. فبعدما تنتهي المفاوضات في كل مرة يأتي مديرو مؤسسة الإقراض ومثلوها أولئك الذين أداروا المفاوضات ليقدموا شيئاً، ودائماً ما يكون في ظرف، حتى إنني فتحت أول مرة ولم أكن أعرف ما هذا. وكانت المبالغ هي المبالغ نفسها التي ذكرها عديم الشرف في الجريدة، وأردت أن أرفض في المرة الأولى، ولكن بما يفيد إن رفضت؟ فقد وُقت الاتفاقية، والفائدة الوحيدة التي كانت ستترتب على الرفض هي أن تبقى النقود في يد الإفرنج والمسيحيين بدلاً من أن تدخل جيب أحد أبناء هذه الدولة وتغنيه ليصرفها في أبواب الخير وجلب الحسنات، لكن من سيفكر في كل هذا؟ فالمقصود هو مهاجمة الشرفاء والنزهاء، والطعن في الوزير المتمرس المعروف، وخدمة قحّد ومآرب شابور شلبي، وعادته القديمة بمضايقة الجميع لينسيهم ما اقترفه من جرائم.

لكن، أيمن لجريدة (ثروة الفنون) أن تخدم سعيد باشا على الرغم من أنها تتنقده بشدة وتهاجم غيره بالنيابة عنه؟ ومن ناحية أخرى بعدما رفض محمد شهاب الدين باشا الهدية في نهاية التوقيع على القرض، ولو أنه فعل ذلك دون أن



يفكر في عمولات وهدايا القرض الأول فألى أي مدى حافظ على حقوق الدولة في مفاوضات القرض الثاني والثالث بعدما ذاق مذاقها؟ كل هذه الأفكار جالت في ذهن نعمت بسرعة البرق، لكن لم تكن هذه هي المشكلة الآن.

— أظن أنه سيكون من المناسب الرد على الجريدة يا أبي.

— ولماذا؟ فالرجل لم يخلق ذلك. فهو يوصم نقوداً أخذت لتُصرف بحسن نية في الخير والأعمال الصالحة، ولتبقى في أيدي الأتراك والمسلمين بالفساد.

— لا بد ألا نسمح له بذلك، فالوقت حساس.

— هذا صحيح، لكن ماذا يمكن أن نفعل؟

— تحدثت عن شيك، كان على أي بنك؟

— البنك العثماني.

— ترى، هل ما زالت السجلات موجودة؟

— بالطبع لا بد أنها موجودة، لكن البنك لا يفصح عن أسرارهِ.

— يعني أنهم بالقطع سيرفضون.

— لكن ماذا لو سُرقَت الوثائق ونشروها؟

— بما أن البنك لن يقدمها ولن يشهد ذلك فيقال على الوثائق المسروقة إنها مزورة.

لم يجب محمد شهاب الدين باشا، كان يبدو متعباً وحزيناً، بيد أن نعمت التي ترى وجوب القيام بشيء والإنيكار بشدة لم تدع أباهاً وشأنه، فاستسلم الباشا لإلحاحها، والعجز عن مقاومة رغبتها، وعندما أحضرت له قلماً وورقة، كتب بيده التي لم تعد ترتجف الأسطر الآتية:



"لاحظت مع الأسف في جريدتكم الموقرة ولا سيما في العدد الصادر بتاريخ ٢٠ يوليو ١٣٢٤ هجريًا مقالًا بتوقيع خليل نزهت يحوي مزاعم مختلفة بأن البنوك التي أقرضت الدولة أعطت عمولات للمتعتثرين بمناسبة التوقيع على ثلاثة قروض عندما كنت متوليًا وزارة المالية في أعوام ١٢٩٠، ١٢٩٦، ١٣٠٤ هجريًا، ويمكنني أن أقولها بالتأكيد والحمد لله إن المبالغ التي استطعت أن أجمعها خلال ستين سنة من خدمتي للدولة قضيت منهم أربعين سنة ونيّفًا في أهم مناصب الدولة نتاج مراعاتي للدخار، وإنني ترفعت عن التريح بأقل الأموال من أي شخص أو أي جهة. إن كلام الشخص الموقع باسم خليل نزهت ولا أعرف ما ربه ولمصالح من يعمل مثلاً أجهل هويته هو نتاج خبث وافتراء، وإذا قورنت شروط القروض التي أبرمتها خلال الفترات الثلاث حيث كنت وزيرًا للمالية بشروط القروض الأخرى سيتبين بما لا يدع مجالاً للشك كم أنني سعت لحماية حقوق الدولة والأمة ومصالحهما، وكيف أنني وفقت في ذلك بعون الله. أمل أن يُنشر بياني هذا في أول عدد سيصدر، وأقدم لكم تحياتي".

قرأت نعمت هانم بعناية الأسطر التي كتبها أبوها بسرعة -دون محو وتعديل - مقتنعة بما فيها:

— جيد جدًا.

— إن كان حلمي أفندي في القصر فليأت، وليعطه للسيد أحمد إحسان صاحب الجريدة. كما قلت منذ أيام والد السيد أحمد إحسان كان من مرافقيّ، عيّنته محاسبًا، حتى إنني أرشدته إلى أول رتبة، لكن بما أنه لم يعد هناك من يشكر النعمة فلا بد أنه نسي، إن لم يرَضْ بنشرها فليأخذها حلمي أفندي إلى الجرائد الأخرى، ولكن في هذه الحالة سيتعين تغيير الخطاب. لعل الله يوفقه



ولا يرتكب خطأ، لطالما رأى حلمي أفندي أن عضويته في مجلس المدينة ورتبته المتميزة لا تتناسبان مع قدرته وكفاءته، لكنه لم يعدل من صياغته بحال، فلا يجيد كتابة وثيقة من ثلاثة أسطر بشكل سليم!

فكرت نعمت قليلاً تنظر إلى البحر متابعة الساحل المقابل من جانب (كانليجا)، ثم أدارت رأسها ونظرت في عيني والدها:

— أنا من سياًخذ هذه الرسالة إلى إدارة جريدة (ثروة الفنون) وأسلمها بيدي.

— يا إلهي يا ابنتي! كيف هذا؟ ماذا ستفعلين في إدارة الجريدة؟

— سأذهب بعباءة سوداء مغلقة ولن أرفع البرقع، ولن أفصح عن هويتي إذا ما اضطررت لذلك، اطمئن.

لم تستمر مقاومة الباشا وتحديه طويلاً، فشهاب الدين باشا الذي سلم إرادته وحرية ليد السلطان حميد منذ سنوات طوال رابطاً تصرفاته وأفكاره بما يقول السلطان ويفكر، اندهش من الحرية التي نالها الآن في الثالثة والثمانين من عمره، عندما زال ذلك الضغط، وقد سلم هذه الإرادة والحرية بالكامل لابنته منذ أسبوع.

— حسناً، ما دمتِ ترين هذا مناسباً، خذيه بنفسك، لكن اذهبي بالعربة، واصطحبي معكِ رئيسة الخدم.

بعدما غادرت نعمت عكف على انتظار عودة ابنته دون أن يخطر بباله زيارة كامل باشا.

استمر هذا الانتظار أكثر من ثلاث ساعات..



الفصل الخامس عشر

بينما ذهبت نعمت هانم إلى إدارة جريدة (ثروة الفنون) آخذة رسالة والدها ومعها رئيسة الخدم تشيشيا فلّك، لم يكن في حسابها إعطاء الرسالة وضمان نشرها وقرارها متمثلاً في ذلك فحسب، بل أرادت مقابلة أحد أفراد جمعية الاتحاد والترقي الذي أتى من (سالونيك) وصولاً إلى مركز إدارة الجريدة، وأن تحول دون تعرض أبيها لكارثة الهجوم ولو اقتضى ذلك دفع المال. وكان نشر الرسالة في الجريدة يأتي بعد ذلك وسيسهل إذا تحقق الهدف الرئيس، كانت نعمت متحمسة كثيرًا عندما دخلت إدارة الجريدة التي كانت أبوابها وممراتها تعج منذ أيام بأصناف البشر مع تشيشيا فلّك التي كان وجهها مغطى ببرقع ثقيل وترتدي عباءة سوداء مغلقة من الحريز مثلها. ورد الحاجب على سؤال إحدى السيدتين الطويلتين المهندمتين اللتين نزلتا من عربة القصر قائلاً إنه لا يوجد الآن من الجمعية سوى عضو واحد وهو الرائد شفيق، فطلبت منه السيدة نعمت أن يخبره بأن السيدتين يطلبان مقابلته (للتحدث في أمر مهم للغاية)، وفي الوقت نفسه فإن وضع ربعي ليرة في يد الحاجب جعله مناصراً لحدوث هذه المحادثة.

أصطحبهما دون أن يجعلاهما تنتظران طويلاً إلى ضابط شاب في غرفة كتابة صغيرة خافتة لا بد أنه الرائد شفيق. عندما دخلتا بدت هذه الغرفة لنعمت خافتة؛ لأنها لم ترفع برقعها الثقيل بعد، ولم تفكر في رفعه، وراقبت الرجل الذي ظهر أمامها من خلف البرقع والذي ربما يحمل مصيرها بين يديه. كان طويل القامة عريض المنكبين وبالتأكيد أنه لم يبلغ الخامسة والثلاثين من



عمره، ذا شعر أشقر، وشارب أصفر مشذب وعينين زرقاوتن. ولأن إحدى السيدتين اللتين أتيتا لزيارته تقدمت وبقيت الأخرى في الخلف عرض المقعد الوحيد في الغرفة التي تقدمت ولم يعبا بالآخرى، فتحدث للتي عرض عليها الجلوس -أي نعمت- بصوت أنفي وكان في حديثه لهجة روملي:

— تفضلي، أسمعك.

كانت نعمت متوترة فأفصحت في البداية عن هويتها ثم قالت إنه صدر مقال مليء بالافتراءات من جريدة (ثروة الفنون) ضد أبيها وأنها أحضرت رد أبيها على هذا المقال، وطلبت منه أن يتوسط لنشره وأنهم في الوقت نفسه علموا أن هناك هجوماً يُدبر على منزلهم وأنهم لجأوا إلى الجمعية التي تمسك بزمام السلطة، وأنه يتوجب على الجمعية التي أعلنت أنها حامية للمشروطة أن تحميهم بما أن الدستور الذي أعاده السلطان عبد الحميد يكفل الأمن على أموال الفرد وعرضه وحياته.

أنصت السيد شفيق لها باهتمام متزايد، فصوت هذه المرأة الغليظ التي لم يستطع أن يرى أي شيء من وجهها جميل كال موسيقى. فرائد أركان الحرب السيد شفيق الذي ولد وقضى طفولته في بيت والده بالقرية الصغيرة نفسها حيث كان يعمل والده إماماً في أحد أحياء مدينة أدرنة التي كانت تغمرها مياه (تونجا) بانتظام خلال أشهر الشتاء لم يسبق له أن سمع امرأة تدافع عن أفكارها بمثل هذه الجمل المرتبة وقوة المنطق:

— أعترف بأنني لا أريد أن أصدق هذه الشائعات، حتى لو قبلت للحظة أن والدك مذنب ففي هذه الحالة بما أن الجرائم التي ارتكبتها ارتكبتها بصفته وزيراً سيحال ذلك إلى الديوان العالي عندما يجتمع (مجلس المبعوثان)، ولا يحق لأحد أن يجره إلى السجن مداهماً منزله.



بعدما جاءت نعمت لترجو السيد شفيق أصبحت تتحدث بلهجة وعظ واتهام حتى قلقت رئيسة الخدم تشيشافلك وكانت محقة في قلقها؛ لأنه على الرغم من تأثير صوتها الجميل وجمالها المرتبة وجد السيد شفيق في ذلك مبالغة، فقرر إسكات ابنة الباشا المدللة ووقف في مكانه، لكن نعمت التي ازداد قلقها بعد أن استشعرت من صمته أنه اتخذ قرارًا ضد أبيها أزالته برقعها السميكة كأنها تحتنق من الهواء الساخن الذي أحاط بوجهها، ربما شعرت أنه حان الوقت لإزالته.

بدت نعمت جميلة في ظل كبرياتها المجروح وحزنها، لدرجة أن السيد شفيق فقد ملامحه الصارمة التي بدأت تتسلل إلى تصرفاته، وسارع في إرضاء الفتاة وتهديتها في احترام وهدوء أقرب إلى الخوف، وبدا كأن نمراً متوحشاً التقى أخيراً بالرجل الذي يمكنه ترويضه، فرضي بإصلاح كل شيء بأقل قدر من التباهي دون أي مساومة أو دهاء لكسب امتنانها:

_ اطمئني تمامًا سيدتي، لن يحدث أي مكروه للباشا، سأعطي الأوامر اللازمة بصرامة في حضورك.

قرع الجرس فقال للرجل الذي دخل بملابس نصفها عسكري والآخر مدني:

_ أحضر لي السيد تحسين على الفور، وإن كان قد ذهب ابعث خلفه أحدهم بفرسه ليحضره.

لم يكن هناك داع لاستدعاء فرسان ليحضرا الرجل الذي تحدث عنه. دخل رجل قوي البنية يرتدي ملابس نصفها عسكري والآخر مدني كالذي تلقى الأمر دون أن يمر على ذلك دقيقة، وبعدما أدى التحية العسكرية وقف متأهبًا لتلقي الأمر:



— سيد تحسين، لن يتعرض الوزير السابق محمد شهاب الدين باشا ولا قصره في (رومي حصار) ولا نُزله في (نیشان طاشي) إلى أي إزعاج أو أدنى تعدٍ. وأنبهك إلى ضرورة توخي الدقة والحذر الشديدين في هذا الأمر، ولو صدرت شكوى ستكون أنت المسؤول.

عندما دخل الرجل أنزلت نعمت برقعها على الفور، لكن تحسين أفندي أو السيد تحسين الذي تسلل إلى محبي الحرية الذين انبثقوا من الأرض بعد العاشر من يوليو وسرعان ما أصبح يدًا بيد مع الوفد القادم من سالونيك قبل بضعة أيام على الرغم من كونه جاسوسًا مخضرمًا، كان شديد المكر. فمهما كانت نعمت على عجلة من أمرها في إنزال برقعها، فقد فطن إلى كون الهانم الجالسة بوقار على الكرسي وجوارها وصيفتها شابة وجميلة.

ولم يتردد لحظة في أن هناك علاقة وثيقة بين قرار رفع اسم شهاب الدين باشا من قائمة الأشخاص الذين سيتم اعتقالهم، وبين زيارة الهانم، فهمس في نفسه: "يا إلهي! السيد شفيق هذا أكثر دهاء ومكرًا من جميع أصدقائه. بدأ يحيك المكائد من الآن ويحقق أشياء عظيمة دون علم الآخرين".

— تحت أمرك سيدي.

بعدما قال هذا خرج وابتعد على الفور، سئم ولا سيما بعدما هرب عبد الحميد عرب عزت باشا والآن سينسل محمد شهاب الدين باشا وينقذ نفسه، وإن كان سيخرج حراس للسر عسكر ووزير البحرية، فالباقون لا قيمة لهم. ولم يكن الأمر يستحق عناء انتزاع بضعة قروش من رئيس الكتبة تحسين باشا الذي لا يستطيع تلبية مصروفات وزوجه وصهره على الرغم من هبات السلطان ولا من رئيس المدينة رشيد ممتاز باشا. وسبب تسرع السيد تحسين في المغادرة هو ظهور حراس لواحد أو اثنين من كبار الشخصيات المتبقين.



وبعدما ذهب السيد تحسين نزعتم برقعها مجدداً:

— ما فائدة تنظيم هجوم ضد بعض المسؤولين القدامى؟ فقد كان هناك فرح عام وامتنان للشورة التي تمت دون دماء وجلبة، والآن أسيبدأ عهد جديد من السجن والمصادرة والاضطراب؟

حاول السيد شفيق تغيير الكلام:

— تلقينا بعض المؤشرات حول إمكانية مdahمة الناس المفاجئة لقصور بعض الباشاوات، ف شعرنا بضرورة اتخاذ بعض التدابير الأمنية حول مساكنهم من الليلة، وإن أدركنا صعوبة حمايتهم في بيوتهم فسنؤمن نقلهم إلى وزارة الضبطية أو الحرية.

كانت يدا نعمت معقودتين أسفل عباؤها، وسألت بصوت هادئ بل ساخر بعض الشيء:

— هل سيكون من الضروري اتخاذ هذه الإجراءات الأمنية حول قصرنا أيضاً؟

طمأنها شفيق بصوت جاد للغاية:

— لن تقتصر الإجراءات الأمنية على محيط قصركم ونزلكم فقط، بل ستشمل نطاقاً أوسع، ولن تحدث أية ثورة أمام مقرات الحكومة أو بالقرب منها، ولن يُسمح بأدنى حركة اطمئني يا سيدي.

فقال نعمت بابتسامة حزينة متذكرة عبد اللطيف باشا والسيد سادات فجأة، وهمست في نفسها: "ليعن الله من سيتحركون حول النزل والقصور". ثم قالت بصوت خافت خشية أن تقلق هذا الرجل القاسي المتطرف القادم من (رومي)، وأن تظهر أمامه عنصراً معارضاً:



_ أشكركَ بشكل خاص على اهتمامك ورعايتك، فلن ننسى لك هذا حتى الموت.

وبينما نهضت أضافت لشكرها ابتسامة، لكن السيد شفيق أنزل عينيه خشية أن تلتقي بعينيها فلم يرَ هذه الابتسامة.

وبينما تركبان العربنة وتوجهت الخيول في طريقها بسرعة قالت تشيشما فلك:

_ سيدتي الصغيرة، لو لم نأت - لا قدر الله - لدهام الأوغاد القصر والنزل الليلة ونهبوها.

وأردفت بعدها قائلة:

_ ليتنا لم نأت ولم يقع ذلك الضابط الذي يدعى شفيق في حبك من أول نظرة.

_ يا إلهي يا عزيزتي فلك! لست في مزاج يسمح للضحك، يقع الناس في الحب من أول نظرة في القصص فقط.

بالرغم من قولها هذا وإنكارها أن شفيق قد أيقظ في قلبها شعورًا تجاهه، أدركت أنه خلق تأثيرًا عميقًا عليها، وأن بفضل هذا يمكن إنقاذ كل شيء. إن لم تكن اتخذت تدابير ضدهم أكان ممن الممكن أن يقول الضابط القادم بالأمس من روملي بثقة كأنه يشير بيده إلى قصر روملي حصار ونزل نيشان طاشي؟ لكن ماذا عساها أن تفعل إن دفع الحب الذي تولد فجأة في غرفة الجريدة الشاحبة الضابط الذي لا تعرفه غداً إلى أن يطلب يدها؟ أستوافق؟ وربما موافقتها في هذه الفترة أمر حتمي وسيكون مفيداً بالتأكيد، إن غداً لناظره قريب. وبعد قطع رؤوس الوزراء والصدر الأعظم، وحتى السلطان



خلال فترة سيطرتهم القصيرة -القصيرة جداً- من تاريخ الإمبراطورية العثمانية، أُلن يُحكم على السيد شفيق وإن علا بدفع حياته مقابل حسن طالعهِ المحدود في النهاية بعد أيام قليلة أو أشهر مثل طغاة الإنكشارية المُحتقرين المُهانين الذين قدموا رؤوسهم للجلاد عند الباب؟ بيد أن هذا الرجل الجميل بقاتمه الممشوقة وعينيه الزرقاوتن كان أكثر حيوية من خطيب الأُمس، الذي لم يكن يُرى إلا في العربات المذهّبة أو في القوارب التي تتدلى من خلفها سجادات مخملية. اقتربت نعمت منه كثيراً وتحدثت معه عن قرب لدرجة أن السيد شفيق لو كان مد ذراعيه في الغرفة المعتمة لاستطاع أن يجذبها إلى قلبه.

ظلت الفتاة تفكر أغلب الطريق، وأبلغت عند عودتها إلى القصر عند الباب أن الباشا ينتظرها بفارغ الصبر، فقررت نعمت في الطريق أن تكتفي بإخباره بأن الرسالة ستُشتر غداً في أولى صفحات الجريدة، ولن تتحدث معه عن المخاطر التي دبرت وستمنع ذلك؛ لكيلا تفسد عليه راحته ولا تسقطه في قلق لا يحمد عقباه. ونبهت رئيسة الخدم تشيشما فلك بشأن هذا الأمر أيضاً، لكنها عندما ركضت نحو أبيها وأمها وعلى ظهرها عباءتها وجدت أباهما في حالة انفعال شديد وزرق وجهه، وأمها كعادتها العصابة على رأسها والدموع في عينيها. على كل فقد أخبر رئيس الخدم والدها بالوضع وربما كان سيخبر الهانم الصغيرة، لكن عندما رأى أنها لا تكثرث لما يقوله اضطر أن يخبر الباشا بنفسه. وبناء على ذلك رأت نعمت ضرورة التحدث دون إخفاء أي شيء، وستخبره بالتفصيل أنها طلبت مقابلة وفد الجمعية القادم من سالونيك وأنها ذهبت إلى إدارة جريدة ثروة الفنون لهذا الغرض، وقابلت عضواً من الوفد، رائد أركان حرب يُدعى شفيق، وأن السيد شفيق الذي لم يخف عنها أن هناك تجهيزاً لهجمات ضد بعض الباشاوات أعطى



أوامر قاطعة أمامها لكيلا يتعرض قصرهم أو نُزلهم لأي هجوم، وبهذا فقد منع عنهم الخطر بأكمله. أنصت الباشا ويداه ترتجفان ووجهه يتلون، ثم اجتذب ابنته نحوه واحتضنها وقبلها من وجنتيها بمشاعر الأبوة التي غمرته فجأة، وبترأخ بسبب الخوف الشديد الذي انتابه:

— آه! ابنتي العاقلة الوحيدة!

وبينما قالها انسكبت الدموع من عينيه فجأة، لأول مرة تشاهد نعمت أباه يبكي، فانغمست في التفكير، واستفاقت من هذه الأفكار على صوته، فتحدث الوزير الهرم قائلاً:

— آمل أن نقضي الأيام القليلة في أمن وراحة إن شاء الله، وأود أن أدعو السيد شفيق هذا إلى الغداء يومًا لأشكره، وأمنحه بعدها هدية مناسبة.

وبينما قال ذلك انتاب صوته نبرة ثقل وعظمة كأن شفيق قبل الهدية وقبل يده ورداءه شكرًا. وكأن نعمت رأت شفيق وقد هجم على عينيه ضعف عميق ودهشة، فقالت:

— لا أظن أنه سيقبل الهدية.

شعرت عزة هانم بالحاجة إلى أن تقول شيئًا مخالفًا لابنتها في غير من استبعادها من هذه المحادثة كليًا ومشهد الحب بين الأب وابنته، فقالت:

— أود أن أضحك، ألن يقبل ضابط لا يعرف أصله ولا جنسه أتى من روملي هدية؟ ترى لماذا؟ أيجمي والدك باسم الإنسانية والفضيلة؟

نظرت نعمت إلى والدتها كأنها تنظر إلى عدو، ترى، هل أخبرها رئيس الخدم حلمي أفندي بالهجوم على القصر أثناء لقاء سري بغض بينهما؟ لم تر نعمت حاجة إلى أن تجيب وتقنع امرأة تتحدث بصفتها زوج حلمي أفندي



وليست زوج الباشا أو أمها، أي أنها مثلها مثل زوجات الحي:

— تظنين هكذا فقط.

بعدما قالت ذلك غادرت نعمت الغرفة، أرادت أن تخلع عباءتها وتبدّل ملابسها. وعندما بقيت عزّة هانم بمفردها مع زوجها:

— يا إلهي! كيف تدافع عن غريب؟ أرجو أن يستهين بالمكافأة التي ستمنحه ويطلب المزيد لتعلم الهانم الصغيرة مساومته ووقاحته فتخجل.

لم يجد محمد شهاب الدين باشا قيمة للرد على مثل هذه الكلمات بعد الآن.



الفصل السادس عشر

السيد شفيق أحد الأعضاء ذوي النفوذ في الوفد المكون من سبعة أو ثمانية أشخاص الذين كتبت الجرائد أنهم أتوا من سالونيك. وقد حالفه الحظ بأن أظهر أمامه نعمت هانم. لأن ليس لأحد غيره من الوفد ليصاب بدوار بالدرجة نفسها أمام جماها وذكائها. وقد طلب الصدر الأعظم وفداً مكوناً من سبعة أو ثمانية أشخاص مرسلاً إلى سالونيك وإلى المفتش العام حسين حلمي باشا لإقامة علاقة مع جمعية الاتحاد والترقي. فاختار المركز العمومي وأرسل من سيغادرون فرحين بالاستيلاء على إسطنبول بعدما تفوقوا على مركز مانستير الذي ادعى أنه نجح في مهمته وأعلن الحرية قبل يوم العاشر من يوليو. ولم يتصل القادمون في غضون أيام قليلة مع الصدر الأعظم سعيد باشا فحسب، بل مع العديد من الأشخاص الآخرين أيضاً. هؤلاء الذين أتوا بعدما رأوا من المناسب الانضمام إلى الاتحاد والترقي أفواجاً بعد انتصار العاشر من يوليو - وكانوا مستعدين للانسحاب بالطريقة نفسها إذا ما اتخذت الأمور الاتجاه المعاكس - ظنوا أنفسهم أقوىاء عندما وجدوا العديد من الناس تلتف حولهم. وبعدها أطلق سعيد باشا الذي أعطى انطباعاً بالغضب والدهشة سراح المجرمين الأندان والمتهمين بقضايا سياسية، وكذلك لم يستطع أن يحول دون تهريب عرب عزت باشا وترك حق اختيار وزيري الحربية والبحرية للسلطان، توصلوا أنه لن يأتي أفضل منه بناء على أنه شكّل الوزارة بأكملها من المسنين، واتفقوا مع السلطان عن طريق وسطاء بأن يعود كامل باشا الهرم إلى العمل، والذي



يعد العضو الوحيد، ومن كبار رجال الدولة القدامى، يبلغ الثمانين من عمره، حتى إنه أكبر من سعيد باشا. وبينما كان كامل باشا منشغلاً بتشكيل الوزارة الجديدة في قصر يلدز، شرعوا في مهمة أخرى وهذه المهمة اعتقال كبار موظفي العهد القديم، الذين يجاهرون برأيهم وحسبهم لمنع أي محاولة لإعادة النظام المتهمة ولايته، وفي الوقت نفسه أخذوا في اعتبارهم الحول دون وقوع الحكومة الجديدة في أزمات مالية عن طريق نهب جزء من ثروات هؤلاء الباشاوات.

بيد أنه لم يكن هناك سبب قانوني لاعتقالهم وسجنهم. ولذلك تم التفكير في أنه سيكون من المناسب تكوين قطعان من الرعاع تحت قيادة بعض الاتحاديين الجدد الموجودين في إسطنبول والسيد تحسين الذي ذكر آنفاً وهجومهم على قصور وأنزال الباشاوات وبعد أن محاصروا قصورهم -حتى لا يميز قههم الشعب الذي كان غاضباً غضباً مبرراً من كل واحد من هؤلاء الباشاوات- تقرر أن يؤخذ الباشاوات برفقة الضباط ويُقتادوا إلى وزارة الضبطية، ومن هناك إلى وزارة الحربية.

فالسيد أحمد إحسان صاحب الوفد الذي مازال لم يجد مكاناً له وصاحب مجلة وجريدة ثروة الفنون التي انضمت إلى جمعية الاتحاد والترقي قبل العاشر من يوليو بفترة قليلة اجتمع في الإدارة المقابلة للباب العالي ليعدّل قائمة أسماء هؤلاء الباشاوات، فضم إلى القائمة محمد شهاب الدين باشا الذي علم أن ثروته حقاً ضخمة مستنداً إلى خبر الرشوة الوارد بشكل صريح وقاطع في المقال المنشور في جريدة ثروة الفنون. وإضافة إلى ذلك فلم يكن من الممكن التكتّم الشديد على هذا الأمر، وبعد سويغات من تبليغ القرار للأيادي القذرة التي ستستخدم في هذا الأمر وقد تلقى حلمي أفندي المعروف رسمياً باسم حضرة حلمي أفندي رئيس خدم الباشا وعضو مجلس



المدينة - أي عضو دائرة تنتشر فيها الشائعات انتشار النار في الهشيم - الخبر؛ ولأن حضرة حلمي أفندي لم يصن المعروف لم يحاول إنقاذ سيده على الفور، الذي بدأ تأمين قوته بصفته مسؤول منصب ولاية أيدن منذ ثلاثين عامًا، بل فكر في الذهاب إلى القادمين من سالونيك وبيبلغهم بكل ما يملك محمد شهاب الدين باشا من نقود وودائع بنكية وممتلكات، حتى إخبارهم أين توجد الممتلكات الثمينة في القصر والنزل، وما هي مجوهرات السيدة عزة والهانم الصغيرة وأين تخفيها، لكن علام سيحصل في هذه الحالة؟ ففكر بعدها من هذه الزاوية، فلو أُغِير على القصر والنزل ونُهب جزء من الثروة، ألن يستحوذ على ما تبقى؟ بينما وصل محمد شهاب الدين باشا إلى نهاية الحد الطبيعي لحياة الإنسان ولمّا يموت ميتة طبيعية، فقد تمسكت إحدى ورثته أي عزة هانم بجزء كبير من الآن، لدرجة أن أمل السيد حلمي في الحصول على هبات خيالية أو تبديد هذه الثروة بجلب لصووص إلى القصر والنزل الممتلئين بالأثاث الثمين لينهبوه لن يكون سوى درب من البله والجنون. وعندما فكر حلمي أفندي في كل هذا صرف النظر عن التفكير في الذهاب إلى أحد رجال الجمعية ومحاولة مساومته، فتركض في خوف وقلق إنسان وفي أولاً إلى الهانم الصغيرة ليخبرها بالمخاطر، وعندما ظن أنها لا تعبأ بكلامه أخبر الباشا بالوضع.



الفصل السابع عشر

ركب شيخ الإسلام، الذي اضطلع بدور كبير في الإطاحة بكامل باشا القبرصي وسعيد باشا، جواده الأصيل المتعب في اليوم التالي من "سركجي". وبقي في يلدز على أن يذهب بموكب إلى الباب العالي ليحاول إعطاء الحكومة الجديدة ملامحها الأخيرة. بينما كان شابور شلبي غاضباً من نزع الختم منه وفي خلاف مع السلطان والجمعية أيضاً، أعدّ في الليلة مقالاً بملاء صفحاته حتى الصباح يُحمّل الآخرين جميع إخفاقات الصدر الأعظم، الذي استمر لمدة خمسة عشر يوماً، متصوراً العديد من المخاطر. وقد خطط لتدبير ليلة هي الأربع في حياة بعض الأشخاص الآخرين.

ومن بين هؤلاء، وزراء جلسوا مع كامل باشا وسعيد باشا وشيخ الإسلام على طاولة واحدة لسنوات. وجميعهم، بوزاراتهم، كانوا يُحشون سعيد باشا، وهم: مستشار مساعد السلطان عبد اللطيف باشا، ورئيس كتّبه تحسين باشا، ورئيس البلدية رشيد ممتاز باشا، وقاضي عسكر روملي أبو الهدى أفندي، الذي يدّعي أن السلطان حميد يستغله في عمل التعاويذ، وابنه السيد حسن، المعمم بعمامة بعرض إصبعين، لا تشبه عمامة أي أستاذ. وكان لديه رتبة مدنية وجبة أيضاً.

سيؤخذون من قصورهم وأنزالهم المحاطة بالمئات، ويوضعون في عربات، وبعد أن يتعرضوا للإهانة والإذلال ويُصق على وجوههم، يُقتادون إلى وزارة الضبطية، بشرط أن يأتي السر عسكر السابق رضا باشا فقط من قصره بقرية "وان" على سفينة عسكرية، ويوضعون معاً في غرفة



قدرة غير مجهزة. بيد أن أغناهم، وهما السر عسكر السابق ووزير البحرية، أصبح من حقهما العودة إلى بيتهما على الفور، متبرعين بمبلغ كبير من المال تحت مسمى التبرعات الوطنية.

أما الباقون، وبعد أن قضوا أيامًا قليلة، فقد اختيرت "بويوك أذه" مكانًا لنفيهم، إحياءً لتقليد بيزنطي قديم. ولكن بما أن ثورة العاشر من يوليو لم تكن دموية، فإن الإجراء البيزنطي الخاص بالأباطرة والإمبراطورات المنفيين لم يكن ليتكرر، فلن تُقرع عيون هؤلاء المنفيين الجدد في الجزيرة.

وفي الليلة التي اقتيد فيها الباشاوات وأبو الهدى أفندي وابنه - وغالبًا كان الباشا يعتني بمن يصابون بداء البواسير في القصر - إلى وزارة الضبطية، لم تكن هناك أية مظاهرة أمام قصر شهاب الدين باشا في روملي حصار، ولا نرله في نيشان طاشي، ولا حتى بالقرب منها. ولم يخيم أي ظل من شأنه إزعاج راحة الباشا يومها، لدرجة أن الباشا وزوجه بدأا تساورهما الشكوك حول حقيقة الخطر وعظمه.

ويمكن القول إن هذا كان إنجازًا ضارًا وخطيرًا للغاية بالنسبة للسيد شفيق. وعلى كل، لو كان شخص آخر أقل منه سذاجة، لجعل المتظاهرين يحيطون بقصر شهاب الدين باشا، مما يجعل سكانه يرتجفون من الخوف، ثم لظهر وفرق هؤلاء الناس المستعدين للهجوم، وأنقذهم من الخوف والقلق الذي تسبب فيه. وبذلك يمنحهم الفرصة لتقدير قوته ومدى احتياجهم لها.

ولكي ينجح السيد شفيق في القرار الذي اتخذ من نفسه في فترة قصيرة لا تُذكر، بمجرد أن رأى نعمت، كان من الحكمة إظهار قوته لهذه الفتاة التي تشبه أبيها، وإقناعها بمدى احتياجها لهذه القوة. وفي الواقع، بعدما



شعر محمد شهاب الدين باشا وابنته أن قصورهما وثرواتها في مأمن من أي خطر، لن يرضخا لأي طلب زواج على الفور، بل سيضعان شروطاً جديدة يصعب تحقيقها لإتمام الزواج ولم يكن السيد شفيق عاجزاً عن تلبية هذا الشرط نظراً لأنه عضو له كلمته في الجمعية، لكن قدرته على تلبية الشرط بإنقاذ محمد شهاب الدين باشا من المخاطر الوخيمة التي تحاصره لن تغيّر حقيقة أنه تصرف بتسرع وسذاجة.

ساهم ذهول السيد شفيق أمام جمال الفتاة الرائع وذكائها المبهر بشكل كبير في قراره بمصاهرة محمد شهاب الدين باشا، لكن في الوقت نفسه أثّر التفكير في بعض المصالح في هذا القرار، فهذه الفتاة فائقة الذكاء والجمال هي الابنة الوحيدة للباشا الذي يُشاع أنه صاحب واحدة من أعظم الثروات التي تكونت في عهد السلطان حميد. فهذا الرجل الذي لم يسبق له أن رأى راتب ثلاثة أشهر من قبل معاً في حياته وذُهل عندما تخرج في المدرسة برتبة نقيب وتسلم أول راتب له من كثرة ما يحتويه من (مجيدية)^(١) وأرباع قروش أخذ في حساباته على الفور وفهم كيف يمكن لهذه الزوجة الجميلة فائقة الثراء والجمال الذكية أن تمنحه ميزة مقارنة بأزواج أقرانه البسيطات اللاتي كانوا يتحدثون عنهن بكلمات مهينة ساخرة، وعلى رأسها (عدوات الملاعق)^(٢).

١ - الريال المجيدي هو عملة فضية كانت تستخدم في الدولة العثمانية، سميت بهذا الاسم نسبة إلى السلطان العثماني عبد المجيد. كانت تساوي ٢٠ قرشاً، أي أن الليرة العثمانية تساوي ٥ مجديات. وكانت هناك فئات مختلفة من الريال المجيدي، مثل نصف مجيدي وربع مجيدي.

٢ - تعبير كان يطلقه الرجال على أزواجهم سخرية لأن الزوجات كانت تكسر الملاعق الخشبية قديماً فعندما لا يجد الرجل ملاعق يترسخ في عقله أنهم فقراء فينشغل بالبحث عن كيفية تأمين قوته وأطفاله ولا يفكر في زواج أخرى.



وسرعان ما همست له إسطنبول حيث تتجول العربات الرائعة في أزقتها التي تلمع تحت شمس يوليو متزينة بقصورها والقوارب المذهبة في بحارها أنه عندما يصبح ثرياً ستكتسب الحياة معاني مختلفة وجمالاً واستثناء لا يمكن تصورهم بعد الشوار المنتصرين. فقد طمّع الرائد الوسيم في الغنى والبهاء والثراء الذين لن يناههم إلا بفتاة يحبها شريطة ألا يسرق مثل بعض وزراء السلطان حميد الذين آل بهم الأمر إلى السجون وظن أنه يرغب في كل هذا لأنه استأثر بقلبها وأحبها، لكن إلى الآن لم يقطع متى وكيف سيحاول تحقيق ما يريد.



الفصل الثامن عشر

ارتدى رئيس الخدم حلمي أفندي بذلة جديدة، مهتمًا بلباسه ومظهره كما كان يفعل عندما كان يلتقي بعزة هانم لأول مرة. ألم يكن من اللائق أن يظهر في أبهى حلة أمام السيد شفيق، هذا الذي ظن أنه سيستغل نفوذه في إصلاح الظلم الذي تعرض له حلمي أفندي، بإعادته عضوًا في مجلس المدينة الذي أُطيح منه للتو، أو بتعيينه في منصب آخر لا يتطلب كثيرًا من العمل؟

فعندما استقبله السيد شفيق في مبنى المركز العام، وبعد أن حيّاه ببعض التحيات، جلس على الكرسي المغربي القديم والبسيط الذي أُشير إليه، وأخرج من جيبه رسالة شهاب الدين باشا ردًا على الفضول الذي استشعره في عيني السيد شفيق وأعطاهها له. كانت رسالة مكتوبة بخط يد الباشا من ثلاثة أو أربعة سطور، دعا فيها الوزير الهرم السيد شفيق على الغداء في يوم آخر في قصر روملي حصار. وعلى الرغم من أنه أعلن عن سعادته بمعرفته، لم يتطرق إلى أي ذكرى حزينة تستدعي التعبير عن الامتنان.

بدا السيد شفيق فرحًا كالأطفال وقال إنه قبل الدعوة، وطلب من حلمي أفندي أن يبلغ الباشا أنه يقبل يديه احترامًا. ولم يجروا بالطبع على إرسال سلامه إلى نعمت أو السؤال عن حالها، لكنه أبقى حلمي أفندي جانبه أكثر من اللازم. ولم يكن حلمي أفندي ساذجًا لدرجة أنه لن يفهم أن السيد شفيق فعل ذلك ليس لأنه معجب به، بل لأنه جلب معه ريح الفتاة التي يحبها.



رسا القارب - بصعوبة، لأن الرياح هبّت قليلاً في هذه الأثناء - بعد ثلاثة أيام وفي الوقت المحدد. كان يبدو أنه استأجره من رضيع، فتوقف عند رصيف قصر روملي حصار. وجد الشاب الوقت الكافي ليحدّق بالقصر طويلاً كأنه ينظر إلى حبيته. كان البستان خلفه، الذي يصل إلى أعلى الجبل، يعطي شعوراً بأنه كبير ولا نهاية له، حيث كان يتلاحم مع بستان حلیم باشا المصري، ومن الواضح أن لديه قصرين بين الأشجار.

كان القصر الوردي ذو الثلاثة طوابق في الجزء المتوسط يحتوي على مرفأ كبير بجوار جناح الرجال المطل على ميناء روملي حصار بجانب رصيف واسع. وكذلك كان جزء الشرفات، التي تستند على أعمدة صغيرة، وعلى جانبيها طابقان يبرزان إلى الخارج قليلاً. وظهر من الردهة الطويلة الواسعة في القصر، الذي يحوي نوافذ بقضبان لا تُعد، أن هناك ما لا يقل عن أربعين غرفة.

وبما أن قارب السيد شفيق لم يتمكن من الرسو عند الدرج الرخامي الصاعد من البحر أمام باب حديقة جناح الرجال، تابع جميع من في القصر مجيئه. فركض حلمي أفندي، ومعه مرافق مُسلّح واثنان من أغوات جناح النساء، تايفور ومرجان، لاستقباله. رفض السيد شفيق بابتسامة اليد التي مدّها حلمي أفندي، وقفز على الدرج الرخامي المبلل.

مرّ بحديقة مرصوفة بأرض رملية، منتقلاً إلى العتبة الحجرية، وصعد سلماً بدرابزين بلوري على جانبيه، بعد ممر حجري معلقة في سقفه ثريا ضخمة، ودخل الردهة. أثناء ذلك، ظن أن هذه الروعة لا يمكن أن تكون نتاجاً لمال حلال، وأن الرجل الذي كتب مقالاً في ثروة الفنون قد قال الحقيقة. وتمكن من دخول الردهة وقد طرد من ذهنه الفكرة التي أفلقتها، والتي كان من الممكن أن تزعجه إن لم يتخلص منها. وفي هذه الردهة، التي



دخلها، توجد طاولة رخامية كبيرة تدهش المرء، وعلى يمينها مدفأة مزخرفة بلون فيروزي واسعة بحجم بيت الفقراء. أما الكراسي والأرائك ذات الحواف والأرجل المذهّبة، فهي مثل الطاولة المستديرة في وسط الردهة، كبيرة وضخمة لدرجة أنها لا تسمح للمرء بالالتكاء والراحة.

والمرايا الموجودة على جانبي الردهة، والتي ترتفع إلى السقف، كبيرة أيضاً لدرجة أن المرء إذا أراد أن ينظر إلى نفسه فيها، يشعر بانزعاج كما لو أنه فقد نفسه فيها. وكان البحر يترك تطريزات جديدة على سقف هذه الردهة، مثل جدرانها المزخرفة والمزينة جزئياً بالمريا. وعندما تمر فترة على انبعاث صوت التلاطم من النوافذ المفتوحة، يثار الشك بأن المياه قد غمرت الأرض التي مر بها.

بعدما تفقد شفيق القصر سريعاً، ذهب إلى النافذة وعكف على النظر إلى الخارج. كان المنظر خلأباً، يعطي انطباعاً كما لو أن القصر يقع على شاطئ بحيرة كبيرة أكثر من كونه مقابلاً لبحر. ففي حين أن الشاطئ الممتد من شاطئ الأناضول ويصل حتى نهاية كانليجه، هو نفسه الشاطئ الواصل إلى أطراف نيني كوي، يتقاطعان عند تل يوشا، ويتداخل من بينهما، من الخلف، شاطئاً بيكوز وباشا هيتشه.

وكان هناك عيد من الألوان أسفل شمس الظهيرة:

— حللت أهلاً يا سيد شفيق.

كان شفيق منغمساً في المنظر الذي لا يُمل أبداً لدرجة أنه لم يلاحظ أن الخادم قد فتح دلفتي باب جانبي، ودخل محمد شهاب الدين باشا مرتدياً بدلته، وعلى رأسه طربوش كبير الحجم عريض الجانبين يلائم موضوعة فترة السلطان عزيز. وما أن لاحظته، استدار مسرعاً واقترب من الباشا وأراد أن



يقبل يديه باحترام صادق.

لم يسمح له الباشا بتقييل يديه، لكنه بقي ممثناً لتواضع الرجل واحترامه الصادقين، واللذين ربما أنقذا حياته بالأمس وثروته، أو على الأقل جزءاً كبيراً منها. ومع ذلك، فقد فكر في أن هذا التواضع محسوب، وأنه لو أراد مقابلاً لخدمته فهذا ليس تهديداً، بل قدرته على وضع قناع التواضع والوفاء.

كانت علبة سجائر مزينة بالياقوت والألماس. عارضت نعمت هذا وقالت: "هذا عيب، سيرفضها ويخرجك." وعلى الرغم من أنها قالت إنه لا بد من إعطائه ذكرى أبسط، ترى ألن تكون علبة قد خبأها الباشا في أحد أدراج الخزانة الموجودة في الردهة، حيث استقبله، كافية؟ أسيتطلب المزيد؟ ترى أسيكون ما قالته السيدة عزة صحيحاً، وأنه لن يشبع؟

تناولا الغداء في مواجهة بعضهما، وخدمهما على المائدة أغوان من جناح النساء وخادمان آخران. تحدث الباشا عن المشاكل اليومية، متطرقاً إلى علاقة كامل باشا بالجمعية، دون أن يرى ضرورة لسؤال ضيفه عن فترات طفولته وتعليمه. أراد أن يعرف ما إذا كان هناك احتمال أن تلوح أزمة حكومية في الأفق أم لا.

قال شفيق:

— ترى الجمعية أنه من المضر حدوث أي أزمة حكومية حتى إجراء الانتخابات واجتماع المجلس، ولن تسمح بذلك، وبعدها سيتوقف الأمر على توجهات المجلس الجديد.

— لا يوجد احتمال لعودة سعيد باشا بعد كامل باشا، أليس كذلك؟ لأن هذا الشخص قد دخل الباب العالي قبل ثلاثين عاماً وفي يده استقالته،



وعندما ترك منصب الصدر الأعظم تمكن من العودة إلى منصبه مرة أخرى، وبالتأكيد سيحاول التقرب من الجمعية.

تبسم شفيق قليلاً؛ فلم يرجح أن الاتحاديين سيعيدون هذا الباشا القصير ذا الرأس الكبير، الذي يتحدث كثيراً ولا يستطيع أن يبت في أي قضية، ولا تنتهي مقالاته التي يدافع بها عن نفسه في أعمدة الجرائد، إلى منصب الصدر الأعظم.

وهمس محمد شهاب الدين باشا في نفسه قائلاً: "سعيد باشا لديه (شجرة من الشيطان)، يمكنه أن يجذب من أمامه. فالرجل الذي أقنع السلطان حميد بكفائه وولائه، بالرغم من كل هذه الخييات، سيصل بالطبع إلى ساذج مثلك!" لكنه فضل ألا يفصح عن هذه الفكرة التي راودته وسأل شفيق عن تصوره، متقمصاً دور الأب. وبما أنه يرى أن الوضع قد اتخذ طوره المعتاد، سأله: هل سيعود إلى حياته العسكرية، أم أنه سيبقى في الحياة السياسية بصفته عضواً في المجلس؟

أجاب شفيق، الذي بدأ يتحدث بعبارات صبر واطمئنان أكثر من أيامه الأولى، قائلاً إنه إذا سُئل فهو مرتبط بالعسكرية. وعلى الرغم من معارضة أمه وأبيه، أصر على الذهاب إلى مدرسة عسكرية وتخرج ضابطاً. (وعندما تحدث عن معارضة أمه وأبيه، لم يذكر أن أبيه، إمام المسجد في أدرنة المتوفى منذ وقت قريب، أراد أن يُلِّسه العمامة، ربما ليس لأنه يخجل، لكن استمرارية الحديث جعلت ذلك ضرورياً.) فهو يود أن يعود إلى حياته العسكرية لأنها لا تزال تحتفظ بكل جاذبيتها، ويشمئز من نفاق الحياة السياسية ومطامعها التي علمها لتوه.

راق للباشا قوة تركيزه على كلمة "اشمئزاز"؛ لأن (الاشمئزاز شعور سياسي بلا شك). لكن بالرغم من هذا الاشمئزاز، فهو يخشى أن يهزمه



إصرار أصدقائه، فهم بالطبع يريدونه أن ينسحب من الحياة العسكرية ويصبح نائبًا في المجلس. وكان مترددًا بشأن هذا، فلم يصل إلى قرار.

نصحه الباشا بأن يتغلب على تردده، قائلاً إنه سيكون نافعا للمجلس والدولة. وحتى لو كانت أخطار التعرض للحبس والنهب قد زالت تمامًا، فمن المؤكد أن وجود شخص له نفوذ موال لشهاب الدين باشا سيكون مفيدًا.

إلى أي درجة هو موال له؟ لقد أعجب الباشا بالسيد شفيق، ولو لم يخطر بباله أن هذه الرابطة قد تكون ارتباط الحما والصهر، لوجده وسيما ودودا.

وبعد فترة من شربهما القهوة، شعر الشاب بضرورة الذهاب مستأذنا. وكان محمد شهاب الدين باشا، الذي أولى اهتماما أكثر من المعتاد للطعام الرائع على الغداء، لم يستطع مقاومة النوم؛ وزاغ نظره وأصبح لا يقدر على الكلام، يومئ برأسه يميناً ويساراً. لكن مثلما كان انغماسه في النوم سريعاً، كان تغلبه عليه سريعاً وقويًا.

وعندما استأذن السيد شفيق، اعتدل الباشا في مكانه مبتسماً برضا عاجز أمام هذا الذهاب، ثم قام، وحينها قال:

— لحظة يا سيد.

توجه الباشا نحو خزانة صغيرة مذهبة مثلها كمثل كل أثاث القصر هناك، وفتح جاروراً وأخرج صندوقاً كبيراً أحمر داكناً من القطيفة، ثم مده نحو شفيق:

— لتكن مكافأة بسيطة مقابل خدمتك في ذلك اليوم.

لم يقل لطفك، أو اهتمامك، أو حمايتك، أو إنسانيتك بل قال (خدمتك).

مد شفيق يده للصندوق بابتسامة سعيدة خجلة على شفتيه، وقد فكر



أن هذه الهدية البسيطة ستكون ذكرى. وعلى الرغم من أنه لم يتصور في ذهنه متى سيطلب ابنته، أصبح لا يعتبر محمد شهاب الدين باشا غريباً، لكنه عندما رأى المجوهرات على شكل علبة سجائر بعدما أخرجها من الصندوق اندفع الدم فجأة تحت جلده الرقيق فاحمرّ وجهه خجلاً، وبعدما أمعن النظر في هذا الشيء الجميل لدقيقة من بعيد بشيء من الخوف أغلق الصندوق وتركه على الخزانة التي أخذ منها:

_ إذا سمحت لي، فلا أود أن أخذه، لا فائدة به لرائد مثلي لا يجد شيئاً سوى راتبه الشهري.

احمرّ وجه الباشا خجلاً أيضاً ولم يُحِب؛ فعُلبَة السجائر المرصعة هذه أهدتها له شركة فرنسية قدمت الكثير من التسهيلات والأرباح للحصول على امتياز السكة الحديد، مع تعويض عالٍ للكيلومترات، أثناء فترته الثالثة في وزارة المالية. فرفض هذا الرجل الفقير ما قبله هو.

وهذه المرة، أوصل محمد شهاب الدين باشا شفيق إلى باب الردهة، شاعراً بمودة صادقة. فأمسك بيده الجافة يد الشاب ذات العروق، وأعرب له بعبارات مقنعة أنه سيكون ممتناً إذا أكثر من زيارته.

أدرك شفيق أنه كسب تقدير الباشا برفضه أخذ علبة السجائر التي تساوي ألفي قطعة ذهبية إذا أُلقيت في الشارع، فغادر فرحاً. وبما أنه قرر طلب ابنته الوحيدة، فلا قيمة لهذه العلبة. وبينما دخل القصر وغادره، لم يرفع رأسه لينظر نحو النوافذ التي لا بد وأنها تطل على جناح النساء، ولم يجرؤ على البحث عما إذا كانت هناك عينان زرقاوان بلون البحر ترقبانه من وراء قضبان النوافذ، لتكتشف أعماقاً في قلب إنسان لا يعرفها صاحب ذلك القلب ولم يفكر فيها أم لا.



الفصل التاسع عشر

بعدما زال الخوف والخطر اللذان حاصرا قصر شهاب الدين باشا لعدة أيام، أصبح تقليل التباهي والحد من التبذير في القصر الموضوعين الرئيسين للحديث والشكوى في معظم غرفه. حتى أن الكلام انتقل من أغاوات جناح الرجال إلى مقاهي القرية. فقد شاع الحديث في مقهى نظيف أفندي، الذي كان تايفور آغا يرتاده برفقة الآغاوين الآخرين، وكذلك في مقاهٍ ومتاجر أخرى يرتادها العاملون في القصر، وعلى رأسهم الخوزيون والطهاة.

وعلى الرغم من أنه لم يتم تقليل عدد الجواري أو العاملين في جناح الرجال، هبت رياح القلق والتمرد في القصر الوردي. وبينما نقل السلطان حميد الباشا في نهاية مرضه الطويل من وزارة الأوقاف إلى مجلس الوكلاء بعدما أدرك أنه لن يقوى على العمل المستمر، لم يُمس راتبه وظل خمسمائة قطعة ذهبية. لكنه لم يكن يمد يده إلى دخله من ممتلكاته أو فوائد أمواله المودعة في البنك؛ إذ أن الراتب المُقدَّر بخمسمائة قطعة ذهبية بالكاد يغطي نفقات القصر والنُّزُل أحياناً!

والآن، بعدما أنهى إجراءات تقاعده مثل باقي الوزراء القدامى، انضم إلى صفوف الباشاوات المتقاعدين بمئتين وسبعين ليرة، مما جعل تقليص النفقات الشهرية، التي تصل إلى ألف قطعة ذهبية في أشهر رمضان، أمراً لا مفر منه. وربما فر نصف العاملين بالقصر، تاركين للباقيين عملاً مضاعفاً.



تذمر من يخدمون في جناح النساء من تقليص الطعام المخصص لهم من ثلاث وجبات إلى وجبة واحدة، وصاح العاملون في جناح الرجال أيضًا. لكن السبب الرئيس لتخيم الحزن والغضب على جناحي النساء والرجال كان استدعاء رئيس الخدم، حلمي أفندي، كل يوم بعد الظهر إلى غرفة الكتابة في جناح النساء حاملًا وثائق وملفات وورقًا مقوى، ولا يخرج من هناك إلا بحال يُرثى لها.

بالنسبة للبasha، الذي لم يجد عملاً حقيقياً، فقد وجد تسلية في هذه الاجتماعات والمباحثات التي بدت كأنها محاكاة لمداولات الدولة. حيث تناولت هذه المحادثات والدراسات مواضيع مثل تقليص عدد الطهارة والخدم والحوذين والقواريين والبستانيّين، ومن بعدهم خدم وجواري جناح النساء. كما ناقشوا كيفية الاستغناء عن الخدم بمنحهم هبات من الوزير، أو إيجاد أزواج للجواري الزائدات عن حاجة القصر، وتوزيع مهام المُستغنى عنهم على الباقين.

هذه المباحثات، التي بدت بلا نهاية، اتخذت طابع مناقشات أمور الدولة، رغم أنها تدور حول مشاكل يومية بسيطة. ألم يكن متعباً لأي وزير سعيد بوظيفته أن يقلص دائرة عمله المكتظة بالموظفين؟ أليس وجعاً للرأس أن يختار شخصاً مناسباً لوظيفة شاغرة أو يواجه ضغوطاً لإرضاء أحدهم؟ أما المسكين حلمي أفندي، الذي أُطيح به من مجلس المدينة بتهمة ملفقة بالإخفاق، فقد ضجر وسئم من تكرار الإيضاحات لساعات يومياً، ومن مناقشة الأسباب والدلائل. لكن البasha، الذي تسلى بوظيفته الجديدة، وجد لذة في إصدار القرارات وتحقيق حلمه بالحكم ولو بهذا الشكل البسيط. حتى أن حلمي أفندي لم يشك لحظة في أن هذه الاجتماعات ستستمر، حتى



لو لم تؤدِ إلى أدنى نتيجة.

كان الباشا يشغل بقراءة الجرائد إلى أن يحل موعد مباحثة نوع من شؤون الدولة التي اخترعها لنفسه بعد الظهيرة. فالجرائد التي تحل محل الأخرى التي ماتت بعد عمر قصير دون أن ينقص عددها تأتي للقصر بانتظام كالسابق. ويمعن محمد شهاب الدين باشا النظر فيهم جميعاً باحثاً عن اسمه في أعمدها سدى.

وعندما يتوجب تذكر كل هذه السنوات التي قضاها متولياً منصب وزير المالية والأوقاف والياً لولايات طرابزون، وقونيا، وطرابلس غرب، وسوريا، وأيدن، وورودها في الحديث لا يرى ذكر اسمه ولا المدح والإعجاب كأنه لم يشغل هذه المناصب ولا على الأقل بغرض النقد والذم.

وكان يلقي النسخ التي كان يبحث فيها عن اسمه حتى في إعلانات الأعمدة ولا يجده حائلاً. ذكروا اسمه آخر مرة للإخبار عن أحيلوا للتقاعد انتقدوه بتراشق وإساءة كما فعلوا مع باقي كبار موظفي الدولة وقالوا إن الأموال نظير هذا التقاعد كبيرة جداً.

وقد قابل شهاب الدين باشا هذا الاعتراض والهجوم بغضب:

— هؤلاء الرجال لم يعد لديهم حياء أو فهم! هذه الأموال نتاج ما خصصته من راتبي طوال سنوات. أخصص لمن عمل وزيراً لأكثر من أربعين عاماً وجل أهم الولايات راتب مثل (قول أغاسي)^(١) متقاعد؟ يعترضون دون خجل على عدم سلبي راتب تقاعدي! وكان يتشدق قائلاً هذه الدرجة من التبجح والوقاحة لم يسمع بها ولم تُر من قبل! ومع ذلك

١_ رتبة ما بين النقيب والرائد.



أسعده رؤية اسمه في أعمدة الجرائد حتى ولو بغية الإهانة والذم.

بعدما أغلقت قضية المبلغ الذي يتقاضاه نظير تقاعده لم يحطّ بمثل هذه السعادة لشهرين، يعني أنه لم ير اسمه في أعمدة الجرائد، حتى لو لزمه، وزاره قليل من الزوار، لكنهم مثله أُحيلوا للتقاعد من موظفي الدرجة المتوسطة أغلبهم من كبار الموظفين القدامى برتبة (بالا)^(١) ومنهم من برتبة (أولى)^(٢) يمكنون في قصور وأنزال لم يتم إصلاحها منذ سنوات في (بيبيك) أو (أميرجان). وبينما يدخل شهاب الدين باشا معهم في أحاديث حول الأوضاع يوجه الحديث نحو إمكانية حدوث أزمة حكومية، وكان ينتظر دون جدوى أن يجد من أمثالهم فكرة بأن يقول أحدهم:

— أرى أنه لن يحل الهدوء والأمن طالما لم يعلن السلطان عمن سيشغل منصب الصدر الأعظم.

لكنهم لم يقولوا هذا ولم يتبادر إلى أذهانهم أن يقولوا عبارة: «تعزيز وزارة كامل باشا بالاشتراك مع السلطان»، ومع ذلك كان هذا القول في موضعه، ألم يكن الباشا يقرأ كل يوم في الجرائد أخباراً أن هذا الوزير أو ذاك استقال وهذا استُبدل؟ وأن أحدهم من خارج الوزارة سيُعين في تلك الوزارة؟ وبالفعل أجريت بعض التغييرات، ومثال ذلك عندما سُكّلت الوزارة الجديدة تولى السيد حقي الذي حافظ على منصبه وزيراً للمعارف وزارة الداخلية بالإناابة ثم أصبح بعدها وزيراً للداخلية في الأساس، ووزيراً للمعارف بالإناابة، وبعدها ترك منصب وزير المعارف وبقي وزيراً للداخلية فقط، فلا يبدو أن هناك وزيراً قوياً بالقدر الذي يبقيه في منصبه مثل الوزراء

١— رتبة عسكرية كانت تُستخدم في الخطابات المكتوبة في القرن التاسع عشر.

٢— لقب يُطلق على النبلاء.



القدامى. وجميع الوزراء يظهرون كأنهم مجموعة من أوراق اللعب.

بيد أن كامل باشا الذي يبدو أنه محكوم عليه بتغيير الوزراء الدائم لم يأت منه أي خبر أو دعوة لصديقه طوال كل هذه السنوات شهاب الدين باشا لأخذ رأيه في بعض المشاكل الحرجة. على الرغم من أن الباشا كان لديه آراء صائبة وأفكار مهمة للغاية فيما يتعلق بالمشاكل الداخلية والخارجية وعدم قدرته على إبلاغ هذه الأمور إلى الصدر الأعظم ولا طرحها في مجلس الوكلاء دفعه إلى أن يبت همه إلى المتقاعدين من موظفي الدرجة الثانية ممن كان يستقبلهم وسقط هم تأمين قوته. وأسهب في الشرح لكبار الموظفين القدامى -الذين يرون أن مستقبل هذه المرحلة أشد ظلامًا- محاولاً تسلية نفسه.

بما أنه لم يستطع إرشاد كامل باشا للطريق الصحيح، على الأقل يبلغ السيد شفيق بأن الأوضاع تزداد سوءاً لعله يحذر الجمعية من خلاله، لكن السيد شفيق لم يكن في الساحة، وعلى الرغم من أنه أبلغه في مقابليتهما الأولى والأخيرة أنه سيكون سعيداً إن أكثر من زيارته، أما أنه لم يصدق محمد شهاب الدين باشا أو أنه لم ير ضرورة لمنحه هذه السعادة. باختصار، لم تطأ قدمه القصر مرة أخرى.

كان هناك شخص آخر غير الباشا حزين لعدم مجيء السيد شفيق وهو رئيس الخدم حلمي أفندي؛ لأنه لو كان السيد شفيق أكثر من المجيء واتضح أن المعلومات التي صدرت من رئيسة الخدم تشيشمفلوك إلى زوجه زينب هانم ومنها إليه صحيح بأنه وقع في حب الهانم الصغيرة نعمت لحاول حلمي أفندي دون شك الظفر بخدمة الدولة مرة أخرى بالتملق والإصرار على ذلك. فقد كان حلمي أفندي المسكين يحلم بعضوية في المجلس الجديد، وحتى لو كان منصباً متواضعاً مقارنة بمجلس شورى الدولة، فقد أمضى



أوقاتاً سعيدة في مجلس المدينة، وكان واحداً من الأعضاء النبلاء في هذا المجلس، ناهيك عن أن الحاجب الأسبق كان من أكثر المخلصين المداومين على هذا المجلس لسنوات، ليحظى بسرور قول الذين يحملون لقب الباشا من (بكلربك)^(١) والي روملي و(الميرميران)^(٢) وحتى (أمير الأمراء)^(٣) الأقل رتبة «حضرة الباشا صديقي»، «أو كما أعلن حضرة الباشا صديقي». وبعدها عندما ينهض من الغداء بعدما يصدر أوامره قائلاً: «هناك اجتماع اليوم، سأذهب. افعلوا هذا، وافعلوا ذاك». لا يمكن أن ينسى وضعه الحقيقي بعد الانصراف وكونه خادماً لدى شهاب الدين باشا، وكان هذا الشعور يؤله كثيراً فأصبح لا يُحتمل، لكنه لم ييح هذه الفكرة لأحد في القصر، ولا حتى لخازنة أسراره تشيشمافلك. وإن طلبه شفيق لم يكن قد اتخذ قراره أيقبل أم لا، فكان يشعر باضطراب وتوتر غربيين.

لم ترد أي أخبار عن السيد سادات، ولم يُسمع أي شيء عن الأوضاع في (بويوك أضه). تظن نعمت أنها أخرجت خطيبها السابق من قلبها تماماً، ومنذ أن مات الحب الذي تشكل وكانت لذته كلها في إمعان النظر عند التقاء الأعين في جسدها الشاب اليافع الذي لم توقظه أي تجربة أو أدنى اتصال شعرت باضطراب غريب. وطالما يؤرّقها الاضطراب في مضجعها مساءً فتراودها أحلام غريبة، فتستيقظ منها مرتجفة. وتثار دموعها من كثرة رؤية ابن رئيس الخدم الذي كانت تكرهه والبالغ من العمر تسعة عشر عاماً على شكل تمثال يوناني بجسده الذي سبق لها أن رآته عارياً مرتين وهو يقفز

١- أمير الأمراء، والي بكلربك (لقب الوالي في عهد الدولة العثمانية).

٢- كانت أكبر وحدة إدارية في الأقاليم بالنسبة للتنظيم الإداري العثماني هي الولاية وكان هذا اللقب يُطلق على المسؤول العسكري والإداري لها.

٣- لقب أقل رتبة من لقب ميرميران.



في البحر من الحديقة جهة جناح الرجال وقد كان وقحاً لم يوله أبوه اهتماماً. منذ أن شاع خبر فسخ خطبتها من السيد سادات ظهر من نصيبها غيره. ألن تكون ابنة شهاب الدين باشا الوحيدة الذي يجول ثراؤه كل الألسنة مطلوبة حتى وإن أزيح من منصبه وأُحيل للتقاعد؟ وعلى الرغم من أن أبواب القصر والنزل ظلت موصدة أمام من يجوبون الشوارع بحثاً عن عروس استمر إرسال المقرين لصور كثير من المرشحين الذين قدّمهم أناس ذي نفوذ، بعضهم سادة أولاد كبار الموظفين الذين لهم علاقة بالفترة الجديدة وبعضهم وإن لم يكن آباءهم أو أعمامهم باشاوات كانوا شباباً من عائلات مرموقة تخرجوا بدرجات عالية في المدارس العليا التي التحقوا بها، لكن لم يقع الاختيار على أحد منهم. رأت نعمت فقط أن صورة - التي من المحتمل أنها عدّلت بشكل زائد - نجل الوزير السابق والذي عمل رئيس الكتبة في سفارة عاصمة كبيرة في أوروبا تستحق المعاينة. انزعج محمد شهاب الدين باشا على هذا المرشح أكثر من الباقين عندما شعر بأن هناك ما يستحق الرؤية فصاح الوزير الهرم قائلاً:

— انظري إلى مصاعب ذاك الحقير وأبيه الخرف! أسيرسلون ابنتي إلى بلاد بعيدة وأنا بلغت من العمر أرذله فيجعلوا هذا أو ذاك يشبّعني على فراش الموت في آخر أيامي بدلاً منك؟ لن تغادر نعمت إسطنبول قبل أن أدخل قبري، فلن تتحمل هذه القسوة تجاه أبيها.

بدا الباشا حزيناً مولعاً بها وفي أشد الاحتياج إليها، لدرجة أن عيني نعمت اغرورقتا بالدموع ولم تنفوه بكلمة خشية البكاء إن أجابته، لكن الباشا أدرك أنه ربح قضيته، وبناء عليه نأى بنفسه بسرعة وخوف من كلمة القبر، وعاد بأغراض دنيوية إلى الجرائد التي وضعها جواره ليرى



صورة رئيس الكتبة، وعكف على البحث عن اسمه مجددًا في الجريدة دون جدوى. ولحسن الحظ لم تكن عزة هانم في الغرفة في هذه الأثناء، وإلا كانت جملة التي قالها عن أن في غياب ابنته سيجعل هذا أو ذاك يشيِّعه في فراشه تسببت في ذرفها للدموع وربطها لعصابة رأسها مرة أخرى. ففك عزة هانم العريض يزداد حجبًا بلغدها وعصابة رأسها هذه. وهذا الوضع جعل محمد شهاب الدين باشا الذي رأى أن زوجه تطعن في السن بشكل كبير ينفر منها.



الفصل العشرين

نزلت نعمت على الدرج لتذهب إلى جناح أمها. وبينما تمر من الردهة، انبعث صوت من البهو الأزرق، فغالبًا هو صوت مديحة هانم، زوج عبد اللطيف باشا. فخفق قلبها وهي تشبه الصوت المنبعث بصوت امرأة كانت ستصبح حماتها المستقبلية في وقت ما. فاستدارت مرة أخرى وصعدت الدرج وذهبت إلى جناحها، وقررت على الفور أن تنزوي في غرفتها وألا تنزل إن دعوها. فاستدارت وسارت خطوتين. لكن غلبها فضولها، وحاصرتها فكرة ورود أخبار عن سادات الذي ظنت أنها لم تعد تحبه لما لديها من قوة إرادة. هل أحظى مجددًا بمكانه القديم في قلبها فجأة؟ على كل، لم تستطع الفتاة الشابة أن تمنع نفسها من العودة والذهاب إلى البهو الأزرق. وبمجرد أن دخلت، أدركت أنها أصابت في تخمينها؛ كانت ضيفتهم مديحة هانم.

مديحة هانم التي لم تعد معجبة بنفسها، ولا ترتدي الحرير والقطيفة كالسابق، ولم تعد غارقة في الألباس مثل واجهة محل صائغ منذ أن تستيقظ صباحًا إلى أن تخلد إلى النوم ليلاً. وعلى الرغم من ذلك، ترتدي ملابس غالية فقط، وفي يدها خاتم ألماس كبير. شعرها مصبوغ وتضع الكحل في عينيهما. التغيير الذي طرأ عليها كان في شخصيتها أكثر من ملابسها. وعلى الرغم من أنه مر أكثر من ثلاثة أشهر فقط على عدم رؤيتها، كبرت فجأة، كأنه مر خمس أو عشر سنوات على ذلك. من يدري كم يومًا ستقضي عزة هانم وهي تصف هذه الحالة بشفقة مصطنعة، وماذا ستضيف عليها؟

كانت مديحة هانم تقول إنها ابنة (قاضي العسكر) علي شاهين أفندي،



المعروف بعلمه كونه شاعرًا، وإنها تلقت دروسًا من أبيها لسنوات. وكان حديثها معجميًا معقدًا، كأنها تقرأ على المرء صفحة من كتاب قديم. ولا سيما في محادثاتها مع عزة هانم، يصل الوضع إلى ذروته. فالمرأة المسكينة التي تعلمت القراءة والكتابة بالكاد بعد العشرين، لا تفهم نصف ما تقوله مديحة هانم، فتحاول جاهدة الخروج من هذا المأزق دون أن تبدي هذا. فكانت مديحة هانم تشعر بمتعة وهي تعذبها هكذا. وكان هذا غريبًا، فعلى الرغم مما مروا به خلال الأشهر الثلاثة المفجعة من عزل عبد اللطيف باشا، زوجها، والبصق عليه، واقتياده إلى وزارة الضبطية وسط استهجان، ونفيه من هناك إلى (بويوك أضه)، وكذلك راتبه الكبير والتبرعات التي كانت تصله باستمرار، وهموم المعيشة التي لا شك قد بدأت بسبب الإسراف بغرض إثارة غيرة كل الوكلاء من حيث الاستعراض والتباهي، فكل هذه الكوارث لم تمنع الهانم من الحديث بكلمات عربية وأجنبية اندثرت، لا توجد سوى في الكتابات والمعاجم.

بعدما نظمت قصيدة جديدة في جمال نعمت اليوم بحماس محب يفيض حبه يتضح دائمًا أنه مصطنع أسهبت قائلة:

— قررت هذه الزيارة قبل أيام، وعلى الرغم من هذا القرار لم أجرؤ على المجيء بحال، دائمًا ما كنت أؤجلها ليوم آخر، لكن ابني العزيز سادات أصر بشدة فلم يعد لدي مجال لمزيد من التأجيل. استجمعت شجاعتي وأتيت.

رسمت هذه الكلمات ابتسامة فرح، بل قليلًا من الفخر على وجه عزة هانم؛ لأنها استطاعت فهمها بشكل أو بآخر. بينما نعمت استمعت مبتسمة ابتسامة باهتة. ماذا سيريدها سادات من نعمت؟ ألم ينته كل شيء؟ ألم يقل إنه لن يرضى بأن يبقى تحت أنقاض مبنى منهار؟



استكملت مديحة هانم حديثها:

_ سيذهب سادات إلى بغداد بعد ثلاثة أو أربعة أيام، نعم بعد هذه الفترة القصيرة يا ابنتي. ولا يمكن إثناؤه عن قراره. فيكثر من قول إنه يرى ضرورة التضحيات العظيمة؛ لأنه لا يتحمل أن يُنظر إليه على أنه ابن الباشا، حصل على رتبته بفضل نفوذ والده واحترامه. ومع ذلك، لم يترقّ ابني العزيز إلى رتبة مشير كأصهار السلطان الذين يترقون كل ثلاثة أشهر، ولا إلى رتبة فريق كأبناء بعض الوزراء. وعلى الرغم من أنه بذل جهداً ليحصل علماً منتظماً وممتازاً واكتساب لغتين أجنبيتين، لم يستطع أن يصبح (قائم مقام) إلا في سن الثامنة والعشرين. فلم يرد أن يثير غيرة هذا أو ذاك. ولم يرغب في الترقية إلى رتبة فريق أو عقيد حتى بإشارة أبيه. وقد توقع ابني العزيز! وعندما اتضح له وضع والده بشكل مؤكد وأنه سيعيش حياته في المنفى الأبدي في (بويوك أضة)، قدم طلباً إلى وزارة الحرية قبل خمسة عشر أو عشرين يوماً يخبرهم أنه مستعد لقبول أسوأ الأماكن وأفظعها حتى اليمن. والحمد لله تراجعوا عن ذلك، وشعروا بالخجل واكتفوا بإرساله إلى بغداد، معتبرين أنه لا يليق بابني ذي البشارة الوردية صحاري اليمن. فعُيّن في منصب بأركان حرب الجيش السادس. وقال لي: "لم أعد بعد الآن الابن الذي قضى عمره في أمن عبد اللطيف باشا ورفاهيته، فأنا ضابط يعيش في الأقاليم براتبه فقط. طلبت الذهاب إلى أماكن بعيدة تاركاً إسطنبول طوعاً. اذهبي يا أمي واسألني نعمت إن كان يمكنها التضحية من أجل هذا الضابط أم لا!" وأرسلني إلى هنا لهذا الغرض.

دمعت عينا المرأة النبيلة كثيراً وهي تقول هذا، لكن حزنها الذي كان يبدو عميقاً جعلها تعزز تأثير كلماتها برفع نبرة صوتها الغليظ وخفضها. فلقد اعتادت أن تتحدث بشكل نائر مصطنع لدرجة أن عزة هانم، التي



تعتبر أن إيجاد التشابهات بين الناس المرتبطين بعوالم متباعدة ومنفصلة ميزة بل دليلاً على ذكائها، سمّتها "سيدة حكيمان".

حتى لو لم تكن عزة هانم أمة قبل نقلها إلى قصر (كيل حسن) و(شوقي) و(يلدز)، ففي الواقع حديث مديحة هانم وتصرفاتها الممزوجة بعناصر المأساة هي نفسها لدى "مدام حكيمان"، الممثلة الرئيسة في فرقة (ماناكيان) المسرحية والتي كانت تعود أحياناً لتجلس في المقصورة الرئيسة. أصبحت مديحة هانم ابنة علي شاهين أفندي وزوج عبد اللطيف باشا مثل السيدة حكيمان قبل أي وقت مضى، وبينما كانت تضيف نكهة الميلودراما إلى حزنها الصادق بارتجاف في صوتها، كانت نعمت على العكس تمامًا معترضة على دعوة بغداد هذه وقالت في نفسها: "لو كنت من شخصيات المسرحية الرومانسية لصاحت قائلة سأذهب معه، سأذهب أينما يذهب، سأشاركه كل ما يعاينه من حرمان، لكنني ابنة محمد شهاب الدين باشا وحسب، ولدت في نُزُل في إسطنبول، وأنا فتاة قررت أن تقضي الشتاء في النُزُل والصيف في قصر على البسفور". وبينما واصلت أمها مأساة السيدة حكيمان الطويلة، اشتاقت نعمت للقصر وجال بخلدها مسرحية (الوطن أو سليستير) التي ذهبن إليها بعدما أخذن تذاكرها من نساء يعرفن بعضهن وأخريات لا يعرفهن، بشارات وعباءات سوداء كن يوزعن تذاكر المقصورة المذهّبة مقابل أسعار باهظة للمسرحيات التي سيمنح عائدها لجمعيات خيرية مزيفة، فتذكرت تلك الفتاة التي تُدعى ذكية، التي تنكرت في زي ضابط وركضت إلى ساحة المعركة من وراء حبيبتها. بيد أن نعمت تقبل الذهاب إلى ساحات القتال من أجل الحب، لكنها لن ترضى بالذهاب إلى قصر على طول نهر بغداد، والذي قد يكون له محاسنه الخاصة لعقد مقارنات مضحكة بينه وبين البسفور لتجد عزاءها فيه. وإن كانت الحياة مسرحية، فبالنسبة



لنعمت ليست رومانسية، فلقد اختارتها واقعية، وفي دورها الواقعي الذي وافقت عليه لا توجد أدنى تضحية من أجل الحب.

فإذا كان الشاب الذي اكتفى برمقها من بعيد ثلاث سنوات في أماكن سيرها كأنه جاء لرؤيتها ليلطلب يدها لم يستطع أن يترك ذكريات تتحكم في كل شيء في جسدها ولا أن يؤسس مملكته في قلبها، ألا يستحق حينها العقاب؟ وبمجرد أن أنهت مديحة هانم عباراتها وجمالها الطويلة، قالت نعمت بلطف وحزم في الوقت نفسه:

_ أتمنى له السعادة والتوفيق. فبالنسبة لي لا يمكنني أن أغادر أبي وأتركه لأذهب إلى مكان آخر، أتمنى أن يفكروا في أنني لن أتمكن من العيش في بغداد ولن أذهب إلى الأقاليم لو كانت قريبة أو بعيدة.

_ لكنك لن تبقي هناك إلى الأبد يا ابنتي، عديهِ أنك ستنتظرينه، حينها من الممكن أن يعود في المستقبل القريب.

استشاط غضب نعمت فجأة. لا، كان لا بد من دفع اليد التي تريد أن تجتذبها إلى هذه السفينة الغارقة إلى حافة اليأس. فأجابتها رغبة في خلق فجوة بينهما لا يمكن تجاوزها:

_ لا يمكنني أن أقول ولا أعد بما أمرتني به يا هانم؛ لأنني أصبحت حرة منذ أن فسخت خطبتي وقررت الزواج من آخر، ولا سيما أن أبي وأمي أيداني في فعلتي.

بذلت مديحة هانم جهداً فوق طاقتها واستطاعت ألا تصرخ قائلة: "لا تكذبي، لم أسمع هذا إلا الآن".

تصرفت عزة هانم كأن لديها علماً بهذا الاتفاق وقرار الزواج هذا، ولم



تخرج ابنتها أمام الغريب، لكن بعد أن ذهبت ضيفتها أجهشت بالبكاء منفعة. ربما الحديث الذي استمعت له لساعة جعلها تشبه (السيدة حكيمان) تحت تأثير ارتفاع نبرة صوت مديحة هانم وانخفاضها، وارتفع صوتها من أدنى الدرجات إلى أعلاها وذكرت أنه لا يوجد امرأة في الدنيا أتعس منها، وأن زوجها وابنتها الوحيدة ينظران إليها كغريب ولا تُستشار في أهم الأمور المتعلقة بابنتها ولا حتى يتم إخبارها بها، فأخذت تتمتم تارة والدموع تنهمر من عينيها وتارة تصرخ، وصاحت في مرة قائلة:

— من هذا الوغد الذي أدعو الله أن يعميه؟ من هذا -الذي يصاب بالعمى- الذي لم تري ضرورة للإبلاغي باسمه؟
هزت نعمت كتفيها غير مرة:

— لا يوجد ثمة رجل، قلت هذا لوجوب إنهاء كل شيء.
ولما رأت أن أمها لم تهدأ نفذ صبرها، وبدت كأنها انهزمت لأول مرة لإخبارها بوضوح أنها لا تستحق أن تمارس حقها في الأمومة:
— لكل ذنب عقاب يا أمي، فهو يجني ما زرع.

قالت نعمت هذا ثم غادرت أمها. تجمدت عزة هانم وجفت دموعها من الدهشة، فهمست في دهشة حزن وخوف جسيم كأنها لم تستلهم ولم تتلق أي درس من (السيدة حكيمان) ولا مديحة هانم:
— من يدري منذ متى وهذه الفتاة تعرف كل شيء.



الفصل الواحد والعشرون

وإن نُظِرَ إلى ما قالته عزة هانم، وأنها كانت أمة قبل ثمانية وعشرين عاماً، وجدت محمد شهاب الدين باشا في النُّزُل الذي دخلته بعدما تجاوزت العشرين من عمرها - حسبها قالت رئيسة الخدم تشيشمافلك التي ما زالت تخدمهم وآخر من بقيت على قيد الحياة من الخادومات السابقات - ومعه زوجان تليقان بوزير سابق. أولهما فايضة هانم ابنة الوزير التي اضطلعت بدور مهم في تقديم الباشا سريعاً وتعيينه وزيراً في الثالثة والأربعين من عمره، والثانية شايان هانم كانت أمة في السابق أصغر من الباشا بكثير أحبها فارتقت إلى أمة محظية وتزوجها بعدها. أما الباشا فقد كان رجلاً يبدو جليلاً عليه أنه دنا من الستين بعدما خالط الشيب شعره ولحيته. تزوج من زوجته الأولى في الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين من عمره ومر على زواجهما ثلاث سنوات ولم ينجب، لكن كان لديه ابن يُدعى بهاء الدين يعمل في الديوان السلطاني برتبة "أولى". بينما كانت عزة هانم ما زالت أمة تُدعى جولتر، أصيبت زوجة بهاء الدين ربعة هانم، التي أتت من أسرة قديمة في إسطنبول، بالحمى القرمزية؛ ولأنه لم يرد أن يغادر زوجته الحبيبة رغم كل التحذيرات، انتقل إليه المرض. فأوردا نعشهما وراء بعضهما بأسبوع إلى مقابر "قايلر" الجميلة التي يرمقها من يعبر البسفور ومن يمر منه بموجب وصيتهما؛ ولأنه كان في فصل الصيف وكانا في روملي حصار. عندما فقد الباشا ابنه أصابه الحزن، ظناً أن نسله قد انقطع لدرجة أن ساور زوجته الأولى التي تجاوز سنها الإنجاب، والثانية التي لم تنجب



له، شك عميق. لم يكن من الجيد أن تشاركهما الثالثة في بريق القصر وأبهته، ومع ذلك فإن كان لا يجب الثانية فقد أحب الأولى حباً عميقاً فما زال ينظر إليها بعينه قبل ثلاثين عاماً. لم يكن محمد شهاب الدين باشا ليجلب زوجة الثالثة من الخارج ولا ليأمر بإحضار محظية، لكن ذات يوم أتت رئيسة الخدم - شيفكيفا التي ماتت قبل سبع سنوات بالتهاب الرئة - زوجة الباشا الأولى بإصرار وغلقت الأبواب وأخبرتها أن الأمة جولتر حامل في الشهر الثالث، وأنها عندما وبّختها وضغطت عليها أجابتها قائلة: "الطفل الذي في بطني من الباشا". وبالمناسبة نفسها ذهبت إلى زوجة الباشا الثانية وأخبرتها بالشيء نفسه وبناء عليه قامت الدنيا ولم تقعد وأقيمت الأعياد، لكن الباشا الذي غمرته الفرحة بتلقيه الخبر رفض إجهاضها، وعندما أكد الطبيب الذي استدعاه أن الأمة حامل في الشهر الثالث بالفعل، مُنحت جولتر غرفة منفصلة. وبينما كانت أمة خصص لها أمة لخدمتها. وأنجبت نعمت في الشهر السادس، أُعتقت وأصبح اسمها عزة وتزوجها الباشا لتصبح زوجة الثالثة.

أكان ادعاء إحدى صديقات عزة هانم السابقات - مربية ابنتها تشيشفلوك - من كن يحترق قلبهن حقداً على تقبيل رداثها والتي ما زالت بجوارهم صحيحاً؟ أدنّت عزة هانم من الثلاثين من عمرها في ذلك الوقت؟ وحتى لو كان الأمر كذلك، فبسبب أن زوجة الباشا الأولى فائزة هانم تجاوزت الخمسين ووفقاً للمزاعم فهي تكبر الباشا بعامين، وزوجته الثانية شايان هانم دنت من الأربعين، كانت الفرصة سانحة لعزة هانم أن تحكم قبضتها على الباشا بالكامل، لكن لكونها لا تتمتع بجمال فائق بقدر ذكائها أيضاً، فلم تستطع أن تحظى بنفوذ كبير إذ حازت سريعا بإعجاب الباشا في لقاء مفاجئ في خلوة ذات ليلة. واستمر احترام زوجي الباشا الآخرين ونفوذهما. بيد أن محمد شهاب الدين باشا مدين لعزة هانم إذ



منحته شرف الأبوة في الستين من عمره، وهذا ما حوّلها شرف أن تصبح زوجه الثالثة وأن يعاملها الجميع بمعاملة زوجيه الآخرين نفسها.

باتت عزة هانم زوج الباشا الوحيدة بوفاة ضرّتها الأولى بعد أربع سنوات من زواجها، وضرّتها الثانية بعد عشر سنوات، لكن سرعان ما سيظهر بعدها أمامها شريكة من نوع مختلف أكثر دلالاً وقوة وحدة، وأشدّ يقيناً بحقوقها: نعمت!

هناك حقد تسبب فيه محمد شهاب الدين باشا بين عزة هانم وشريكها الجديدة وغيره لم تفهم عزة هانم سببها لسنوات. نعم، غير؛ لأن نعمت اكتشفت مصادفة علاقة أمها برئيس الخدم حلمي أفندي، وكانت ما تزال طفلة ولم تستطع أن تسامح أمها على هذه العلاقة. فقد كان حب نعمت لأبيها وإعجابها به كبيرين، وكانت مقتنعة بأن أمها مدينة لأبيها لدرجة أنها لم تقبل أن يكون فارق السن بين أمها وأبيها بأربعين سنة عذراً لأمها. إضافة إلى ذلك، ربما ما أدى إلى ازدياد شعورها بالاشمئزاز والاستياء هو أن من خدع أباهما هو خادمه السابق، بل وخادمه المميز. وظهر هذا الاستياء لأول مرة اليوم، فاصطدم بوجه أمها المذنبه. مرضت عزة هانم من الدهشة ذلك اليوم، فرقدت مريضة هزيلة في سريرها وعصابتها على رأسها كالعادة في الوقت الذي كان يؤذن لصلاة العشاء في بعض مساجد القرية.



الفصل الثاني والعشرون

أوشك الخريف أن ينتهي، فقررُوا الانتقال من (روملي حصار) إلى (نيشان طاشي) بعد أسبوع. فقد ذهبت عزة هانم مع ابنتها إلى (نيشان طاشي) منذ الصباح لمتابعة التجهيزات اللازمة عن كُتب. وبعد أن تبقى نعمت هانم في النُّزل لفترة، ستذهب إلى (باي أوغلو) لتحضر من السوق مستلزمات الموسم الجديد. وبقي محمد شهاب الدين باشا بمفرده في قصر (روملي حصار)، وكان الطقس جميلاً لدرجة أنه لكي يقي نفسه الرياح الهابة من جهة البحر الأسود حتى جبل (يوشا)، رفع دُلف النوافذ في غرفته وفتح الزجاج، جالساً على أريكة بالداخل، وعكف على مشاهدة البحر الأزرق الجميل، وجبال الساحل المقابل، وقصوره، وفي يده منظار.

يسكن بحر مضيق البسفور في صمت مطبق في شهر يوليو، ذلك الصمت الذي لا يظهره في شهر أغسطس حيث أهدأ فتراته، متألقاً تحت أشعة الشمس كأنه يود إثنائهم عن انتقاهم الذي عزموا عليه رغبة في إقناعهم بالمكوث لفترة أطول، وينساب البحر على شواطئ مرمرة، ومن ثم يرسل أنواره إلى جدران القصر وسقفه المزخرف فيغرقهم في أشكال معقدة يستحيل تحديد قواعدها وخطوطها.

فمحمد شهاب الدين باشا الذي دنا من قبره منذ وقت طويل جالساً ونادراً ما يتذكر هذا، ظل يفكر بحزن كم سنة أخرى سيمكنه مشاهدة هذا المضيق الجميل هكذا، لكن لم يدر بخلده أبداً أنه لن يعيش نظيراً لهذه الساعة، وأن هذا الخريف لن يعقبه ربيع بالنسبة له. وحقيقة، كان لحرمانه



من صداقة قطته (بولدوم) لبقائه بمفرده تأثير على حزنه. وكان يفكر بشوق غير متناه في سعادة الجلوس على كرسي أحد الوزراء في غرفة شاحبة خانقة لإحدى الوزارات بإسطنبول التي ما زال طقسها حارًا، وقراءة الوثائق المملة التي يحضرها موظفو الديوان من أول سطر لآخر سطر دون ملل. ومن جانب آخر، كان حزينًا لترك زوجته وابنته اللتين اعتاد وجودهما له وحيدًا، فقديماً كانتا تبقيان في المنزل إذا كان هو في المنزل، ولم يكن ممكنًا أن تتركه بمفرده في المنزل وتخرجان إلى الشارع في الوقت نفسه. فسواء كان وكيل جرمي يعيش جائعًا أو وزيرًا يمتلك ثروة طائلة، فينبغي للرجل المتقاعد العاقل أن يفقد جزءًا على الأقل من أهميته في نظر نساء القصر. كانت الأفكار الحزينة ستجرب الباشا إلى سنة دون أن يشعر، فلم يسمع دخول تايفور أغا ولا اقترابه، فتوجب على الزنجي هذا أن يسعل قليلًا. وبناء على ذلك، استفاق الباشا ورفع رأسه:

— ما الخطب؟

— سيدي، السيد شفيق يريد مقابلتك.

لم يتمكن شهاب الدين باشا من التعرف على من هو السيد شفيق هذا في لحظة ذهوله، فلا يوجد من بين كبار الموظفين من يدعى السيد شفيق، وبينما لم يدلّه هذا الاسم على شيء في ظل وفرة من يحملون رتبة (بالا) في أمانة الرسوم هناك من يحمل رتبة أولى شخص لطيف محبوب غالبًا يعمل (مدير قلم)^(١) كان يزوره بين الحين والآخر. لكنه تعجّب لاضطراب تايفور بهذه الدرجة من مجيء شخص لطيف ومحبوب كهذا. وعلى الرغم من أن السيد شفيق أخبرهم بزيارته المفاجئة اندهش تايفور من عدم مشاركة الباشا له

١ - لقب يُطلق على من يرأس قسمًا أو إدارة.



في قلقه، وانزعج من نسيانه إنقاذ السيد شفيق لقصره وما كان سيحل به،
فأصر تايفور قائلاً:

— سيدي، السيد شفيق من جمعية الاتحاد والترقي.

تذكر الباشا فجأة، فارتعدت فرائضه. فدار بخلده استدعائه ليشغل
وزارة أو حتى منصب الصدر الأعظم، ولا سيما أن هناك سخطاً واضحاً
على كامل باشا وأصدقائه في جريدة (طانن). بيد أنه لم يفكر في هذا
الاحتمال الجميل، بل في أسوأ الجوانب. أحانت فترة الكوارث من أجل
الدعوة للتضحية بلهجة تهديد؟ وبما أن الجرائد نشرت أنه تم إيقاف الجباية
في الأقاليم، وأن الحكومة تمر بضائقة مالية مفرغة، ولا بد وأن النقود التي
سُلبت من السر عسكر رضا باشا ووزير البحرية حسن رحمي باشا قد أنفقت
منذ زمن، فكان من المعقول أن السيد شفيق أتى لهذا الغرض والمهمة أكثر
من كونه أتى لدعوته إلى شغل وزارة أو لسؤاله عن أحواله فقط.

بمجرد أن أصبح الباشا في حالة يرثى لها كطفل يحتاج إلى رعاية، كان
سيقول: "أين الهانم الصغيرة؟ أحضر والي ابنتي!" كأنها تشبه صرخة
"أمي!" الغريزية، لكنها علقت في فمه فلم يقلها. لم تعد ابنته إلى القصر بعد.
فلو كانت حلت كارثة، كان ينبغي له أن يواجهها بمفرده. لم يصبر على أن
يستغرق وقتاً طويلاً في ارتداء ملابسه والاستعداد، فكان في عجلة من أمره
لمعرفة أي مصيبة حلت به باسطة جناحيها على رأسه في أقرب وقت ممكن.
ربما لم يجرؤ على جعل السيد شفيق ينتظر أكثر، فخرج من غرفة الكتابة التي
كان يجلس فيها، وعلى رأسه قلنسوته، يرتدي معطفاً لا يغطي رداء نومه
الحرير الأبيض بالكامل، وفي قدمه حذاء من الصوف. واتجه إلى بهو استقبال
الضيف في جناح الرجال، يسير احتراماً ومعه تايفور.



وعندما مر من الباب الذي فتحه له تايفور ودخل البهو، نهض له السيد شفيق احتراماً وركض نحوه ليستقبله. فانجلى خوف الباشا فجأة. لا، أما كان ليركض الباشا نحو الرجل الذي أتى ليلّغه أنه تقرر اعتقاله وحبسه؟ وإذا ما أراد النجاة، ينبغي له ألا يتردد في تقديم تضحية مالية ضخمة، ولا يرغب في أن يمسك بيده الممدودة نحوه كطوق نجاة ويقبلها! نعم، لم يكن هناك ثمة خطر، وفي اللحظة التي اقتنع فيها بذلك، فكر الباشا كم كان خائفاً دون جدوى. من مسته الكارثة من مذنب الحقبة القديمة بعد الذين تعرضوا لها في مراحلها الأولى؟ حتى عند اقتيادهم إلى وزارة الضبطية بعد إعلان المشروطة، أما كان متصرف (باي أوغلو) السابق السيد حمدي، الذي استنكر كثيرون، وعلى رأسهم صهر شيخ الإسلام الجراح جميل باشا، وشايتة، ووزير البريد والبرق حسن حسيب أفندي جاره الذي أُقيل من منصبه بتهمة الإبقاء على الرقابة البريدية لصالح السلطان حتى بعد إعلان المشروطة، وكذلك جلال باشا الذي لا ينسى أبداً وشايتة للكتب الدينية بينما كان وزيراً للمعارف وحرّقه لها في مواقع الحمامات، يجلسون بارتياح في منازلهم؟ شعر محمد شهاب الدين باشا باستياء يكاد يشبه الكراهية تجاه الرجل الذي طوقه بقلق غير مبرر محملاً ضيفه وزر أفكاره الخاطئة بدلاً من نفسه. فمر بتؤدة إلى كرسيه مشيراً له ليجلس، وقبل أن يجلس الباشا حدثه بصوت رصين آمن مثل الذي حدث به في أول يوم التقاه:

— أعذرني في ملابسي، لم أرد أن أجعلك تنتظر أكثر.

أجابه السيد شفيق بنبرة هادئة:

— معاذ الله يا باشا، ينبغي لي أنا خادمك الاعتذار فيما يتعلق بهذا؛ لأنني أزعجتك بالمجيء إليك دون موعد سابق.



وبعدما قال شفيق هذه الكلمات صمت؛ لأنه لم يستطع إيجاد كلمات، ولاحظ محمد شهاب الدين باشا أن يديه ترتعشان قليلاً. حينها اتضح في نظره سبب هذه الزيارة، ربما وقع هذا الرجل في حب ابنته وأتى ليطلبها.

فلم يغضب. ألم يزوّج كثير من باشاوات الزمن القديم بناتهم للشباب الفقراء الذين ربوهم؟ فوالد الزوج الباشا الأولى، الذي رباه، هو وجيهي باشا. حتى السلاطين، ألا يزوجون بناتهم لعبيدهم؟ ألم يزوّج السلطان محمود الثاني اثنين من بناته لخادمي وزيره خسرو باشا؟ ألم يكن صهره الآخر محمد علي باشا، الذي ارتقى لمنصب الصدر الأعظم، طفلاً قروياً ورباه بعدما أعجب به عندما رآه صبيّاً في متجر في السوق؟ ومع ذلك، فهؤلاء الذين يزوّجون بناتهم من هؤلاء العبيد والفقراء بعدما يربونهم وينشئونهم، يعطونهم بناتهم وهم يعلمون أحوالهم، لكن هذا ضابط مجهول أصله أتى من روملي إلى إسطنبول مع موجة التمرد!

لم يستطع السيد شفيق أن يفتح فمه بكلمة، ورجح الباشا الانتظار لفترة دون أن يسأله، لكن صمت شفيق طال لدرجة أن محمد شهاب الدين باشا فكر أنه لو أصر على عدم التفوه بكلمة لربما ظل الرجل أمامه كالتمثال لساعة أخرى، وشعر بأن الوضع لا يتحمل:

— سيد شفيق، أخبرتك في زيارتك الأولى أنني سأكون ممتناً إن أكثرت زيارتك، لكن لأنك لم تأت منذ شهور فلا أرى ثمة صلة بين طلبي وهذه الزيارة، وأستتج أن زيارتك اليوم لها علاقة بمسألة أخرى. إذن تفضل، أنا أسمعك.

حكى شفيق سبب زيارته حزيناً من استحالة استمرار صمته، نادماً على مجيئه وقراره باتخاذ هذه المبادرة والعرق يتصبب في وجهه: قال إنه أحب



ابنته نعمت منذ أن رآها عندما أتت إلى إدارة جريدة "ثروة الفنون" لتترك الرد الذي كتبه. وهذا هو الحب الأول في حياته ووجه الأعظم والأبدي الذي لا يمكن أن يتبعه آخر. ولو أن الباشا لم يره جديرًا بهذا الشرف والسعادة العظمين اللذين يسعى إليهما، سيعود إلى روملي متخليًا عن كل شيء وسيحصل على وظيفة عسكرية في إحدى الولايات الثلاث ويستمر في حياته العادية. وأخبره بالآتي ليعلمه أنه بفعل ذلك يستنزف قدراته وكيف أنه سيدمر مستقبله بيده: فقد ضغطت جمعية الاتحاد والترقي بأقصى حد ليستقيل من الخدمة العسكرية ويصبح نائبًا في الانتخابات التي على وشك البدء، وأن يدخل حياة سياسية مفتوحة على كل الاحتمالات. ومع ذلك لم يرد على الجمعية ردًا قاطعًا على طلبهم؛ لأنه لا يعرف ما إذا كان سيقبل الباشا توسله أم لا. وها هو ذا يزجج الباشا لتحديد الرد الذي يجب أن يرد به على الجمعية.

أنصت إليه الباشا دون أن يقاطعه، وعلى وجهه علامات لا تشجعه لكنها لا تفقده الأمل. فطن الباشا في كلماته الأخيرة أنه سيعود إلى روملي بمهمة عسكرية غير مهمة ربما تاركًا حياة سياسية مشرقة، لتهديد مفاده: "إن لم تزوجني ابتكك سأتركك وتهديدات الجمعية مجددًا وأذهب." فأجابه الباشا بجدية متعجبا كلماته ببطء، لكن طريقة رده أوضحت أنه لن يجيبه في وقتها؛ لأن الباشا أجابه بأنه تقدم بطلب مشروع ويحترم لطلب الزواج من ابنته على سنة الله لتأسيس بيت، لكنه لن يستطيع الرد الحاسم والموافقة عليه الآن بخصوص هذا الموضوع، وأنه يجب استشارة الشخص المعني في الأساس بهذا الأمر أي ابنته، فإن وافقت على الأمر مبدئيًا ينبغي له أن ينظر مجددًا إلى المسألة من جوانبها الأخرى. وأردف أنه سيرسل رئيس الخدم إلى المركز العام إن احتاج إلى الحصول على بعض المعلومات منه أو إخباره بأي شيء.



أخبر شفيق الباشا أنه لو أرسل خادمه صباحًا سيجده في المركز العام؛ لأنه سيمكث في مبنى المركز. وقارن محمد شهاب الدين باشا في ذهنه بين غرفة العزاب هناك والغرف والأجنحة التي سيمكث وينام فيها داخل النُزل الموجود بهذا القصر الذي سيتنقل إليه بعدما يصاهره. وتشعبت داخله قناعة بأن اعتبارات المصلحة ستضطلع بدور كبير في هذا الحب العميق الأبدي في كل الأحوال.

وبعد ذلك انتهت المقابلة بعدما لم ير حاجة للتحدث بشيء آخر. ومن ناحية أخرى، لم يعد لدى السيد شفيق القدرة على التحدث عشوائيًا أو حتى عن السياسة. بمجرد أن ذهب شفيق، أرسل محمد شهاب الدين باشا ليسأل عن ابنته مجددًا. وعندما علم أنها وأمها ما زالا لم يأتيا إلى الآن، استشاط غضبه وعكف على الانتظار بصبر ينفد مع مرور الوقت. وفي النهاية، بعد ساعة ونصف، دخلت نعمت بعباءتها وعلى وجهها برقعها.

— أنت من أمرتني يا أبي، لم نترك متجرًا لم ندخله. وعلى الرغم من أنني تأخرت بهذه الدرجة لم أشتري كثيرًا من الأشياء. يقول لي التجار: "لم نعد نجلب الأنواع السابقة، من سيشتري؟ وأين النقود؟ أنت وحدك من تبقى من زبائننا القدامى". وكأنهم يقولون أيضًا: "ولنر إلى متى سستمكنين أنت أيضًا من الشراء". يا لهم من أوغاد إنذار شؤم!

بعدما تلفظت نعمت بكلمتها الأخيرة تبسمت، لكن ما سيقوله الباشا مهم لدرجة أن تحدث قبل أن تفتح ابنته موضوعًا آخر:

— لدي خبر مهم لك، ستتعجبين قليلًا، لكن إن علمت أن الزمن قد تغير لا يجب أن تندهشي.

صمت الباشا بعدما قال هذه الكلمات، ولم تخف نعمت، فلو كان هناك



خطب سيء ما كان تحدث أبوها بهذا الهدوء.

_ ماذا حدث يا أبي؟ قل ولا تُقلق ابتك.

_ ألا يوجد رائد يُدعى شفيق؟

_ نعم يوجد.

بدا للنعمت الحاجة لتذكيرها بشفيق، وهذه الطريقة بقوله: "ألا يوجد" ظلمًا لها، وحدثت نفسها قائلة: "لو لم يكن هناك السيد شفيق لكان من المؤكد أو حتى احتمال كبير أننا لم نكن لنعيش في هذا القصر مع جاريات وخدم تحت إمرتنا". وبالطبع انتظرت دون أن تفصح عما يدور بخلدتها.

_ ها هو ذاك السيد شفيق أتى وطلب مني...

تحدث بتؤدة وهو ينظر لابنته بابتسامه رقيقة كما يفعل أي أب حنون في مثل هذه المواقف؛ ولأن نعمت فهمت كل شيء بقوله: "طلب مني..." نظرت من النافذة دون داع للقلق. كان اليخت الأبيض للسفارة ينحدر من ناحية (أميرجان)، ولم تتيقن نعمت علم أي دولة يحمل هذا اليخت. قال الباشا:

_ من أين قلقتي ولا تنصتين إلي الآن؟

دخلت نعمت بطبيعية وارتياح في الموضوع الذي كان يؤرقها ظاهريًا على الأقل قبل المشروطة:

_ فهمت يا سيدي، لم أبد قلقًا بشأن هذا.

_ وماذا فهمت؟

ضحك الباشا فظهرت نواجذه التي تفتت وأصفرت وتشوهت:



- ماذا فهمتِ يا ابنة فترة الحرية؟
- أبدى السيد شفيق حبه لابتكّ وطلب مصاهرتك.
- نعم، هو هكذا.
- حسنًا، هل لي أن أسأل بماذا أجبتَه؟
- قلت له لا يمكنني أن أجيبك على الفور، لا بد أن أفكر وأستشير ابنتي قبل أي شيء.
- قالت نعمت:
- خيرًا فعلت يا أبي، لكن بما أنكما تحدثتما على انفراد، هل لك أن تتكرم وتخبرني بقرارك بخصوص هذا الأمر؟
- فكر الباشا مليًا قبل أن يجيبها، ثم قال:
- كلمة قرار ليست في محلها؛ لأنني لست صاحب القرار، بل أنت، فمن المعروف أن الاستبداد قد انجلى، ورأيي أن هناك فجوة بينك وبين طالبك من حيث وضع أسرته، فلا بد من التفكير أولاً ما إن كان سيتمكن من ملء هذه الفجوة أم لا.
- فجوة؟ لم تكن نعمت توافقه الرأي والقناعة في هذه اللحظة، وعلى الرغم من أن أباه وزير، ألم يكن ابن كاتب صغير في (دفتر خاقاني)؟^(١) وكذلك أمها، ألم تكن جارية حصلت على حريتها بعد أن أنجبته؟ ومع ذلك لم يكن هناك عالم من النبلاء مفصول بحدود صارمة في الإمبراطورية العثمانية، ويبدو أن ثورة العاشر من يوليو ستقضي على الامتيازات التي
- ١ - مصطلح يُطلق على السجلات الرسمية أو الدفاتر الإدارية لتوثيق الأراضي، والضرائب، والعقارات، والممتلكات.



حصلت عليها الطبقة التي حاولت إيجاد وجودها بنفسها. ربما شردت نعمت قليلاً بينما تفكر في كل هذا، فهزها أبوها بصوته:

ـ لم أقل له شيئاً. أظنن أنه أمر لا يستحق الحديث؟ أم تفكرين في الرفض الحاسم دون تردد؟

كادت عينا نعمت تدمعان، ومع أن أباهما قال: «ألا يوجد من يدعى السيد شفيق" بأسلوب يوحي بالاحتقار، فقد كان واضحاً من الفضول في سؤاله أنه يريد أن يحتضن هذا الصهر الحامي الذي يلوح في الأفق. كم كان يخشى الوزير السابق المسكين المتعطرس احتمال الرفض!

ـ لا يا أبي، لن أرفض، لكنني لا أرى من قبيل الصواب تخصيص حضرة الباشا محمد شهاب الدين جناحاً في نُزُلُه وقصره دون قيد أو شرط لرائد أتى من روملي.

ـ تتحدثين عن قيود وشروط، ثرى، ماذا يمكن أن تكون شروطنا هذه يا نعمت؟

ـ لنفكر في ذلك لدقيقة، لا بد قبل أي شيء أن يكون وضعه أكثر ثقة وشرفاً. فقد انتشر نفوذ الجمعية الغامضة القادم من غرفة مظلمة في جميع أنحاء البلاد، لكن أطمح في نفوذ معروف اسمه وأسبابه أمام الشعب. لا بد ألا يُطرح احتمال إرساله إلى الجيش الخامس مثل السيد سادات إن تلاشى هذا النفوذ الخفي غداً. أي لا بد أن يُنتخب في (انتخابات المبعوثان) ويدخل المجلس.

ـ إن كان الأمر هكذا فيمكنني أن أهدئ قلقك بخصوص هذا. كان يجب على أن أخبرك في البداية، لكنني نسيت، هذه هي الشيخوخة. أخبرني السيد



شفيق بكل حزم أنه عرض عليه بإصرار الاستقالة من وظيفته العسكرية والترشيح للانتخابات نائبًا، وأن الأمر سيستغرق خمسة أو عشرة أيام إن وافقنا على طلب زواجه منك.

— في هذه الحالة سيكون لدي شرط آخر.

بدأت تعابير حزن على وجه محمد شهاب الدين باشا، وعبس وجهه العابس في الأساس أكثر. وفكر في نفسه: "لعل الشرط الثاني له معنى وممكن".

— شرطي الثاني هو انضمامك للجنة الأعيان التي ستشكل، وإخراجك من وضع الرجل المدان أمام الحقبة الجديدة.

عندما تعرف الباشا على أهم شروطها أحمرت وجنتاه الغائرتان كاحمرار وجنتي طفل من الأمل والسعادة، لكنه قال بأسلوب أب لا يطلب سوى سعادة ابنته، وحكيم زاهد في نعم الدنيا، وبإشارة مفادها:

— لا يهمني، إن حدث كان بها، وإن لم يحدث أيضًا.



الفصل الثالث والعشرون

وبعد مرور أسبوع، انتقلوا إلى النُّزل. وبعد مرور يومين أو ثلاثة آخرين، أي عقب زيارة شفيق بعشرة أيام، رأوا من المناسب دعوته. وفي هذه الفترة، جرت مباحثات خفية واتضح أن المعلومات التي حصلوا عليها مفيدة للغاية. شفيق، ابن أحد أئمة مساجد أدرنة التي لا تُعد، وكان معروفًا بعفته وورعه. ولم يعكف الرجل الفقير على أن يلف العمامة على رأس ابنه بالرغم من فقره المدقع. ولم يعارضه في رغبته أن يصبح ضابطًا متحتملاً كثيرًا من التضحيات. ففي مطلع العام الماضي، أي قبل اندلاع الحركات الثورية، مات تاركًا وراءه أرملته وابنتين، إحداهما مصابة. عاشت أرملته وابنتها، أي أم شفيق وأختاه، في منزل قديم بأحد الأحياء الجانية في أدرنة، في فقر بمعاش الأب المتوفي القليل والنقود التي يرسلها شفيق، لكن دون أن يحتجن لأحد.

أما شفيق، فوصفه جميع من يعرفونه بأنه رجل جاد يهوى القراءة، يعيش بشغف التقدم والنجاح. وبالنسبة لحياته الشخصية، فلم يمر بأي مغامرة عاطفية. لدرجة أن ما قيل عن الرائد الذي ترقى من سالونيك ضد القول أغاسي أحمد نيازي أو السيد نيازي الذي ظهر هناك لكيلا تُترك شهرة بطولة الظفر بالحرية كلها لمن في (مانستير)، تكرر أيضًا في حق شفيق. أي أنها لم يذوقا طعم الحب كلاهما وامتنعا عن الزواج.

أتى شفيق إلى النُّزل في الموعد المحدد له. ولم يكن النُّزل قديمًا مثل قصر الوزير الأسبق؛ فقد أوكل الباشا بنائه مباشرة لمعماري إيطالي. ولأنه مبني على الطراز الغربي بالكامل، فقد أثر تأثيرًا كبيرًا على شفيق. نشأت العمارة



التركية القديمة بين مياه البسفور الزرقاء وبساتينه الخضراء بطراز يتناغم معها، وعلى الرغم من الترميم المستمر، فلم يكن شفيق له ذوق ولا ذو تجربة ليفضّل القصر الوردي الخشبي الذي يتميز بطابع تاريخي واضح على هذا النُّزل - نُزل نيشان طاشي - الذي كان مجرد تقليد لقصور إيطاليا التي تُسمى قصور. وأودى بالرجل العاشق الحزن من احتمال فقدان كل هذا البهاء والروعة قبل أن يتنعم فيه إلى خوف وزج به في الغم.

بعدما مر شفيق إلى بهو كبير يُستخدم كدهليز فاصل بين جناح النساء وجناح الرجال، أُخبر أن الهانم الصغيرة هي من ستقبله؛ لأن الباشا أُصيب بنزلة ألزمته السرير. وبينما ارتشف نصف فنجان القهوة وأعاده في مكانه، فُتح الباب الخلفي فدخلت نعمت. كانت ترتدي مشلحًا بلون رملي وتنانيرها تدلى منها أهداب مذهبة، وعلى رأسها حجاب أبيض. فتقدمت بخطوات واثقة متناغمة بدت طبيعية، وبعدما أومأت برأسها لشفيق الذي نهض مؤديًا التحية العسكرية، جلست على كرسي وأشارت للرجل ليجلس في مكانه السابق:

— أرجو ألا تنزعج يا سيدي!

لم ينطق كلاهما بكلمة لدقيقة، ثم أخل شفيق بهذا الصمت، فتحدث بشكل طبيعي في راحة جلبها اليأس الذي سقط فيه فجأة:

— أظن أن طلبتي كان فيه جرأة كبيرة، وأنكما دعوتاني لتبلغاني رفضكما، وحتى لو كان الأمر كذلك فأنا ممتن لك؛ لأنك خولتني شرف رؤيتك مرة أخرى.

حدثت نعمت نفسها: "لا يبدو حديثه سيئًا في البداية، سيتحدث جيدًا في منصة المجلس في منصبه". ألم يدفئ قلبها هذا الحب الذي طوّقها؟ ألم تشعر في صميم وجدانها برغبة مُلحة بمعانقة وترك نفسها بين الذراعين



المفتولتين لهذا الرجل الذي يُقال عنه إنه لم يعانق أي امرأة من قبل؟ على كل حال كانت قد عزمت على ألا تلين وألا تظهر أي ضعف. وأجابته بنبرة هادئة تنبئ بمناقشة أمور مادية:

— هناك أمر مهم يجب مناقشته. لم يتمكن أبي مع الأسف من مقابلتك؛ لأنه مريض قليلاً منذ مساء أمس، لكننا رأينا أنه لا داعي لتأجيل المقابلة ليوم آخر ومن ثم الاعتذار وتحديد يوم غيره. سأقول لك ما كان سيقوله، ولكن قبل ذلك ينبغي علي أن أشكرك على قبول الدعوة ومحبتك.

أنصت شفيق دون أن ينطق بكلمة، وانتظر اتضاح الأمر من الكلمات التي ستقولها.

— أود أن أتحديث معك عن وضع أبي.

أجابها شفيق بغضب بعض الشيء:

— ألم ينتهِ هذا الوضع تمامًا؟ فأحيل الباشا للتقاعد ويجلس في قصره ونُزله مطمئنًا؟

— أبي ذكي بقدر كامل باشا وليس أكبر منه، ولديه تجربه في شؤون الدولة مثله أيضًا. فلماذا إذن يصبح كامل باشا الصدر الأعظم للحقبة الجديدة؟ وأعادت كلمات شفيق باستهزاء، ألا يجلس في قصره ونُزله مطمئنًا؟ أم أنه تُرك جانبًا؟

التقت عيناها بعيني شفيق، وبدلاً من أن تستمع لتبريرات شفيق التي سيبدأها بكلمة "لأن..." انتقلت إلى هجوم جديد مهم من جانب آخر:

— يجلس في قصره ونُزله مطمئنًا، أليس كذلك؟ إلى متى؟



أجاب شفيق بجدية كأنه المسؤول عن ذلك:

— إلى آخر عمره الذي أتمنى أن يطول.

— أشكرك على كلماتك، لكن من المستحيل ألا يقلق المرء في ظل وضع لا يستند على أي شيء أكيد. فالوضع مزرٍ في الأساس، اقتدتم بعض الباشاوات من الحبس إلى (بويوك أذه) ومن تبرعوا بنقودهم أو أجبروا على التبرع إلى بيوتهم. وعندما تُتحق ذكرى الأموال التي منحها المتبرعون ربما يُرسلون إلى (بويوك أذه) أو إلى (خير سيز أذه) بشكل جماعي. وينضم إليهم في اليوم التالي أصدقاء آخرون. فلو كان هناك مساوئ ونهب وجرائم في عهد السلطان حميد لم يقتربها هؤلاء الرجال الستة أو السبعة لم يفعلوا. ألم يتعرض أبي لخطر مفجع بعد إعلان الحرية؟ لقد كانت علاقتنا بك وتكرمك أنت فقط هو من منع تعرض قصر روملي حصار ونُزل نيشان طاشي هنا للهجوم، وكذلك حال دون اقتياد أبي إلى وزارة الضبطية متعرضاً للإهانة. (أسهبت نعمت بعدما أشارت بيدها لشفيق الذي أراد أن يعترض): نعم، بالطبع هذا ما حدث. ولن ننسى لك هذا إلى الأبد ولن نجحده. فما الحل؟ فلم يكن ما فعلته علاجاً جذرياً لهذا المرض، بل مسكناً مؤقتاً لحدوث الكارثة. وفي الفترة الانتقالية التي نمر بها إما أن يُشفى المرض نهائياً أو أن يتخذ تطوراً خطيراً يجر المريض إلى (بويوك أذه) أو (خير سيز أذه).

أردفت نعمت بعد أن صمتت قليلاً:

— ألا تجرؤ على سؤالي عن العلاج؟

فقال شفيق بصوت مرتعش:

— تفضلي بقبول طلبي ولن يمس أحد حماي.



_ أنا متأكدة من ذلك، لكن، أؤمن الجيد وصولي إليك بسبب الوضع المضطرب الذي نمر به؟ وفي هذه الحالة سيحكم الجميع بأنني توصلت إليك لإنقاذ أبي فقط بسبب عجزني، وأنتك تزوجتني لثروة أبي فقط، وأن هذه الزيجة نوع من الصفقات التجارية.

ثم نظرت إلى شفيق كما فعلت في أول يوم التقيا بنظرة لمست أعماقاً في قلبه لم يكن يعرفها ولم تكن تخطر على باله:

_ فإن قدر الله زواجنا أود ألا أهوي في هذا الشك وليس الآخرون. وإن ظهر للجميع أن أبي في أمان تام لن يحكم أحد أنني استعشت بك بسبب عجزني، وأنتك تزوجتني منتهزاً هذا العجز.

وكان شفيق صامتاً شارد الذهن ولا يشعر بحاجة لاستكمال هذه المساومة في ظل القشعريرة التي اتابته من هذه النظرة، لكن نعمت أردفت:

_ لذلك لا بد أن ينضم أبي إلى الأعيان، سيُتخب من بين أكثر الشخصيات شهرة وخبرة في الدولة، بشرط أن يكون عضواً في الأعيان مدى الحياة. حينها لن يمسمهم أحد، فينبغي لأبي أن ينضم إلى هذا المجلس، متى سيتم انتخابهم؟

_ قام المركز العمومي بعقد مشاورات لا حصر لها في هذا الصدد، لكنني لم أ تدخل في هذا.

غضبت نعمت لاعترافه بعدم اكترائه بهذا الموضوع، لكنها تحذرت من التصريح بهذا وتحدثت بصوت رقيق، لكن لتأمره في الأصل أو لتنصحه على الأقل:

_ إذن لا بد من الإجابة عن سؤالين فيما يتعلق بهذا، بداية متى ستم



هذه الانتخابات أي انتخابات الأعيان؟ ومن سيعقدها؟ أو بالأحرى من سيعقدونها؟

— إجابة السؤال الثاني جاهزة من الآن.

— ماذا تعني؟

— ينص القانون الأساسي على أن الأعيان يعينهم الحاكم، وفي هذه الحالة...

أكملت نعمت كلمة (في هذه الحالة..) التي لم يكملها شفيق وقالتها بمد مقاطعها:

— تقصد أن تقول إن في هذه الحالة يجب أن تتصرف بنفسك وتطلب من جلالة السلطان، فلا يوجد ما يمكنني القيام به، أليس كذلك؟ ألن تمنع بالفعل السلطان من استخدام حقه وصلاحياته الواردة في القانون الأساسي؟ أنا على يقين بأن الصدر الأعظم سيختار الأعيان بالتشاور مع الجمعية، ولن يبقى سوى توقيع السلطان، حينها ينبغي لأصدقائك أن يجبروا كامل باشا بتعيين أبي في مجلس الأعيان.

قامت نعمت بأداء يُنبئ بأنه لم يعد هناك شيء ليتحدثا فيه بعد الآن، فسارت أمام شفيق لتدله الطريق وأوصلته حتى الدرج، ثم وقفت هناك ممعنة النظر في عيني الرجل الزرقاوين الغائرتين ذات الرموش البيضاء إلى حد ما:

— لا بد أن تقوم بذلك في أقرب وقت حتى يسنح لنا تنظيم حياتنا.

شعر شفيق حينها بأن قلبه يكبر فجأة بشكل خيف بين صدره، وبينما يسير في طريقه إلى وزارة الحربية حدّث نفسه قائلاً: "كان بإمكانها أن تطلب مني منصب الصدر الأعظم لأبيها، لكنها لم تفعل". وبداله كل شيء الآن ممكناً في حماسة وفرحة.



الفصل الرابع والعشرون

ذكرت الجرائد بعد يومين أن السيد شفيق استقال من عمله العسكري، وورد في الأعمدة المخصصة لأخبار الانتخابات التي ستُجرى بعد أسبوع أنه سيرشح نائباً عن (تكير داغ)، لكن انقطعت أخبار الشاب منذ عشرين يوماً. وقضت نعمت العشرين يوماً في شغف كبير كان يتحول إلى خوف مع مرور الأيام، لكنها لم تبديه.

فلو أن شفيق لم يظهر؛ لأنه لم يستطع أن يؤمّن دخول الباشا إلى مجلس الأعيان ولو لن يظهر، فأبواب النُّزل موصدة أمامه للأبد، لكن هذا يعني أنه سيكون من القصور التي سيطرق الخطر أبوابها الموصدة. أم أن شفيق اشمأز من إجراء مفاوضات ووضع بعض الشروط أمامه، لذلك لم يأت؟ لماذا وضعت شرط دخول أبيها في مجلس الأعيان في حين أنه لم يخبره بذلك؟ ألن يصبح كونها زوج أحد أهم رجال الجمعية والذي سيدخل المجلس كافياً لحماية أبيها من أي هجوم؟ وهناك احتمال أيضاً أن ينشب صراع بين الاتحاديين أنفسهم، ألا يمكن للصراعات التي ستؤدي إلى أن يشرب الاتحاديون دماء بعضهم أن تدمر جدران مجلس الأعيان القديمة الواهية، وكذلك أن يتم القبض على المُرّمى المشتبه فيهم والمجرمين الذين لجأوا إلى هناك؟ وبخلاف ذلك، فحالة الشاب الأشقر بعينه الزرقاوين ورموشه البيضاء وهيئته المتشكلة من لحم ودم وذكرى أنه تجرأ لأول مرة في حياته ليعترف بحبه لها عن قرب، طوّقت كيائها بصوته ودفنه. وأصبح الشعور باحتمالية فقدانه تماماً وجعاً عميقاً بداخلها في بعض الأحيان.



وبينما يقرأ محمد شهاب الدين باشا الجريدة التي نشرت أن شفيق سيترشح نائباً، رفع رأسه وقال:

- يا إلهي، السيد شفيق سيترشح نائباً عن (تكير داغ)!

لكنه لم يُعقَّب على هذه العبارة، ولم تقل نعمت شيئاً أيضاً. وربما أن الأب وابنته ينتظران رؤيته وورود أخباره بنفاد الصبر نفسه. بيد أنها وجدا من المناسب لمكانتهما ألا يفتحا هذا الموضوع. شعر الباشا بهوس تجاه الجرائد التي تتزايد أعدادها بشكل مفرغ؛ ولأن قراءتها خيّم على يومه بالكامل، كان بالكاد يجد وقتاً للوضوء لأداء الفرائض الخمسة.

تري من سيكونون الأعيان؟ لم يتسرب هذا السؤال من لسانه لدرجة أنه سأل مرة أو مرتين جولندام محظيته الفيضاء طويلة القامة ذات البشرة البيضاء التي لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة، والتي كوَّنت كل المعلومات السياسية بعدما أصبح لها الحق في أن تخرج من النزل وقتما شاءت؛ لأن الحقبة الجديدة قد بدأت، وهذه الحقبة تُدعى الحرية. حتى أنه ربما أحياناً يسأل قطته (بولدوم) التي كانت تبقى في حضنه لساعات.

مثلما أخفي عن عزة هانم المسكينة مجيء شفيق لطلب الزواج من نعمت، أخفي عنها الطلب من شفيق دخول الباشا لمجلس الأعيان أيضاً، لكن لأن الباشا وجه لها سؤالاً:

"تري من سيكونون الأعيان؟" وشرح لها بالتفصيل ما هو مجلس الأعيان الذي يتلهم لدخوله، أبدت الهانم أيضاً اهتماماً شديداً للأمر. وهذا الاهتمام الشديد كان بمثابة موااساة للباشا ومصدر أمل؛ لأن عزة هانم لم تشك للحظة في كونه سيدخل مجلس الأعيان. وأدعت في بادئ الأمر أن السبب في هذه الثقة هو "رجاحة رأي السلطان" وقالت:



"ألن يعين سلطاننا رجلاً عمل بالوزارة لمدة أربعين عامًا في مجلس سيتشكل من ذوي الخبرة في أمور الدولة؟"

وبعدما شُرح لها مرة أخرى أن "رجاحة رأي السلطان" هذه لم يعد لها قيمة مادية ولا فائدة عملية، تشبثت بصداقة كامل باشا وولائه.

اعترض الباشا أكثر من مرة على كلامها في ظل احتياج شديد لجعله يصدق وكذلك تنمية الآمال الضعيفة:

- توقفي عن الحديث عن أشياء لم تعد موجودة في الدنيا ما يُدعى الوفاء للصداقة! فماذا فعل كامل باشا منذ أن أصبح صدر أعظم لأصدقائه الذين تم اقتيادهم لوزارة الضبطية بالبصق على وجوههم ليمسني خيره!
وفي كل مرة تقول له عزة هانم:

- يا عزيزي، أيمكن المقارنة بينك وبينهم؟ بهؤلاء الرجال الذين اتبعوا الشيطان مرتكبين الذنوب كلها! وكذلك فكلهم حديثو العهد، ألا يوجد حق للأربعين سنة اللاتي قضيتهن مثلك مثل كامل باشا؟

تارة يروق للباشا إصرار زوجته ومنحها الثقة له، وتارة أخرى يفكر في أن ما تقوله يتناقض مع قناعته بمدى افتقارها إلى القدرة على التفكير بمنطقية، وهذا الوضع كان يدفعه إلى فقدان الأمل.



الفصل الخامس والعشرون

وفي النهاية، في صباح أحد الأيام، كتبت الجرائد أنه تحدّدت قائمة الأعيان وأنها في خلال يوم أو اثنين ستعلنها كلها باللهجة والكلمات نفسها، معتمدة في ذلك على أخبار وردت إليها من مصدر رسمي. وفي ذلك اليوم، قرب العصر، بعدما مرت الساعات التي بدت لمحمد شهاب الدين باشا كل واحدة منهن كيوم، أتى السيد شفيق إلى نُزل نيشان طاشي، فأخذه الخدم الذين عرفوه على الفور إلى بهو وردي مخصص لاستقبال الضيوف المهمين إلى جناح الرجال، وقدم الآغا الممتلي، أي تايفور، بطاقة مكتوبة من نائب (تكير داغ) إلى الباشا، راکضًا بكل عزمه إلى جناح النساء. كان الباشا في تلك الأثناء في غرفة نومه، فمنذ يومين ألمّ بجسده ألمٌ خفيف؛ ولأن مشروبات الزيزفون والخطمي التي أعدتها الهانم وجولندام لم تزل تُخفف الألم، استعد لتناول الحبوب التي كتبها له الطبيب (ميجير ديتش نزاريتيان) الذي استدعوه صباحًا من منزله في شارع الترام في (بشيكتاش). وكانت نعمت تقف جواره وفي يدها كوب الماء، لكن الباشا، الذي ابتلع أول حبة دواء، تراجع عن تناول الثانية، وبينما كان يمسك بها في راحته، ألقاها في العلبة. وفي النهاية أتى خبر. خبر جيد أم سيء! حتى لو كان سيئًا، على الأقل سيخلّصه من هذا الشك والقلق...

تركت نعمت كوب الماء على الطاولة الصغيرة ووضعت علبة حبوب الدواء التي وصفها الطبيب نزاريتيان بجوار الكوب:

- ماذا تعني هذه الزيارة!



- تحدد مجلس الأعيان.

- أو أنه أتى ليلبغني أنني لم أدخل في مجلس الأعيان.

- وما الداعي لمجيئه من (جاغال أوغلي) إلى (نیشان طاشي)؟

- لا يمكنني أن أتوقع، لكن ليعتذر قائلاً: "إنني سعت كثيراً".

تحدثت نعمت بأداء تنكر فيه ندمها على وضع شرط انضمام أبيها إلى الأعيان في الأيام التي مرت دون ورود أي أخبار عن شفيق:

- لقد فهمني شفيق لدرجة أنه متأكد من أنني لن أقبل أي أعذار مثل هذه.

- على كل حال سنعلم بعد دقيقتين، ارتدي فقط أنتِ الحجاب وضعي مشلحاً عليكِ وابقى بجانبني!

- ليكن يا أبي، ولكن ارتدي أنتِ أيضاً ملابسك! هذا الرداء، ووشاح الفرو، وقلنسوتك!

وفي الحقيقة، كان الباشا الهرم بردائه ووشاحه وقلنسوته وبجواره علبة الدواء وكوب ماء ليلتلع هذه الحبوب، يبدو أنه وهن ودنا من قبره لدرجة أنه في حين أتى شفيق ليخبره بتكوين مجلس الأعيان، تبادر إلى ذهنه التراجع عن هذا وأن يخرج من النزل دون أن يعلمه أي شيء، وقال في نفسه: "قد أكون مسؤولاً غداً عن هذه الوساطة، لأذهب وأقول إنه تراجع عن رغبته." وربما شعر الباشا في لحظة بكل هذا، وسيكون قد فكر وقال له: "أنت محق". وأمر تايفور بتقديم القهوة والشربات للضيف ويطلب منه الانتظار قليلاً.

نزل محمد شهاب الدين باشا بعد عشر دقائق إلى البهو المخصص



لاستقبال الضيف المؤدي إلى جناح النساء، يرتدي بدلته وقد جلس كالعادة على كرسيه المذهب، ونعمت تقف خلف أبيها متكئة على جانب كرسيه، ترتدي المشلح الرملي نفسه ذا الأهداب المذهبة وعلى رأسها حجاب ثقيل. وعندما دخل شفيق، كان الباشا حريصاً على أن يتقدم بتؤدة، وهذه التؤدة ليست من شيخوخته، لكن من رصانته. وعلى الرغم من رصانته، بدا لطيفاً مبتسماً واعتلى كرسيه. وبعدها، بينما هب للقيام، لم يقم، وأشار إلى شفيق ليجلس على كرسي أمامه يشبه الذي يجلس هو عليه، لكن منخفض عن الكرسي الذي جلس شفيق عليه المرة الماضية.

اختفى هوس شفيق بالاتحاديين، ويمكن أن تكون زالت شخصيته في الجيش، فلم يعد عضواً في أي جمعية. فقد أصبح شفيق نائباً، ونائباً مثله تماماً شغل واحدة من أهم الوزارات، وزارة (العدلية والمذاهب). وهذا الشخص، أي مانياس زاده السيد رفيق، أصبح وزيراً قبل أن يكون نائباً، بيد أنه لم يكن شاباً مثل شفيق، كان هَرماً يحمل رتبة (أولى)، لكنه بعدما أصبح وزيراً، وحقيقة أنه كان يطمح أن يكون عضواً في مجلس النواب، كان أمراً من شأنه منح آمالاً وطموحات كبيرة لجميع النواب.

نعمت، التي رأت أن شفيق امتنع وجهه وهو يسلم على أبيها، وخجل من النظر في وجهه، حدثت نفسها قائلة: "تري ألم يستطع أن ينظر في وجه أبي؛ لأنه لم ينجح في مهمته كما توقع أبي!" فخافت، ولم يدم خوفها. وتحدث أبوها:

- كيف حالك يا سيد شفيق؟ أبخير إن شاء الله؟ أهنتك على انضمامك لمجلس النواب. كان ينبغي لنا تهنتك قبل ذلك وبشكل شخصي، لكن تركنا أحر التهاني لك عندما تصبح وزيراً.



ثم صمت الباشا بعد أن بذل كل قدرته على إطلاق النكات بهذه الكلمات. فأجابه شفيق:

- أشكركَ سيدي، بارك الله في عمرك!

بعدما شكر شفيق الباشا متممًا، انحنى قليلاً نحوه باحترام كبير وأخبره:

- أهنتكَ يا باشا. اعتمد السلطان حميد الآن قائمة الأعيان الجديدة وأعادها إلى الباب العالي. واسمكَ موجود في هذه القائمة، فمن الآن أنت عضو في الأعيان، وستعلن الجرائد غدًا.

ونظر إلى نعمت التي حاولت جاهدة إبقاء جفنيها مفتوحين بنظرة راحة واطمئنان لعريس اتفق مع أبيها فيما يخص زفافهما. ولأول مرة، نعمت تسمعه وهو يقول "سلطان حميد" وليس "السلطان عبد الحميد"، فأخذت في الحسبان الاحترام الذي أبداه للسلطان أمامها ففرحت، وأجابته بنظرة ارتياح مفادها: "نعم، هكذا حُلَّت الأمور." وذكر شفيق بمكان الباشا الذي نُسي في هذا التوقيت وشروطه، صوته الذي كان صافيًا بقدر ما يستطيع دون سعال تحت تأثير الجيوب التي أخذها ليرتدي بدلته وينزل للبهو حيث يلتقي شفيق.

- أشكركَ بشكل خاص على الخبر السعيد الذي أتيت به. وأقدر مساعدتك في هذا الشأن، حتى أنني أعلمها جيدًا، ومتأكد منها.

فمحمد شهاب الدين باشا، المنضم لمجلس الأعيان والمتأكد من أنه لا تستطيع أية عداوة أو ضغينة أن تساويه بالباشاوات الذين يعيشون أحرارًا في (بويوك أضه)، يتحسسون آثار البصق على وجوههم، تحدث بمزيد من الرصانة، وكان يشكر شفيق بدرجة اهتمام لا تصل إلى الامتنان. لم يلحظ



شفيق التغير المفاجئ الذي طرأ على الهرم، واعتبر أن ذلك مؤشراً أنه يعامله كابنه؛ لأنه قرر مصاهرته. ورد على الباشا عندما قال له: "مساعدتك..." بقوله: "استغفر الله." غير أن شهاب الدين باشا اعتاد على مجلس الأعيان في لحظة معتبراً ذلك الأمر ضرورياً بطبيعة الحال، لذلك لم يتوقف عنده كثيراً، وأراد أن يعرف أصدقائه في مجلس الأعيان؛ لأنه لم يتبق من الثلاثة والتسعين عضواً في مجلس الأعيان سوى سعيد باشا، والسيد لوجوفيت الرومي، وإبراهيم باشا الأرمني.

- وفقاً لكون القائمة تشكلت بموجب رغبة السلطان، يعني أنه من المعروف ممن تتكون. حسناً، من الموجود فيها من الأصدقاء القدامى؟

- تتكون ممن هم في الوزارة حالياً، وزراء الخارجية، والحربية، والبحرية، ورئيس مجلس الشورى، وكذلك وزيري التجارة والنفعية، والغابات والمعادن.

- وماذا عن الصدر الأعظم وشيخ الإسلام؟

- لم يرغبوا في الانضمام، فقد اعتبروا هذا كأنه تعيين لأنفسهم.

انكمشت شفتا الباشا بانفعال أقرب إلى السخرية والاحتقار والاندھاش:

- لكن كل هؤلاء الوزراء مُحدثين، فمن الموجود من الأناس القدامى؟

- هناك شخصيات كبيرة، وعلى رأسهم أحمد مختار باشا وأدهم باشا.

- وبالطبع انضم عبد الرحمن باشا لمجلس الأعيان؟

لم يعرف شفيق عبد الرحمن باشا هذا في الوهلة الأولى، فكم كان هؤلاء



المُحدِّثون أمثال شفيق ينسون سريعًا كبار الدولة القدامى. فشرح له الباشا منزعجًا:

- رئيس الوزراء الأسبق ووزير العدلية عبد الرحمن باشا.

ثم أضاف مستاءً: "الرجل الذي غادر مهمته في مجلس الوكلاء بعدي مع تشكيل وزارة كامل باشا".

فتذكر شفيق:

- لم ينضم إلى مجلس الأعيان يا سيدي. فلم يطلب من الأساس.

أهناك غضب أو إدانة أو سخرية مخبئة في قول: "لم يطلب من الأساس". لم يحتمل محمد شهاب الدين باشا هذا ولو للحظة. يبدو أن الكلام نفذ فانهزم شفيق أمام احتياجه للنظر إلى وجه نعمت. فرأى في عيني الفتاة الشابة ما معناه: "يمكن إنهاء المقابلة الآن". وعندما نهض شفيق مستأذناً للرحيل، اعتدل الباشا في كرسيه. اعتدل هذه المرة ببطء أكثر مُجبرًا. ربما لم يشعر بالحاجة - كأن عضويته في مجلس الأعيان ستستمر أبدًا - إلى إخفاء عبء شيخوخته أو أنه تناقل فجأة فلم يعد قادرًا على إخفائه.

وبينما يغادر شفيق قال له الباشا هذه الكلمات لأول مرة:

- أشكرك يا ابني، لالتقي مجددًا قريبًا.

سارت نعمت أمامه لتدله الطريق ففتحت الباب وأخرجت شفيق إلى بهو ثانٍ مفتوح على دهليز يؤدي إلى الباب، توقفت في منتصفه ناظرة إلى عيني شفيق:

- بما أنك نجحت في تحقيق الأمور المطلوبة، يمكنني أن أبلغ أبي بأن هذه



الزيجة ستكون موفقة في حال لم تتراجع عن رغبتك السابقة.

ومدت يدها. فامتقع وجه شفيق وأمسك بيد نعمت بيديه الباردة كالثلج، لكن لم يستطع أن ينحني لتقيل هذه اليد حتى أنه نظر إلى الفتاة مندهشاً دون أن ينطق بحرف. وهذه الدهشة أرجفت نعمت بلذة غريبة عارمة. وعلى الرغم من أنها لم تذق أقل لذة مع رجل وهي في الثالثة والعشرين، فالفتاة التي علمت وتخيلت كل شيء بمساعدة الروايات الأجنبية الكثيرة التي قرأتها، ولأنها تصادف في أحلامها سليم الذي يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً، الذي يشبه تماثيل اليونان القديمة ابن رئيس الخدم حلمي الذي تكن له ضغينة في كل ساعة حتى الأيام الأخيرة، وليس لسادات. احتضنت في النهاية الشاب الأشقر الجميل المهندم المائل أمامها فارتجفت بالتفكير في القشعريرة التي انتابت جسدها عندما ستضمّه بجنون إلى قلبها.

وفي الوقت نفسه يلوح رأس السيد سادات الأشقر للمرة الأخيرة من مسافة بعيدة، بل بعيدة جداً. وكانت تحاول أن تذكر نفسها بالماضي قبل أن يتلاشى إلى الأبد. بيد أن هذا لم يكن ليتسبب سوى في تجعيدة صغيرة على شفتي نعمت الحمراء التي تبتسم لشفيق.



الفصل السادس والعشرون

لم يستطع محمد شهاب الدين باشا النوم ليلة دخوله إلى مجلس الأعيان، وتلقى خبر صدور فرمان، وأن تعيينه مع الأشخاص الآخرين في قائمة الأعيان الجدد، سيتم الإعلان عنه في الصحف غداً. ولم يتحمل انتظار فجر ذلك الليل الشتوي الطويل. ومع بزوغ الفجر، ضغط على الجرس ونادى جاريته "جولندام" التي كانت ساهرة على فراش خارج غرفته مستعدة لتلقي الأوامر التي قد تأتي في أي لحظة، ثم ضغط على الجرس مرتين أخريتين بعصية وحدة فلم يحتمل الانتظار حتى تهدم ملابسها وتدخل. وعندما دخلت جولندام كان على وشك الخروج إليها؛ وقال لها:

أين أنت؟ أنادي عليك منذ ساعتين!

وسألها دون أن ينتظر جوابها:

هل وصلت الصحف؟

إلا أن الفتاة اعتبرت هذا السؤال غير منطقي لأن الصحف لم تصل بعد إلى القصر في الوقت الذي بدأ فيه بزوغ الفجر بالكاد، وأجابت وهي لا تخفي دهشتها:

لم تصل يا سيدي، ما زال الوقت مبكراً جداً.

بالطبع يشرق الفجر متأخراً في الشتاء، وربما تكون السماء ملبدة بالغيوم. لا تحدث هكذا بلا دليل! فليذهب أحد الخدم إلى بشيكتاش على الفور. فالصحف توجد هناك بالتأكيد.



وأخيراً، بعدما انتظر الباشا نصف ساعة بقلق شديد، وفي تلك الأثناء شرب ثلاثة فناجين من القهوة، قُدمت إليه الصحف الصباحية في صينية فضية. فاندفع الوزير الهرم إلى جريدة "صباح"، التي لطالما كانت هي المفضلة لديه، باحثاً عن قائمة الأعيان. لم تزل الشكوك والمخاوف تساوره، ولم يستطع أن يثق تماماً في الخبر الذي أتى به شفيق وأعلنه بلهجة قاطعة. حتى إنه لم يخبر زوجته بذلك، فمن يدري، ربما يتراجعون في اللحظة الأخيرة.

ألا يستطيع أحد الأوغاد أن يزعم فجأة بأنه لا يجب إعطاء مساحة لبقايا الاستبداد التي نجت بصعوبة من هجوم قصره في روملي حصار خلال ضجيج الأيام الأولى، والتي تمكنت من الهروب في اللحظة الأخيرة، مثل بعض الباشوات، من نقلها إلى وزارة الداخلية وسط صيحات الاستهجان والبصق، ألا يمكن أن ينجح في ذلك؟ فقصة الرشاوى المأخوذة مقابل ثلاثة قروض لم تُنسَ تماماً.

لكن، لا، الأخبار التي وردت بالأمس كانت صحيحة، لقد كان تعيينه حقيقة. للوهلة الأولى، رأى اسمه على رأس قائمة الأعضاء، التي لم تكن طويلة جداً على أية حال، احتراماً لرتبته وأقدميته. وشعر بالإنارة العميقة واللذيدة التي يشعر بها الشاب الذي يصاب بالدوار فجأة عندما يعلم أنه وصل إلى منصب رفيع للغاية، وكأنه ليس هو الذي تم تعيينه وزيراً قبل أربعين عاماً والذي شغل وزارة قبل الجميع في البلاد، وخاصة سعيد وعبد الرحمن وكامل باشا وجميع الوجهاء القدامى. وشعر بالدوار، وضغط بيده على قلبه النابض. وقال بصوت عالٍ ومرتحف: "هذا من فضل ربي".

وكانت الجارية التي لم تكن تعرف أو تفهم شيئاً، تنتظر الأوامر ويدها مطويتان على صدرها.



فسألها الرجل الهرم:

ألم تستيقظ الهانم الصغيرة والهانم؟

لا أعرف يا سيدي. لا أعتقد ذلك.

تحدثين دون دليل مرة أخرى! أخبريهن وإن كانتا نائمتين فليستيقظا، أنا في انتظار كليهما.

عندما وصلت زوجته وابنته إلى غرفة نومه، كانتا مضطربتين إلى حد ما، وجدوه بعينين لامعتين ووجنتيه الواهنتين ورديتين. وقام محمد شهاب الدين باشا، الذي راجع قائمة الأعيان واحدًا تلو الآخر في جميع الصحف ورأى اسمه فيهم، بتسليم كل هذه الصحف في حزمة إلى نعمت وصاح قائلاً:

اسمي موجود في كافة الصحف.

ثم التفت إلى زوجته وأخبرها بجمل قصيرة الخبر التالي:

"لقد أصبحت من الأعيان! الصحف تكتب ذلك! اقربئها أنتِ أيضًا يا سيديتي!"

ظنت السيدة عزة أن الأب وابنته لم يكونا يعرفان شيئاً من قبل، وأن نعمت أيضًا لم تعلم بذلك إلا الآن معها، وذرفت الدموع التي تراكمت بسهولة على جفניה، وقبلت يد زوجها ثم لحيته، ولم تفوت فرصة لإثبات حزمها وبصيرتها، وأضافت:

— لم تصدق كلامي عندما قلت إن كامل باشا سيقبلك من الأعيان بالتأكيد. انظر، لقد تحقق ما قلته.



بينما كان محمد شهاب الدين باشا يهز كتفيه، فكر في نفسه قائلاً: "ليت الأمر كان بيد كامل باشا!" ثم التفت إلى ابنته بابتسامة مليئة بالموودة، مختلطة بشيء من الامتنان، وقال: "دعونا نتصل بشفيق بك اليوم، يا عزيزتي".

ثم نهض وارتدى ملابسه. وتلقى تهاني الحريم، وخاصة الخادمة تشيشميفلك، وتحياته بقيادة رئيس الخدم حلمي أفندي، في القاعة الوردية التي ذهب إليها شخصياً.

واستمر لمعان عيون باشا والإثارة في مزاجه يومين أو ثلاثة أيام، وكان نومه مضطرباً دائماً. وربما كانت زيارات وتهاني الناس من كافة الطبقات والرتب، الذين لم يتصلوا به منذ أشهر، وتهنئتهم بمظاهر الفرح الغامر، عاملاً في استمرار هذه الحالة المثيرة.

ولم يغفل محمد شهاب الدين باشا الذهاب إلى يلدز والباب العالي ليشكرهم. ولم يستقبل السلطان عبد الحميد هذا الوزير السابق بنفسه، واكتفى باستقبال كبير الرسل له. ومن ناحية أخرى، قبل كامل باشا ذلك بأجواء ودية رائعة، لكنه التزم بعدم التحدث في السياسة على الإطلاق.

وفي اليوم الذي كان من المقرر أن يفتح فيه السلطان المجالس في الزاوية المخصصة لهم في آيا صوفيا، في المبنى التابع لوزارة العدل، لمدة ثلاث وتسعين ساعة، استيقظ محمد شهاب الدين باشا فجراً وارتدى زيه الرسمي. والسيف وجميع أوسمته وميدالياته تم إحضارها قبل ساعات ووضعها على الأرائك. وشاهد الماس والياقوت والزمرد لكل النياشين المرصعة: الافتخار^(١)، والمجيدي^(٢) والعثماني^(٢) وخاصة نيشان الامتياز^(٣) الذي كان يتفوق عليها جميعاً ويكلف الخزينة أكثر من الكثير.

١ _ نياشين كانت تمنحها الدولة العثمانية لكبار رجال الدولة وباشاواتها.



كم يومًا، وكم أسبوعًا، وحتى كم شهرًا، اعتقد أن هذه الأشياء ستبقى مخفية ومهجورة إلى الأبد، وأنه لن يتمكن أبدًا من ارتداء هذا الزي مرة أخرى، وأنه لن يتمكن بعد الآن من تعليق هذه الأوسمة، وهذه الميداليات على صدره، أو هذا السيف على خصره؟ والآن قد حقق هذه الأهداف بحماس شديد وحب تقيًا، لدرجة أنه، قبل وقت طويل من اضطراره للذهاب لحضور البرلمان في الوقت المحدد، وقف أمام المرأة، محاطًا بزوجته، وابنته، وزوجة كبير الخدم، زينب هانم، التي دعتها خصيصًا لهذا الحفل المهم السيدة عزة هانم، والعاملين. ارتدى ملابس وأخذ يتطلع إلى نفسه في المرآة، وعلق على صدره، الذي لم يكن غائرًا إلى هذا الحد، جميع أوسمة الإمبراطورية العثمانية، بداية من أعلى الأوسمة، التي تم منحها للحكام الأجانب وكبار الشخصيات فقط، حتى الميداليات، ميدالية كريت ذات الامتياز الفضي.

تذكر كيف أصبحوا سجناء شبه أحرار، مذلولين، وهم يسمعون في آذانهم أصداء الشتائم، ويشعرون ببرودة اللعاب على وجوههم تذكر السر عسكر، وحسن رامي، وممدوح، وزكي باشا، ووزير الخارجية عبد اللطيف باشا".

وبعد ذلك، جلس على أحد الكراسي ويده على مقبض سيفه، وكأنه يجلس على العرش بكل وقار وعظمة، ينتظر وقت التحرك، تذكر كل أولئك الباشوات الذين ارتدوا كل هذه الأوسمة مثله وجلسوا معه حول الطاولة نفسها لسنوات؛ تذكر كيف أصبحوا سجناء شبه أحرار، محكوم عليهم بالذل وهم يسمعون بآذانهم أصداء الشتائم، ويشعرون ببرودة اللعاب على وجوههم. تذكر السر عسكر، والباشوات حسن رامي، وممدوح، وزكي، والباشكاتاب وعبد اللطيف باشا.



إلا أن محمد شهاب الدين باشا، الذي نجا من الكوارث بفضل ابنته وأصبح من الأعيان لم ينزعج من هذه الذكريات، بل كان سعيدًا تقريبًا لأنهم لم يشاركوا مجده وانتصاره. ونسى كافة الذنوب والأخطاء التي ارتكبها في ماضيه الطويل ولسان حاله يقول «ليتهم لم يفعلوا!»

ثم نزل السلم الكبير وزوجته وابنته خلفه، اللتان رأتاه بكل مجده وشرفه وأبهته، فأصبن بالذهول ونسيتا عيون رئيس الخدم الخضراء ولحيته البنية الداكنة. ومروا جميعهم من بين العمال والمحظيات المجتمعين، عبر الفناء الكبير المرصوف بالرخام، وخرجوا. وعند مدخل جناح الحريم، أثنى على سائقه، الذي وقف بعظمة أكثر من أى وقت مضى، بابتسامة خفيفة، ثم صعد إلى السيارة بمفرده مستغنيًا عن مساعدة سليمان أفندي، تلك العربة التي كان الجزء الداخلي منها مبطنًا بالحرير الأزرق الداكن وعجلاتها مذهبة، والتي ظلت في الإسطبل لعدة أشهر مع خيولها البيضاء حتى لا تجذب الانتباه.



الفصل السابع والعشرون

وبعد أن تقرر زواج السيدة نعمت من شفيق بك، كان من المقرر أن يتبع عقد القران حفل الزفاف مباشرة. ولم يكن المنزل والقصر على استعداد لاستقبال حفل زفاف واحد فقط فيه بل عدة حفلات زفاف، فقد كان كل شيء كان جاهزاً وبغاية. في الواقع، كانت الأحداث تتوالى بتدفق، حتى أن نعمت أرادت أن تمسك بزمام هذا الحصان الذي أرادت أن تجري به في طريق السعادة في أسرع وقت ممكن.

علاوة على ذلك، لماذا كانت هناك حاجة لاستعدادات طويلة لشفيق؟ لم يكن شفيق الابن المدلل لعبد اللطيف باشا، الذي كان يقضي الصيف في قصر اشتره من صدر أعظم سابق في تشوبوكلو، ويقضي الشتاء في قصر اشتره من وزير سابق في السلبيانية؛ بل جاء من غرفة في المبنى العام المركزي الذي ربما كانت أَرْضيتها خالية من السجادة وأضاء البواب موقدها.

ولأجل تكاليف الزواج، أرسل الباشا شيفاً بقيمة ألف ليرة لشفيق الذي ليس لديه أي دخل سوى راتب المقدم الذي كان يتقاضاه في السابق والراتب البرلماني الحالي الذي لا يزيد عنه كثيراً. وموافقة شفيق لهذا الشيك على أنه دين كان بمثابة أحد أبرز الحيل والنجاحات المليئة بالنفاق والخداع التي تميز بها مسار حياة حلمي أفندي في إدارة أعماله.

أما المهر والمؤخر المتفق عليهم عند عقد القران بما يتماشى مع شرف نعمت هانم بنت محمد شهاب الدين باشا ومكانتها فتحدد بألف ليرة، فإذا



انتهى هذا الزواج يوماً ما بالطلاق وغادر السيد العريس المنزل بحقيبتها الصغيرة فسيضطر إلى دفع هذا المبلغ، وهذا بالتأكيد سيكون كارثة حقيقية بالنسبة له. غير أن الهدايا التي تلقاها في حفل الزفاف، وخاصة تلك التي من والد زوجته ووالدتها بما في ذلك الطبق المزين بالماس والياقوت الذي رفض أن يأخذه منه منذ فترة كرشوة - لم تكن قيمتها كافية لسداد ديونه عدة مرات.

وكون وكيل العريس في عقد القران هو طلعت بك النائب عن أدرنة، والشهود اثنان من أصدقائه في الجمعية، شكل أول اتصال بين الباشا ورجال العصر الجديد، وقد استتجت عيون طلعت بك الثاقبة أن روعة القصر وفخامته هذه لا يمكن توفيرها بمجرد راتب شهري مهما كان كبيراً، وأن هذا الوزير العجوز، الذي أصبح من الأعيان مجدداً بمساعدة أحد أصدقائه، لا بد أنه أكل كثير من الحرام. وأثناء تقديم الباشا معلومات عن شفيق قبل عدة أيام، كان قد أولى اهتماماً خاصاً بترك انطباع جيد على هذا الرجل الشاب، ذو البنية القوية والبشرة السمراء، الذي قال عنه شفيق: «إذا كان هناك شخص من بيننا سيصبح صدرًا أعظم في يوم ما، فسيكون طلعت". وفي الحقيقة، لم يكن قد بدأ في التفكير بأنه إذا أطيح بكامل باشا، الذي تعرض لهجوم شديد بسبب ابنه سعيد باشا وبدأ أن علاقته مع الجمعية قد تدهورت كثيراً، فإنه بفضل عمل وتأثير طلعت بك قد يصل أخيراً إلى منصب الصدر الأعظم، دون أن يعترف لنفسه بهذا الأمل إلا جزئياً.

وانعقد حفل الزفاف بعد عقد القران بعشرة أيام، في الأسبوع التالي لانعقاد المجالس. وقد أبلغ شفيق بأن والدته، التي تعيش في حيّ ناء من أحياء أدرنة مع شقيقته في بيت خشبي قديم، ستشعر بالخرج الشديد إذا حضرتا إلى هذا الزفاف. وكان شفيق في حالة من النشوة والسعادة لدرجة



أنه لم يعتبر هذا إهانة تستدعي الغضب. علاوة على ذلك، لم يكن من المستبعد أن يبحث شفيق عن أسباب وحجج لعدم إحضار والدته الأرملة وشقيقتيه العذراوين، خاصة الكبرى التي قد يعتبرها الناس في سنّ العنوسة. إذ كان من المؤكد أن هؤلاء النسوة البسيطات اللاتي يفتقرن إلى الخبرة الاجتماعية سيشعرن بالخجل الشديد والانزعاج من الفخامة والبخذ الذي ستشاهده هذه المناسبة في هذا القصر. ومع ذلك، كان من الممكن إحضارهن لمراسم النكاح، التي جرت في إطار أكثر بساطة، لكن لم يُطلب ذلك من شفيق، ولم يجرؤ هو على اقتراحه.

وكانت الرسائل التي تصل أسبوعياً من والدته وشقيقاته، والتي كانت تكتبها شقيقته الصغرى، تتسم بأسلوب بسيط للغاية ومضحك بعض الشيء. ولم تكن تلك الرسائل تخفي الحزن الذي حاولوا جاهدين عدم إظهاره بسبب عدم رؤية العروس حتى الآن، تلك العروس التي تم وصفها بأنها ابنة الوزير فائقة الجمال.

وفي الوليمة الكبيرة التي أُقيمت في جناح الرجال بمناسبة الزفاف، تم التدقيق والتمحيص في الأصدقاء الذين سيدعوهم شفيق. ولم يُدع أولئك الذين لم يحصلوا على منصب في العهد الجديد، أو لم يدخلوا المجلس، أو لم يُدرجوا في الهيئة المركزية.

وقد لاحظ شفيق على جميع أصدقائه الجالسين على مائدة الوليمة، بدءاً من طلعت وحتى أقلهم شأنًا، شعوراً جماعياً بالإعجاب تجاه فخامة القصر وعظمتها؛ السجاد، والأثاث، وحراس جناح النساء والخدم، وشعر أيضاً ببعض الغيرة. وربما لم يكن هذا الشعور بالغيرة موجوداً لدى الجميع، ولكنه نسبته إليهم جميعاً، مما منحه إحساساً غريباً بالمتعة، وفي نفس الوقت قليلاً من



القلق. فبعد أن أصبح زوجاً مقيماً في هذا المنزل الفخم الذي يشبه القصور، شعر برغبة في تكرار العبارة التي كثيراً ما تداولها العديد من أصدقائه.

لم يعد ممكناً قول: "لقد جئت إلى إسطنبول بقميصي، وسأعود منها بقميصي أيضاً".

ويجلس على مائدة الوليمة، كل رجال الدولة السابقين الذين دعاهم محمد شهاب الدين باشا وخاصة الصدر الأعظم كامل باشا - كل العظماء القدامى باستثناء أولئك الذين زج بهم في السجن على يد "الاتحاد والترقي" بالاستهجان والبصق. التقى هؤلاء الكبار السابقون مع هؤلاء الأشخاص الجدد الذين لم يجرؤوا بعد على أخذ أمانتهم، في جو مليء بكل المشاعر، من التملق إلى الحقد والاحتقار.

وأراد شفيق أن يخصص زاوية لأغراضه الخاصة في الغرفتين الكبيرتين المتصلتين اللتين خُصصتا لشفيق في جناح النساء، ولأنه لم يكن لديه صور لأمه وأخواته، فقد علق صورة بسيطة لوالده الذي التقطها قبل وفاته بقليل لإثبات أنه كان رجلاً مستنيراً. كانت هذه الصورة قد تُقِطت له في سوق الخشب في أدرنة على يد مصور فوتوغرافي غير محترف، وكانت بإطار بسيط، يكاد يكون بائساً، وكان تحت صورة محمد شهاب الدين باشا التي يظهر فيها بزي الوزير الرسمي وصدره مليء بالأوسمة، بعضها أجنبي، وإطارها الذهبي سميك ومزخرف، ما جعل صورة والده تبدو صغيرة وسخيفة إلى حد ما.

رأت نعمت هذه الصورة في صباح اليوم التالي مباشرةً، وقبل أن يُعرّفها زوجها على والده، كانت قد فهمت فوراً من هو هذا الشيخ الذي كان عمّامته ملفوفة بشكل سيء، وجبته ربما قد تم لفها بشكل مبالغ فيه ربما لإخفاء



تشوه سترته، وعيونه الزرقاء التي كان ينبغي أن تكون باهتة كانت متسعة قليلاً، ولحيته التي كانت بالكاد تنبت. وسلوك يوحى وكأنها لم تتوقع الأمر أو أنها قد نسيت أن والد زوجها كان يرتدي العمامة، سألته:

— من هذا السيد الإمام؟

فابتسم شفيق وقال:

— والدي. فأنت لم تتزوجي ابن وزير يا عزيزتي.

لو كان في هذا الرد موقف فاضل غير قابل للجدال، لكانت نعمت على الأرجح التزمت الصمت وتقبلت وجود صورة هذا الإمام المتواضعة على جدار الغرفة المزخرفة للغاية والمتقنة. ولكن من النبذة المترددة والمتهمكة قليلاً التي شعرت بها في رد زوجها، تشجعت لتعود إلى هذا الموضوع بعد يومين وركزت على كلمة "بالضرورة":

— إذا كان بالضرورة تعليق صورة والدك، فلنغير إطارها.

فتتم شفيق ببعض الكلمات مثل:

— نعم، ممكن، لا داعي للعجلة.

ولكن في اليوم التالي، رأى أن نعمت قد أزلت صورة الإمام من على الحائط، ولم يتطرق إلى هذا الموضوع مرة أخرى.

بعد بضعة أيام، علمت نعمت من مرجان، خادم جناح النساء، أن شفيق قد وضع صورة الإمام في إطار جديد وأنيق، وعلقها على جدار الصالون المخصص لاستقبال ضيوفه في جناح الرجال. وبحسب ما قاله مرجان، فقد تم تعليق صور أخرى لمجموعة من الرجال مغطاة الرأس ومسلحة



ولديهم شوارب كثيفة، بعضهم جالس والبعض الآخر واقف، في إطارات بسيطة على جدران الصالون، ويبدو أن هذه الصور لها علاقة بحركة تحرير البلاد.

لم تهتم نعمت هانم بتعليق هذه الصور التي تجعل مكاناً لا تطأه قدمها يبدو مضحكاً، وكان رد فعلها الوحيد على الخبر الذي نقله مرجان، الذي يجب القيل والقال منذ زمن طويل، هو مجرد انحناء شفتها السفلى إلى الجانب الأيسر.



الفصل الثامن والعشرين

عقب حفل افتتاح مجلس الأعيان والمبعوثان عاد محمد شهاب الدين باشا إلى منزله وقد تلاشى شعوره بالحماسة وأصبح في حالة من الهدوء. ومنذ ذلك اليوم، لم يعد البريق في عينيه يُلاحظ، وعاد نومه إلى نظامه القديم.

كان كامل باشا لا يزال في مكانه، وقد شعر محمد شهاب الدين باشا بالحزن بشكل خاص لأن السلطان حميد لم يتذكره وعيّن شابور شلبي رئيساً لمجلس الأعيان رغم أن السلطان نفسه قد نشر مقالات مطولة، يحمله فيها مسؤولية كل الأحداث التي وقعت. وبالتأكيد، عندما ذهب إلى قصر يلدر ليشكر السلطان على تعيينه في مجلس الأعيان ولم يُسمح له بالمثول أمامه، بدا الأمر وكأنه يحمل معنى جديداً الآن. ومع ذلك، كان الوزير الهرم حريصاً على حضور اجتماعات الهيئة دون أي تدمر، فقد وقع عليه الاختيار لرئاسة لجنة مالية مهمة. ومع ذلك، كان يبدو عليه بعض الإرهاق أو كما لو أنه أصيب بصدمة أو كُسر بطريقة ما، وخصوصاً بعد تعب الزفاف، فقد كانت حالته ملحوظة. رغم أنه لم يكن يشعر بأي ألم أو معاناة، إلا أن نزوله وصعوده السلالم كان يتم تقريباً بحمله، وفي إدخاله وإخراجه من السيارة لم يكن لدى سليمان أفندي القوة الكافية لذلك، فتم تكليف خير الله، وهو من أكثر الخدم الشباب موثوقية، بتلك المهمة بعد أن لبس معطفه. حتى في المنزل، بينما كان يقرأ الصحف والكتب على الأريكة، كان يغفو، ورأسه يميل إلى اليمين أو اليسار، وما في يده يسقط على الأريكة.

لاحظت نعم هانم أن والدها تقدمت به السن للغاية وأصبح ضعيفاً



تماماً بسبب ما مر به من مخاوف وأحزان، فأرادت الاتصال بالطبيب عابدين باشا، أحد كبار ضباط البحرية. على الرغم من أنه كان من المعتاد استدعاء الطبيب نزاريتان أفندي من بشيكتاش للأمراض البسيطة فالطبيب الحقيقي للعائلة هو هذا الشخص، وحتى رتبته كأmirال بحري كانت بسبب المهارة التي أظهرها في علاج المرض الخطير الذي كان يعاني منه محمد شهاب الدين باشا منذ عامين ونصف. وقد منحه السلطان حميد هذه الرتبة من خلال الوزير وبناء على طلبه. ومع ذلك، لم تطأ قدم الطبيب القصر مطلقاً في الفترة ما بين إقالة الباشا من مجلس الوزراء وانتخابه لمنصب الأعيان، وقد هرع على الفور إلى مجلس الأعيان وحاول الإدلاء بتعليقات مختلفة، إلا أن شهاب الدين باشا، الذي أصدر حكمه النهائي عليه، لم يلين بهذه الألعاب اللغوية ولم يدعوه إلى وليمة العرس.

ورغم ذلك، فقد تبادر إلى ذهن نعمت هانم أنه إذا حضر عابدين باشا إلى القصر بعد خمسة أو عشرة أيام لفحص الباشا لم يفكر الباشا في أنه أتى إلى القصر جرأة منه، وإنما لأنه دُعيَ إلى ذلك؛ وهذا يجعله يفكر ولسان حاله يقول "إن حالتي الصحية تستدعي القلق" مما قد يكون له أثر سيء على حالته الصحية. ورغم أن الهانم الصغيرة اتخذت قراراً حازماً بدعوة عابدين باشا، إلا أنها لم تستطع تنفيذ هذا القرار.

وفي أحد تلك الأيام التي استمر فيها هذا الوضع، دعا الباشا ابنته وزوجها بعد أن تناول طعام الغداء في جناحه الخاص. وبينما كان شفيق بك على وشك المغادرة، عاد من أعلى الدرج: في ذلك اليوم، كان الصدر الأعظم كامل باشا سيجيب في مجلس المبعوثان على اقتراح الاستجواب الذي قدمه حسين جاهد بك، رئيس تحرير صحيفة "طائن" الذي كان أشد أعدائه وأقساهم ونائب إسطنبول.



ونضت ابنته وزوجها ووقفوا احتراماً لمحمد شهاب الدين باشا. وعلى الرغم من قدومهما على الفور، فقد عاتبهما الوزير الهرم قائلاً:

— أين كنتما يا سادة؟

ثم أمسك فوراً بيد صهره وضغط عليها بإحكام، وسأل:

— سيتم الاستجواب بعد قليل، أليس كذلك؟

— نعم سيدي.

— ستصل في الوقت المحدد، أليس كذلك؟

— كنت على وشك المغادرة الآن.

— حسناً، لن أمنعك من المغادرة. أريد أن أعرف شيئاً بسيطاً. فهل من الممكن إسقاط القبرصي^(١) اليوم؟

ثم أضاف، كما لو كان شخص ينفس عن نفسه إلى شخص أكبر منه:

— ألا يمكنك أن تضمن له التصويت بحجب الثقة؟

كانت نعمت تقف بهدوء خلفهم بخطوة، مذهولة ومندهشة. فقد كان والدها يحمل ضغينة تجاه سعيد باشا أكثر من غيره، بسبب استبعاده للمرة الثانية من وزارة المالية واضطراره للتنقل بين الوزارات لأكثر من عشر سنوات. وقبل سقوطه الأخير بأيام قليلة، كان قد أخرجه من مجلس الوزراء بطريقة غير لائقة، مما زاد من حقه عليه. وفي المقابل، كان دائماً يتحدث عن

١— محمد أمين باشا القبرصي (١٨١٣ - ١٨٧١) شغل منصب الصدر الأعظم للإمبراطورية العثمانية لمدة سنة واحدة وعشرة أشهر وأحد عشر يوماً في عهد عبد المجيد، بين ٢٩ مايو ١٨٥٤ - ٢٣ نوفمبر ١٨٥٤، ١٨ نوفمبر ١٨٥٩ - ٢٤ ديسمبر ١٨٥٩ و ٢٨ مايو ١٨٦٠ - ٦ أغسطس ١٨٦١.



صداقته مع كامل باشا. وعلى الرغم من شعوره بخيبة أمل شديدة لعدم اختياره له في حكومته التي أسستها وقامت بالعديد من الإصلاحات فيها، إلا أنه كان دائمًا ما يتحدث عنه قائلاً:

— هو أفضل الموجودين يا للأسف، لا يوجد من هو أفضل منه.

والآن فجأة، انقلب ضده بشدة، ويريد إسقاطه، ليس هذا فقط، بل يتوسل لذلك. شعر شفيق بك تقريبًا بالخرج، وبدأ يشرح:

— سيدي، لقد عرضت ذلك بالأمس أيضًا، لقد نشأ اتجاه منذ بضعة أيام لا يمكن وقفه لصالح الصدر الأعظم. ويُعتقد أن السيد جاهد بك سيتخلى حتى عن إلقاء كلمة، ولن يتمكن من مواجهة الوضع. بل إنه من المتوقع أن يتم الإعلان عن الثقة العامة بالتصفيق دون الحاجة حتى إلى اللجوء للتصويت.

شعر محمد شهاب الدين باشا بالاستياء والحزن، وسحب يده من يد صهره، ودون أن ينظر إلى وجهه أو وجه ابنته، ثبت عينيه على زاوية الجدار وقال:

امنحوه يا سيدي، امنحوه التصويت بالثقة! يبدو أن الحظ لن يحالفنا أبدًا في الوصول إلى منصب الصدارة الذي نتظره منذ أربعين عامًا.

كان يتحدث ببطيء وصوته مليء بحزن لا نهاية له، وخرج ببطء من الغرفة، دون أن ينظر إلى وجهي ابنته وزوج ابنته، وكتفاه أكثر انحناءً من أي وقت مضى.

فقالت ابنته:

— لم يُفصح عن رغبته بهذه الصراحة من قبل، فقد كان يبدو دائمًا أنه



صديق لكامل باشا، حتى أنه بعدما كان ينتقد بعض أعماله مطوَّلاً، دائماً ما ينهي حديثه بقول: "لكن ليس هناك أفضل منه، أخشى أن تزداد الأمور سوءاً إذا رحل، فلا تنساقوا وراء الشيطان وتلقوا به إلى الهاوية"، فهل تكون هذه هي رغبته بعد تلك النصائح والكلمات! هل بدأت حالته العقلية في التدهور؟

ثم اقتربت من زوجها، وضعت يدها على كتفه، وببرة تعبر عن امتنان لا حدود له إذا تم تلبية هذه الرغبة المستحيلة رغم علمها بصعوبتها قالت: _ والدي المسكين، ألا يمكنه أن يصل إلى هذه السعادة لبضعة أيام بفضلك؟

ولكنها لم تكن تريد جواباً. ولم يجد شفيق ضرورة للاعتراض. وكأنهما لا يزالان يريان الرجل الهرم الذي تجاوز سن الثمانين وهو يمر من بينهما وكأنه يزحف بعد أن تحدث بحزن وغضب طفولي. وهزت نعمت رأسها بحزن وغادرت الغرفة قبل زوجها. وعندما أرادت رؤية والدها مرة أخرى بعد وقت قصير من مغادرة شفيق، علمت أنه ارتدى ملابسه بسرعة وركب العربة دون أن يطلبها، متجهاً إلى مجلس النواب في آيا صوفيا.

بما أن مجلس الأعيان لم يكن مجتمعاً في ذلك اليوم، ولم يتقرر مسبقاً انعقاد الجمعية في ذلك اليوم، فقد ذهب على الأرجح إلى قاعة مجلس النواب ليستمتع من الشرف المخصصة للأعيان إلى التصريحات التي سيديها بها كامل باشا، وليسمع التصفيق الذي سيرتفع تقديرًا له. وربما لم يصدق ما قاله له صهره وذهب على أمل أن يرى بعينه سقوطه تحت لقب "شيخ السياسة" الذي منحه له أنصاره.

وشعرت نعمت بالحزن طوال اليوم وهي تفكر: "ماذا لو عبّر عن حزنه



وغضبه بطريقة طفولية عندما يحصل كامل باشا على الثقة؟"

وعند عودته في ذلك المساء، تحدث لبضع دقائق مع ابنته وصهره دون أن يذكر انتصار كامل باشا، وكان يبدو كما هو دائماً. وكان من المقرر نقل جثمان محمد شهاب الدين باشا في اليوم التالي إلى قصره في نيشان طاشي داخل عربة مغطاة بمفروشات زرقاء.

وفي ذلك اليوم اجتمعت لجنة المالية بمجلس الأعيان للاستماع إلى تصريحات وزير المالية ضياء باشا حول الموازنة التي لم يتم الانتهاء منها ولم يعرضها على البرلمان. وعلى الرغم من أنه شعر بالتعب الشديد فالوزير الهرم انطلق في الوقت المحدد، دون أن يشكو من وضعه، وجاء إلى المجلس مع جميع الأعضاء قبل الوزير، ونظرًا لضيق المكان اتجه إلى الغرفة الضيقة المعتمدة والقائمة التي خصصت لوزارة المالية. وجلس على المقعد الذي كان يجلس عليه دائماً، مكان الرئيس. ولم يغفل أبداً أن يقف في كل مرة يأت فيها أحد الأعضاء أو الوزير للجلوس على الطاولة للترحيب بهم. ثم اجتمع الأغلبية وبدأت المناقشات. وفي تلك الأثناء، بدأ الوزير، ضياء باشا، ذو اللحية الكستنائية، الذي قضى سبع سنوات ونصف كوزير للمالية حتى تعيين محمد شهاب الدين باشا والياً على أيدين، في الإدلاء بتصريحاته بطريقة فخورة ومهذبة للغاية. وبينما كان يتحدث، مال رأس الباشا الهرم برفق إلى اليمين واحتك بحافة الكرسي، بينما أغمضت عيناه ببطء.

ومع ذلك، بما أن غالبية الأعيان كانوا من كبار السن، فكان من الطبيعي أن يصاب هؤلاء كبار السن بالإغماء بشكل متكرر. ولذلك فإن وضع الباشا لم يثير القلق. ووسط التثاؤب المتزايد لاثنتين آخرين من أعضاء اللجنة المالية ذوي اللحية البيضاء، وواصل الوزير شرح إعداد الموازنة



وأسباب بطاء هذه الاستعدادات - قارئاً الأرقام المكتوبة في الورقة التي بيده. ولكن عندما انتهى ضياء باشا من كلامه، وربما ليعبر عن غضبه من هذا النوم الطويل، قال بصوت سريع يريد أن يخرج ويثير استياء الرجل الهرم الذي كانت عيناه لا تزال مغمضتين ورأسه متكئة على حافة المقعد:

ـ لقد انتهى عرضي يا سعادة الرئيس باشا. أستاذك أولاً أن تنيرنا وترشدنا ببركة آرائك السامية.

في ذلك الوقت، لم تلاحظ أي حركة من الشخص الآخر، وظلت جفونه التي كانت مغلقة منذ بداية العرض تقريباً ومنذ أن انحنى رأسه على المقعد مغلقة كما هي.

بناءً على ذلك، جالت في أذهان أعضاء اللجنة والوزير في نفس الوقت فكرة "هل يمكن!"، وعندما قامت الأيدي بالتحقق من نبض محمد شهاب الدين باشا، اكتشفوا أن النبض قد انقطع. وحينما رفعوا جفون عينيه، رأوا أنها كانتا مائلتين تماماً وخاليتين من الحياة. وكان هناك أطباء بين الأعضاء، وقد هرعوا بسرعة، لكن الأول منهم لم يصل إلا بعد فوات الأوان، إذ تم التأكد أن محمد شهاب الدين باشا قد توفي نتيجة نوبة قلبية.

وفي اليوم التالي، تناولت الصحف بأسف واحترام حياة محمد شهاب الدين باشا، وعن إنجازاته وكفاءته في قيادة اللجنة المالية، بعد أكثر من ستين عاماً من العمل في الخدمة العامة وكيف أنهى حياته في مكان عمله.

وفي اليوم التالي، ظهرت تفاصيل مفصلة عن مراسم التشييع الخيالية.



الفصل التاسع والعشرين

أحضر جثمان محمد شهاب الدين باشا داخل سيارة، وفي تلك الليلة، بناءً على مرسوم صدر، تم نقله ليُدفن في حديقة ضريح السلطان محمود، حيث قضى ليلته الأخيرة في القصر الفاخر الذي شيد قبل ثمانية عشر عامًا. وتأثر بشكل خاص في هذا الموت خادم القصر حلمي أفندي وزوجته زينب، حيث قضيا الليل بلا نوم.

وبالنسبة للزوجين، كان من المؤلم عدم القدرة على التعبير عن هذا الاهتمام بشكل واضح، مما جعلهما يحاولان إخفاء مشاعرهما وراء ستار من النفاق. ومع ذلك، كان هناك جزء لم يتمكنوا من إخفاءه تمامًا، مما جعلهما يشعران بعبء أكبر. فكان عليهما إخفاء هذا الشعور حتى عن بعضهما البعض، وهو ما كان يعدّ عبئًا أكبر. لأن غرفتهما وسريهما كانا واحدًا، وكان من المستحيل عليهما إخفاء حقيقة أنهما لم ينميا وأنهما قضيا الليل يتقلبان في السرير ذاته حتى طلوع الفجر.

كان هذا السرير الذي يربط بين شخصين يتعدان عن بعضهما البعض روحياً لمسافات طويلة طوال الليل، بمثابة قيدٍ مرعبٍ في كثير من الأحيان. كانت زينب هانم تعرف تمامًا لماذا لا يستطيع زوجها النوم، كما كان حلمي أفندي يستطيع تخمين السبب الذي جعل زوجته لا تستطيع النوم. وهكذا، قضيا الساعات بلا نوم، يحاولان إخفاء عدم نومهما عن بعضهما البعض، أحيانًا بشكوكٍ حول ما إذا كانوا قد تمكنوا من إخفاء الأمر، وأحيانًا



أخرى واثقين تمامًا، -وربما أحيانًا شعورا بأنهم قد عانوا حقًا- حتى وصلوا إلى صباح اليوم التالي. فلم تنته ليلة يوم الشتاء.

أخيرًا، بينما كان الفجر يضيء، خضع حلمي أفندي لرغبته في الحديث مع زوجته وقال:

— هل أنت نائمة؟

لكن يبدو أن السيدة زينب كانت مشتتة الانتباه في تلك اللحظة، فلم تستطع السماع في البداية، لكنها انتبهت عندما أعاد زوجها السؤال، فاستقامت فجأة وقالت:

— ما الأمر يا حلمي بك؟

في ذلك المنزل، كانت زينب هانم تستاء كثيرًا عندما يدعى زوجها بكلمة "أفندي"، وتعبّر عن غضبها في كل مرة بعبوس وجهها، حيث كانت دائمًا تذكر اسم زوجها بـ "حلمي بك" أمام سكان المنزل. غير أنه، أصبح هناك تأثير ملحوظ في الآونة الأخيرة، خاصة بعد إعلان الحرية، على نظرة النواب والوزراء، مما جعل من الصعب على الجميع أن يُنادوا حلمي أفندي بذلك في وجود الباشا والهانم الصغيرة. لكن في الأماكن التي لا يتواجدون فيها، أصبح الجميع يتحدثون عن الخادم بـ "بك".

حلمي أفندي:

— لم أكن أعتقد أن موت السيد الباشا سيؤثر عليك إلى هذا الحد.

فاستلقت السيدة زينب مرة أخرى وسحبت اللحاف فوق ذقنها، وقالت:



– بالطبع، فهو سيدنا وولي نعمتنا منذ ثلاثين عامًا.

نعم، السيد وولي النعمة منذ ثلاثين عامًا. فقبل ثلاثين عامًا، عندما كان محمد شهاب الدين باشا واليًا على أيدن وأحد أعضاء الوزراء السابقين، كان كبير الخدم أفندي أقل الخدم أهمية على باب ديوان الولاية، ولكن بسبب موهبته وكفاءته قام الباشا برعايته، وعلمه القراءة والكتابة. وعندما انتقل من إزمير ليصبح واليًا على سوريا، أخذه معه إلى الشام وهناك رفعه من بواب الوالي إلى كاتب في ديوان الكتابة.

بعد هذه الترقية بثماني سنوات كاملة، وفي الوقت الذي كان فيه الباشا وزير المالية للمرة الثالثة، لم تصل إلى أذن السيدة زينب أي إشاعات من الجيران حول الاهتمام واللفظ الذي أظهره الباشا لزوجها، مع ابتسامات ذات مغزى وتعليقات غريبة لم تقدم أي أدلة. ومع ذلك، كانت السيدة زينب مخلوقًا هادئًا وعاجزًا إلى درجة أنه لم يكن بإمكانها التعامل مع مثل هذه الإشاعات التي تتعلق بالماضي، والتي كانت من المرجح أن تكون أكاذيب - وهي في الواقع لم تستطع فهم حقيقتها بالكامل. بل إنها حتى بعد فترة لاحظت الأمر واعتبرته نوعًا من التشهير، لكنها تحملت بصمت حالة لم تستطع الخروج منها لسنوات، أي لمدة ثماني عشرة سنة، وقبلتها بصمت ورضوخ.

ولم يسعها إلا أن تدلي ببعض الملاحظات لزوجها حول هذا الوضع، لكن حلمي أفندي كان يقول دائمًا:

إذا كنتِ تعتقدين أن هذه العلاقة تجعلني سعيدًا، فأنتِ مخطأة للغاية؛ أنا لا أتحمل هذا الوضع إلا من أجلك ومن أجل مستقبل ابنتنا.

إلا أنه كيف ولماذا كان حبها الخفي له الذي دام سنوات طويلة قادر على



زعزعة مستقبل زوجته وابنه؟ هل كانت السيدة قد اكتشفت سرقة كبير الخدم، وهددته بأنها ستخبر الباشا وتجعله يطرده إذا رفض إرضاء قلبها؟

ولكن هناك أمر يجب الوقوف عنده؛ لماذا كانت هذه العلاقة السرية تشكل تضحية كبيرة بالنسبة لحلمي أفندي لسنوات طويلة؟ كانت زينب شابة وجميلة بشكل استثنائي، والهانم الكبيرة لم تكن على العكس من ذلك فلم تكن كبيرة في السن وقبيحة. وعلى ما يبدو أن عزة هانم لم تصل بعد إلى سن الخمسين. وزينب وصلت لسن الأربعين، وكانت نحيفة، طويلة القامة، ذات وجه طويل وبشرة شاحبة وعيون صغيرة، لم تكن ترى نفسها جميلة جداً، ولم تكن تتخيل نفسها أجمل وأصغر سنًا بكثير من عزة هانم.

وعلى الرغم من أن هذه العلاقة التي استمرت لما يقرب من عشرين عامًا كانت تُزعج زينب هانم ليلاً ونهاراً إلا أن اضطراب حلمي أفندي إلى إخفائها بشدة، وخاصةً أن لقائهم في ظل متطلبات الحياة في القصر كان يتطلب ترتيبات كبيرة واحتياطات شديدة، كان أحد جوانب المواساة في هذا الأمر. الجانب الآخر الجيد هو أن خوف حلمي أفندي من عزة هانم منعه من التأخر في العودة ليلاً أو عدم القدوم إطلاقاً أو البحث عن عشيقات أو الانخراط في علاقات سرية. وكانت الزوجة الشرعية مستفيدة بشكل خاص من هذه الضغوط التي كانت تكبل يدي حلمي أفندي.

واليوم هذه العلاقة التي كانت مستمرة منذ عشرين عامًا تقريباً، دخلت الآن مرحلة كانت تريدها، أي أن السيدة أصبحت أرملة. وبعد حصولها على نصف ثروة محمد شهاب الدين باشا الكبيرة، هل ستخفي السيدة عزة حبها الخاطيء؟ أم أن هذا الحب سيتحول إلى شكل شرعي بعد فترة؟ ألم تُرى سيدات تتزوجن بعد وفاة أزواجهن! ليس فقط من أعضاء مجلس البلدية أو



خدمهم المتميزين، بل حتى طهاهم وبستانيينهم وخدمهم؟! فإذا قررت عزة هانم التخلي عن الخوف الذي شعرت به دائماً تجاه ابنتها، وكشفت عن حقدّها الذي كانت تخفيه خلف هذا الخوف، والمعروف حتى لدى زينب هانم. وقالت لنعمت: "حلمي أفندي هو أبوك من الآن فصاعداً" فلن يكون لأحد الحق أو السلطة في الاعتراض على ذلك. ولم يكن لدى زينب هانم شك أبداً في أن حلمي أفندي سيكرر جملة الشهيرة بشكل جديد: "إذا كنت تعتقدين أن زواجي من الهانم شيء يسعدني فأنت مخطئة أنا أفعل ذلك لأجل مستقبلك ومستقبل ابننا" وسيتقبل الوضع الجديد بسعادة عارمة، وسيصبح وريث الرجل الذي خدمه في يوم من الأيام.

ومع ذلك، إذا رفضت الهانم أن تشاركها فيه وأصرّت على الطلاق كشرط للزواج، فإن حلمي أفندي الذي يعيش المال قد يغير عبارته قليلاً، قائلاً: "إذا كنت تظنين أن قلبي لم يتألم وأنا أطلقك مؤقتاً، فأنت مخطئة للغاية"، فما الذي يمكنها فعله لمواجهة هذا المصير؟

وهكذا، ظلت "زينب هانم" المسكينة، التي لا تزال تحب زوجها الخائن بنفس حرارة الأيام الأولى، مستيقظة طوال الليل الذي قضى فيه "محمد شهاب الدين باشا" ليلته الأخيرة في القصر، تفكر في كل هذا. ولم تكن تشك ولو للحظة أن ما أبقي زوجها مستيقظاً لم يكن سوى الفرح، الفرح بتحقيق الهدف أخيراً.



الفصل الثلاثون

قضت عزة هانم أيضًا هذه الليلة مستيقظة نوعًا ما، وتبكي بين الحين والآخر. وعلى الرغم من أنها لم تشعر أبدًا بحب تجاه هذا الرجل الذي رفعها من وضع الجارية إلى السيدة، إلا أنه لم يكن يخل قلبها من مشاعر الوفاء والاحترام والتعود عليه. وكانت تقوم بواجباتها كزوجة، وإن كان ذلك أحيانًا بروح آلية خالية من المشاعر ولكن دون شعور بالاشمئزاز. بل لو أحبها محمد شهاب الدين باشا حبًا حقيقيًا وعظيمًا، لربما كانت قد ارتبطت به. لكن، ومنذ اليوم الأول، كان يستدعيها لأداء واجبات الزوجة بفترات متقطعة وقليلة على نحو متزايد، ثم يُعيدّها دائمًا إلى جانب طفلتها كما لو أنها مجرد جارية أنهت مهمتها. كيف يمكن لامرأة شابة أن تسامح على مثل هذا السلوك؟ وكيف يمكنها أن تحمل حبًا لزوج يكبرها بثلاثين أو أربعين عامًا ويعاملها بهذه الطريقة؟ أما فيما يتعلق بعلاقتها بكبير الخدم حلمي أفندي، فقد سلمت نفسها له تقريبًا بدافع الشفقة، مقتنعة أنه وهبها حب عميق، واستسلمت له بفخر كونها محبوبه.

واستمرت في الحفاظ على هذه العلاقة بنفس الطريقة، مستمتعة بثقتها في كونها محبوبه.

ولقد ساعدها حلمي أفندي في الحفاظ على هذه الثقة بمهارة شيطانية، كما ساعدته قوته البدنية التي لم تنقصها السنوات. كان الرجل بين الحين والآخر يظهر مشاعر حب كبيرة وجنونية، ويقول:



"الشيء الوحيد الذي يجعلني أتحمل هذه الحياة هو رؤيتك. اترك كل شيء ودعينا نهرب". لكن عزة هانم، لم تتجرأ على هذا الأمر الوضع أو هذه الجسارة تجاه ابنتها وزوجها أو حتى تجاه الجميع. ومع ذلك، كانت تتجاهل كل روائع حياة قد تعيشها مع حبيبها الوسيم ذو اللحية الكستنائية والعيون الكبيرة المخضرة بالكحل الطبيعي من الله، وتقول:

— لنصبر قليلاً، فكل شيء سيُحل من تلقاء نفسه.

قالت هذه العبارة عندما لم يكن محمد شهاب الدين باشا قد بلغ السبعين من عمره، واستمرت في تكرارها بنفس النبرة الهادئة حتى بعد أن تجاوز الباشا الثمانين من عمره، مما كان يهدئ من ثورات عشيقها التي تبقى بنفس الحجم والدرجة، لا تنقص، ولكن لا تزيد حرارتها.

وبينما كانت تنجح في تهدئته وهي تقول له "لقد انتظرنا كثيراً. لنتنظر قليلاً بعد"، لم تضع في حساباتها ولم تفكر على الإطلاق أن عمر الباشا قد يمتد ليصل إلى التسعين أو حتى أكثر. ومع ذلك، ورغم أنها كانت قد تفزع من هذا الاحتمال، لكنها لم تفكر أبداً في اتخاذ أي ترتيب أو حيلة لإنهاء هذا العمر الذي لا يبدو أن له نهاية. ولا شك في أنها كانت سترتكب جريمة إذا فكرت في ذلك وهي ترى ابنتها نعمت تحوم حول والدها المريض وتهتم بزجاجات الدواء وعلب الحبوب باهتمام بالغ. ولكن السيدة عزة لم تلاحظ أبداً هذه الأفكار المريبة لابنتها، ولم تدرك أنها كانت تعلم كل شيء إلا منذ وقت قريب جداً.

أما فيما يتعلق بزواجها من خادمها بعد وفاة محمد شهاب الدين باشا، فإن السيدة عزت لم تعتبر ذلك سقوطاً كبيراً. ألم تكن هناك سيدات تزوجن شيخاً أحضره لتلاوة القرآن بعد وفاة أزواجهن، أو حتى من البستاني



أو الخادم الشاب؟ بعد زواجها من الخادم حلمي أفندي، كانت السيدة عزة ستحتفظ بمكانتها في المجتمع كزوجة محمد شهاب الدين باشا، بينما ستكون زوجة حلمي أفندي فقط لقلبه وجدران غرفة نومهما الأربعة.

كانت دائماً تفكر أن ابنتها نعمت لن تقبل بسهولة هذا الزواج، وستحدث بينهما مشاهد مؤلمة. ولكنها كانت تعتزم استخدام الحقوق التي منحها لها القانون، ولن تضحي بسعادة شبابها بسبب الكلمات التي كان قلبها يهمس بها في الخفاء. وفي أسوأ الأحوال، يمكنها العيش بعيداً عن ابنتها. كانت السيدة عزت مستعدة لترك القصر الذي أثار غيرة الجميع، والعيش في قصر روملي حصار طوال السنة.

ورغم كل ذلك، كان المشهد الذي سيحدث بينها وبين ابنتها مختلفاً تماماً وقصيراً جداً عن تلك المشاهد التي كانت تتخيلها لسنوات طويلة، وستنتهي الأمور بشكل مختلف تماماً عما خططت له.

في صباح مبكر جداً، بينما كانت عزة هانم تحاول تبلييل جبينها بالماء البارد لتجديد شعورها بالراحة، دخلت نعمت الغرفة.

كان وجهها شاحباً للغاية وعيناها منتفختين من البكاء. وبينما كانت عزة هانم تستعد كأم لتواسيها بحزن، لاحظت أن نعمت تمسك برسالة بإحكام. فأدركت على الفور أن هناك صلة وثيقة بين زيارتها وهذه الرسالة، وانتظرت. وسرعان ما أوضحت نعمت محتوى الرسالة دون أن تترك والدتها في حيرة:

— هذه وصية أبي التي سلمها لي قبل سنتين، يوم بلغت الواحد والعشرين من عمري، وأوصاني بفتحها بعد وفاته.



كانت الرسالة مفتوحة، ونعمت لم تعطيها لوالدتها التي مدت يدها لأخذها. وفي تلك اللحظة شعرت عزة هانم فجأة بكراهية عميقة تغمر قلبها. فهي ابنتها العزيزة التي لطالما ضحت من أجلها، وهي الآن لا تفكر في أى شيء سوى الميراث في وقت لم يدفن والدها بعد. فتذكرت كلمات حلمي أفندي، الذي كان يقول دائماً: "كل هذا الحب لأبيها كان مجرد كذب وزيف، إنها حيلة للاستيلاء على الجزء الأكبر من الميراث". ثم تحولت تلك الكراهية إلى فضول وقلق لا حدود له. كانت هذه الوصية التي تم تسليمها لابنتها قبل عامين ولم يتحدث أحد عنها، سواء الأب أو الابنة، بالتأكيد تحتوي على شروط ليست في صالحها. وانتظرت دون أن تنطق بكلمة.

قالت نعمت: "أبي يترك لي جميع أمواله المنقولة وغير المنقولة، بما في ذلك جميع ممتلكاته، مثل هذا القصر وقصر روملي حصار".

في تلك اللحظة، شعرت عزة هانم وكأن كل شيء من حولها ينهار، لكنها سرعان ما استعادت رباطة جأشها وابتسمت بمرارة، كاشفة عن أسنانها المتآكلة وسألتها:

— هل تأمريني بمغادرة المنزل يا ابنتي؟

فأجابت نعمت:

— حاشا لله! مكانك محفوظ فوق رأسي. في الحقيقة، أبي أوصى بأن يظل لك جناحك في القصر وقصر روملي حصار طالما لم تتزوجي، بالإضافة إلى تخصيص أربعين ليرة ذهبية لك شهرياً. وإذا تزوجت -وهو أمر لا أريد أن يحدث - فسيستمر هذا الراتب الشهري، ولكن عليك الانتقال إلى مكان آخر.



وتساءلت عزة هل كانت كل هذه الأمور مكتوبة فقط في تلك الورقة التي لطالما خفيت عن الأنظار؟ إذا أخفيت هذه الورقة، هل سينتهي كل شيء، وستحصل على نصف الميراث الكامل، حقها المشروع، وتتخلص من العيش كلاجئة بجانب ابنتها التي أنجبته؟ لوهلة، فكرت في الهجوم على نعمت مثل امرأة من الحي الشعبي، ومصارعتها لأخذ الظرف منها بيديها وأسنانها وتمزيقه إلى قطع. لكنها أدركت بعد ذلك أنها لن تكون قادرة على مواجهتها، ولن تستطيع التغلب عليها.

لم يكن لديها القوة الآن، ولا بعد ذلك. خاصة مع مساندة زوجها لها وهو أحد أبرز أعضاء الجمعية. وتحدث للحظة وهي تشعر بفخر حقيقي وعظمة كيائها:

اتركي لك الأربعين ليرة ذهبية في الشهر أيضًا لك يا ابنتي. فبالطبع سيتم تخصيص معاش التقاعد لي، كما أنني امتلك المجوهرات التي كانت هبة ولطف من والدك لي وقد أصبحت الآن غير مناسبة بالنسبة لي، سأبيعها واحدة تلو الأخرى حتى أصل لنهاية عمري. اترك لي عشرة أيام ولا تشتكين لأحد وسأترك لك القصر وقصر روملي حصار بالكامل، وسأجد منزلاً صغيراً للإيجار لأستقر فيه، لا تقلقي!

وفجأة، شعرت نعمت بحزن عميق وخجل. وأرادت أن تحتضن والدتها، لتلقى العزاء سويًا لحزنهما على فراق والدها الذي توفي، والذي تم غسله للتو في إحدى الغرف الحجرية في الطابق السفلي.

كانت والدتها جالسة تبكي، والدموع تتدفق من عينيها واحدة تلو الأخرى بلا انقطاع. لكن هل كانت هذه الدموع من أجل الموت الذي تم حل بزوجها، أم لأنها شعرت بأنها لن تستطيع الاستفادة من إرثه،



واعتقدت أن كل أحلامها قد تبخرت؟ وبرزت في ذهنها صورة كبير الخدم حلمي أفندي بعيونه الخضراء، الذي كان قد تجرأ على النظر إليها مرتين بلمعان غريب، ولحيته الكستنائية؛ وقد منعته هذه الصورة من الذهاب إلى أحضان والدتها، ربما برغبتها وعلى الأرجح بقلبها.

فلم تقل لها شيئاً سوى "لقد أخذوا والدي الباشا ليغسلوه" وخرجت. وقد خلعت عزة هانم غطاء رأسها، حتى لا تبدو وكأنها أهملت واجباتها في التحضيرات للجنائز التي ستخرج من القصر اليوم وكل طقوس المأتم. وظهرت وهي جادة ورزينة، مرتدية ثياباً داكنة، وانشغلت طوال اليوم حتى أنها لم تجد دقيقة واحدة للجلوس، أو حتى لتضع لقمة في فمها.



الفصل الواحد والثلاثون

في ليلة إقامة مراسم جنازة والدها، أي بعد مرور ثلاثين ساعة فقط على وفاته، طردت السيدة نعمت كبير الخدم حلمي أفندي من المنزل. كان الخادم قد عاد من الجنازة مع شفيق بك في نفس العربة، وبينما كان في الطريق بذل كل ما في وسعه ليبدو مقبولاً ومحبوباً لدى شفيق بك. ومع ذلك، كان قد فقد تماماً الأمل في الحصول على وظيفة جديدة، خاصةً في تعيينه في منصب مشرف بوساطة شفيق بك. ولكن بالنسبة للخادم، كان ضمان حيادية شفيق بك في أي نزاعات قد تنشأ بشأن الميراث أو في حال زواجه من السيدة لا يزال يُعتبر هدفاً ثميناً.

عندما دخل شفيق إلى المنزل، أظهرت له السيدة نعمت وصية والدها المكتوبة بخط يده. حتى تلك اللحظة، لم تكن نعمت قد تحدثت مع زوجها عن هذا الموضوع قط، ولم يتطرق شفيق بنفسه إلى هذه المسألة. فدائماً ما كان شفيق يظهر احتراماً حقيقياً لهذه القضية، ولم يتدخل بأي شكل من الأشكال في الأمر. وعندما رأى الوصية، أدرك شفيق مدى جدية الموقف وفهم مدى حساسية زوجته تجاه هذا الموضوع.

وجد شفيق زوجته بعينين دامعتين، ووجه شاحب، وفي حالة إنهاك شديدة. ولكن نعمت هانم تماسكت نفسها بإرادة قوية، وبرغم الدموع التي كانت تنهمر من حين لآخر من عينيها، كانت تتحدث بصوت ثابت:

لدي وصية بخط يد أبي منذ سنتين، نسخة منها مع المحامي، ونسخة



أخرى في خزانتنا بالبنك العثماني. وبموجب هذه الوصية، أنا الوريثة الوحيدة لأي، وملزمة بدفع أربعين ليرة ذهبية شهرياً لأمي حتى وفاتها، والسماح لها بالاحتفاظ بجناحيها في القصر وقصر روملي حصار طالما لم تتزوج. لكنها أمي، وطالما لم تتزوج، فهي سيدة القصر. ليس لدي أي نية لتغيير أي شيء في حياتنا. كل ما أوده منك هو أن تهتمي اهتماماً بالغاً بجميع الأمور، لأننا سننهي قريباً عمل كبير الخدم بالقصر. وسيكون هناك العديد من الجوانب في إدارة الممتلكات التي لن أتمكن من توليها بمفردي.

لم يقل شفيق سوى:

"تحت أمرك يا روحي". وفكر أن الاحترام الذي كان يُظهره كبير الخدم والذي كان دائماً يبدو مصطنعاً، هو السبب في طرده الفوري. كما اعتقد أن لدى زوجته معلومات مؤكدة حول سرقة كبير الخدم، ولم يجد أي ضرورة لطرح أي سؤال حول هذا الأمر.

فلم يخطر بباله أبداً أن هناك علاقة بين حماته التي كانت تقابله بشكل رسمي وينظر إليها بنظرة امرأة مسنة وبين كبير الخدم. أما فيما يتعلق باحتياله زواجها مرة أخرى التي وردت في الوصية فوجد أنها فكرة غريبة خطرت على بال الباشا.

فجملة "طالما لم تتزوج" تعبر عن شعور غريب. فبعد أن عم الظلام، استدعت نعمت هانم كبير الخدم ولم تسمح له بالجلوس، حتى أنها بدأت تعطي له الأوامر بينما كانت واقف بجانب الباب، موجهة إياه إلى المكان المطلوب. وأبلغته بضرورة بدء التحضيرات للانتقال، وأخبرته بإنهاء خدماته، وأن عليه الآن إحضار السجلات والحسابات وتسليمه لزوجها.

أما حلمي فقد فهم الوضع قبل أن تتحدث نعمت، فقد أدرك من



سلوكها وتصرفاتها ما يجري. بينما كان يستمع إليها بصمت، بدأت الشكوك تتسلل إلى عقله: من المحتمل أن الباشا قد ترك وصية تنتهك حقوق زوجته في الميراث، أو أنه كان ينوي استخدام بعض الحيل أو قد وضع خططاً معينة. ومع ذلك، فقد تبنى موقفاً وكأنه لم يخطر بباله أي من هذين الاحتمالين، وقال:

أنتم تطردون رجل والدك المخلص الذي خدمه لثلاثون عاماً بمجرد دخوله القبر، جميل ولكن لستِ الورثة الوحيدة؛ هل السيدة والدتك على علم بهذا القرار؟ هل يشاركون في هذا القرار أيضاً؟ من المؤكد أنني اعتذر عن تسليم الحسابات والأوراق إليكم دون الحصول على أوامر السيدة العزيزة.

غمرت نعمت مشاعر لا نهائية من الكراهية والغضب فجأة. وكانت عبارة "خادمكم المخلص لمدة ثلاثين عاماً" تأتي إليها كإهانة قاسية تشبه السياط. وأجابت وهي تجلس على مقعد وتاركة الخادم واقفاً بالقرب من الباب:

— ترك والدتي وصية مكتوبة بخط يده بنفس المعنى في ثلاثة أماكن، وقد سلم لي واحدة منها واثنين لمواقع معينة قبل عامين. وفقاً لوصيته، أنا الورثة الوحيد لجميع أمواله المنقولة وغير المنقولة، وبصفتي الورثة الوحيدة أنهي خدمتك الآن.

هز هيلمي أفندي رأسه بابتسامة سيئة تجرأ وسأها:

— هل تنوي أخذ مجوهرات والدتك وملابسها منها؟

اغرورقت عينا نعمت بالدموع فجأة، وبدأت تشعر بوخز في يدها



اليمنى التي كانت تسقط على وجه الجوّاري. كان بريق عيني الخادم الأخضر قد ازدادت حدته، وبخاصة مع الشارب واللحية الصفراء المائلة إلى الحمرة التي تظهر بين أسنانه البيضاء الكاملة، حيث بدت وكأنها تأخذ شكلاً مخيفاً. قفزت الشابة من مكانها وصرخت بصوت مختنق:

— أنت خادم والدي المخلص لمدة ثلاثين عاماً، أليس كذلك؟ ستسلم جميع الحسابات وجميع الأوراق لزوجي الآن. وعندما تسلمها، ستغادر هذا المنزل فوراً! ثم أضافت بصوت أكثر هدوءاً:

— ستغادرون أنتم. ولكن زوجتك وابنتك يمكنهم المغادرة متى أرادوا.

ابتسم حلمي أفندي مجدداً ودارت في رأسه بعض الجمل مثل 'إذا، يمكن لأبني أن يبقى كما يريد، صحيح؟ كنت قد لاحظت أنك تنهدت عدة مرات أثناء مراقبته. بل إننا، كزوج وزوجة، لم نفكر يوماً في أن تعرفوا كل شيء. إذا أردت، يمكنني أن أتركه بالكامل، لعله يساعد زوجك الذي قد لا يؤدي واجباته كما ينبغي!، ولكنه لم يجرؤ على قول كل هذه الجمل. خاف من الضابط القوي القادم من روملي ومن تأثيره ونفوذه، وأعاد إخفاء مخالبه بعد أن حاول إظهارها للحظة، ثم انحنى بخنوع كخادم حقير وقال:

— تأمرين يا سيدي، سأحضر الآن كل الحسابات والأوراق إلى السيد زوجك وأقدمها له، ثم سأغادر.

في الحقيقة إن الخادم لم ينتقم إلا من السيدة الهانم (عزة هانم) فقط، التي كانت أضعف المخلوقات. فقد كان يحمل ضغينة تجاه هذه السيدة لأنه لعب دور العاشق تجاهها لسنوات طويلة، وهذا الأمر تسبب في معاناة زوجته، بل أنه قرر، إن اقتضت مصلحته، أن يطلق أم طفله. أما الأمر الذي يصعب تصديقه ولم تستطع المسكينة زينب هانم تصديقه أبداً، فهو أن هذا الرجل



الذي خدع زوجته تقريباً منذ اليوم الأول لأجل مصالحه، كان يحمل لها حباً حقيقياً ظل حياً دائماً. فتخصيصه أوقاًتاً لا يمكن تقديمها للسيدة لقضاءها مع زوجته وبقاؤه في المنزل دائماً دون أن يخوض أي مغامرات خارجية، لم يكن خوفاً من عزة هانم بقدر ما كان نتيجة لحبه لزوجته.

ورأى أنه من المناسب أن يمنح زينب هانم حق إهانة منافستها بشكل رائع، كتعويض عن الحزن والمخاوف التي عاشتها. وبينما كان يخرج الدفاتر والأوراق واحدة تلو الأخرى من الأدراج في غرفة الكتابة في الكوخ الصغير الذي يقع خلف الحديقة، ويرتب الملفات التي حافظ عليها بعناية فائقة فوق بعضها البعض، قال لها:

زينب هانم، (كان ينادي زوجته دائماً زينب هانم ويتحدث عنها بهذه الطريقة) الصغيرة هانم تطردنا. سأقوم الآن بتسليم الحسابات وجميع الأوراق والمستندات إلى شفيق بيه وسأغادر القصر. سأقضي هذه الليلة في فندق في بيوغلو. يمكنكم البقاء لبضعة أيام، لكنني سأجد وأستأجر منزلاً في أي مكان غداً، ثم سأأتي لأخذكم. عليكم أن تجهزوا الأغراض هذه الليلة وصباح الغد، وتكونوا مستعدين للرحيل. وفي صباح الغد، اذهبي وأخبري السيدة أنني رحلت وأنت ستذهبين مع سليم.

وعلى الرغم من أنه قال هذا بصوت قريب ودافئ شعر بشكوك كثيرة وبدأ يدرك أن زوجته قد شحبت. فأضاف:

لا، لا تتخيلي أي احتمالات أخرى، لقد انتهى كل شيء بيني وبينها. لقد تحملتُ هذه الحالة، فقط من أجل مستقبلكم، لمدة ثمانية عشر عاماً، وهي الآن تصل إلى نهايتها بطريقة لم تتخيلها، وليس كما تخشين. لدى الهانم الصغيرة وصية تم انتزاعها من والدها. وستصبح الوريثة الوحيدة



لكل الممتلكات المنقولة وغير المنقولة. ووالدتها ستبقى كأنها مجرد لاجئة. وإذا تزوجت، ستضطر أيضًا إلى مغادرة القصر. وسيُدفع لها شهرًا أربعون ذهبية حتى تموت، عليك أن تفعل كما أقول، وكوني مطمئنة، فبالأموال التي جنيتها سنعيش برغد من الآن فصاعدًا. وربما سأذهب إلى إزمير وأبدأ حياة تجارية.

بعد أن قال ذلك، بدأ في فرز وجمع الوثائق. لكن السيدة زينب لم تكن مرتاحة، ولأول مرة في حياتها، شعرت بالكراهية تجاه زوجها الذي تحدث مرة أخرى عن الوضع الذي عاشه "تضحية من أجل مستقبله"، ولأول مرة لقد رآته بوجهه الحقيقي، بوجهه المقزز. فلو لم تكن هناك وصية وحصلت السيدة على ميراثها كاملاً، فإن هذا الرجل، الذي كان على استعداد لهدم منزله والزواج من السيدة الهانم، يرمي الآن نفس المرأة بعيداً مثل الحذاء البالي، ويكلفها هي بتبليغ ذلك وهذا بمثابة إهانة ثانية. كما أنه يتباهى بثروة جمعها من الحرام أكثر من الحلال، وبالطبع فقد جمع المال من الحرام وليس من الحلال. وغداً ستؤكد زينب هانم إلى السيدة أن الشخص الذي فقدته كان شيئاً قذراً وحقيراً لأبعد حد، ولا يستحق الحزن على الإطلاق.

على الرغم من أنها لم تقم بذلك في اليوم التالي، فمشاعر الكراهية والاشمئزاز تجاه زوجها لم تختفِ تماماً. ذكريات الساعات التي قضتها مع هذا الرجل، الذي لم يطفئ نيران السنوات، لم تُمحَ بسرعة من قلبها، ورغم أنها كانت تشعر بنوع من الكراهية والغضب، إلا أن هذه المشاعر لم تستطع أن تمحو تأثير تلك السنوات الطويلة. لكن زينب هانم، وهي امرأة كانت تخضع لهذه السيدة وقبّلت قدميها وتعيش من خيراتها لمدة عشرين عاماً، كانت تتمتع بروح نقية جداً بحيث لا تسمح لنفسها بأن تحقد عليها أو تسخر منها؛ لقد شعرت بنشوة النصر أخيراً أمام هزيمة هذه المرأة التي كانت تسيطر



على حياتها.

اعتادت زينب هانم على الانصياع لكل أوامر زوجها، لذلك قبلت هذه المهمة. وعندما ظهرت أمام السيدة بطريقة مُترددة، أخبرتها أن حلمي أفندي، الذي أنهت الهانم الصغيرة خدماته، قد غادر القصر الليلة الماضية بأمر منها، وأنها ستغادر اليوم أيضًا، وهناك احتمال كبير بأن يستقروا في إزمير.

استمعت السيدة إليها بهدوء وجدية، دون أن تُظهر على وجهها أي أثر للحزن. وقد تفاجئت زينب كثيرًا من هدوئها ورزانتها، بل فكرت في داخلها قائلة: "يبدو أن حلمي بك قد أخطأ في ظنه. إن حب السيدة ليس بهذا القدر من العمق" وعندما أنهت زينب هانم حديثها وساد الصمت الغرفة لحظة، قالت عزة هانم مجددًا بصوت هادئ: "أدام الله السلام بينكما، وبارك لكما في حياتكما زينب هانم، وأقبل ابنكم من عينيه". ثم وقفت.

نهضت زينب هانم على الفور من مقعدها واقتربت لتقدم التحية للسيدة التي كانت تشير إلى انتهاء حديثها. في تلك اللحظة، أدركت عزة هانم أنها قد بلغت ذروة كبريائها وهدوئها. وبينما كانت تمنع منافستها من تقبيل ثوبها بيدها، وضعت اليد الأخرى على كتفها، وبالكاد كانت تتناسك، بينما كانت عينيهما ممتلئتين بالدموع، وبصوت مكسور وبطيء، وبأسلوب يتحدث من نفس المستوى، وبموقف يعبر عن الاعتراف بالهزيمة والتخلي عن النزاعات الجديدة مع الشعور بالحنج من الأخطاء القديمة، توجهت بالكلام إلى هذه المرأة التي ربما لن تراها مرة أخرى حتى وفاتها:

— ساعيني زينب هانم، لقد تسببت لك في كثير من الألم.



الفصل الثاني والثلاثون

كانت السيدة الكبيرة عازمة على هذا التنازل قبل مجيء زينب هانم لتخبرها بذلك. فمنذ أن أتت ابنتها وأخبرتها بمضمون الوصية وشروطها، وضعت في حساباتها أن مجوهراتها تشكل ثروة كبيرة وقررت ألا تتخلى عن حبها وألا تصبح أمًا مسنةً لاجئة إلى ابنتها. لقد اعتقدت أنه يمكنها شراء عدة منازل توفر لها دخلًا ثابتًا بالمال الذي ستحصل عليه من بيع مجوهراتها الموضوعة في أربعة عشر صندوقًا صغيرًا. وإذا أضافت إلى دخل هذه المنازل أربعين قطعة ذهبية، فسوف تتمكن من العيش مع حلمي أفندي بسلام.

لم تكن تعرف، وهي تفكر في كل هذا في غرفة نومها المضاء بضوء شمعة خافت، أن ابنتها طردت الخادم وأنه خرج ورحل. لكنها شعرت فجأة بالحاجة إلى إضاءة النور والنظر في المرأة، فأظهرت لها المرأة وجهًا لم تراه من قبل.

هل كل هذا التعب في وجهها كان نتيجة حزنها لعدم وراثتها ممتلكات محمد شهاب الدين باشا؟ هل كانت شابة جميلة وهي تنتظر هذا الميراث وتتخيل حياة زوجية طويلة وسعيدة مع حلمي أفندي بعد أن يطلق زوجته أو يتجاهلها تمامًا؟ هل كانت التجاعيد تحت عينيها وجوانبها، والخطوط حول شفتيها، والترهل تحت ذقنها غير موجودة؟ هل كانت عيناها بهذا البهتان وهذه القلة من الرموش؟ هل كانت شعرات جبهتها بيضاء بهذا القدر وتحتوي على جذور بيضاء تحت الصبغة؟



قالت عزة هانم لنفسها، بعد أن أقنعت نفسها بالسن التي وجدتها مناسبة لها: "كيف وصلت إلى هذه الحال في سن الأربعين؟" ثم رأت أنه من الأفضل أن تكون صادقة مع نفسها، فهي بمفردها، ولم يعد هناك أي ضرر في الاعتراف بعمرها الحقيقي. لذلك قررت تصحيح الرقم قائلة:

لقد تحولت إلى امرأة في الستين من عمري وأنا في الخمسين.

وكان حلمي أفندي أصغر منها بثلاث أو أربع سنوات.

كيف ستمكن من السيطرة على هذا الزوج الأصغر منها باستخدام المال الذي حصلت عليه من بيع مجوهراتها؟ وإلى متى ستمكن من الحفاظ على حبه دون منافسة؟

فبينما هي تبيع المجوهرات، كان من الممكن جداً أن يخونها ذلك الزوج المحب مرة أخرى. وعند بيع المجوهرات وشراء بعض العقارات، قد يجد أعداءاً للبيع تلك الممتلكات أيضاً، ثم يتركها ويطلقها. في تلك الحالة، إذا لم تحصل على راتب تقاعدي من الباشا، وإذا توقفت نعمت عن دفع الأربعين قطعة ذهبية، فماذا سيحدث؟ بما أنها لا تستطيع مواجهة نعمت، سيكون عليها اللجوء إليها والتوسل لها وتقبييل يد ابنتها التي أنجبتها!

لا، من الأفضل إنهاء هذا الفصل دون السقوط إلى هذا الحد، ودون الدخول في مغامرة عاطفية جديدة كامرأة الراحل شهاب الدين باشا. لم يعد من الضروري صبغ الشعر أو وضع الكحل على العيون التي ما زالت تنظر بفخر، أو تحمل عناء وضع بودرة خفيفة على الوجه. كان من الأنسب والأجمل أن تبقى جالسة بهدوء كتمثال في مكانها الرئيسي، تنتظر الشيخوخة والموت بصمت وسكون.



ومع ذلك، وأثناء قرارها هذا بالاستسلام، كانت فكرة ظهور حلمي أفندي فجأة أمامها تعود إلى ذهنها، وهو يركع على ركبتيه قائلاً: "لقد انتظرت هذا اليوم لسنوات، هيا لنذهب. بل إن شئت، أُلقي مجوهراتك في وجه ابنتك الجاحدة ثم تعالي". كانت تتخيل أن هذه الكلمات، التي رتبها في ذهنها مثل السعادة التي تُرجى، قد قيلت لها. في تلك اللحظة، كانت ستنتظر في عينيها، اللتين كانتا تبدوان أوسع وأكثر إشراقاً كما في أيام شبابه، لتسيل دمعتان كبيرتان من عينيها. وستقول له: "كلا، ساحني! لن أستطيع القدوم، اعذرني!" ثم ستودعه.

كانت تفكر مع نفسها: "لو فعل ذلك وتوسل إليّ لأذهب معه، هل يمكنني الإصرار على البقاء وعدم الذهاب؟" كانت غارقة في الأحلام، وترغب في العيش في هذه الأحلام دون مواجهة الواقع لعدة أيام. ولكن زيارة زينب هانم وضعت حدًا فجائيًا لكل هذه الأحلام. وبعد أن انفصلت عن عدوها القديم بشكل ودي للغاية، بدأت عزة هانم، دون أي نفاق أو أفكار خفية هذه المرة، في حداد زوجها.

وظلت ساجدة على السجادة لأيام، وبعد أن تنتهي من الصلاة، تبدأ بقراءة القرآن...

وعلى الرغم من أن نعمت شعرت بأن والدتها تحاول من خلال هذه العبادات نسيان الحبيب الخاطيء الذي فقدته، بدأت تشعر بأن الحب والاحترام اللذين لم تكن تشعر بهما منذ سنوات تجاه والدتها بدأ ينبعثان من جديد في داخلها، مع مزيج من الشفقة. ونتيجة لذلك، بدأت تغيير سلوكها وتظهر لوالدتها احتراماً أكثر مما كانت تفعل من قبل.

أما فيما يتعلق بحزن نعمت، فقد كان شديداً واستمر لمدة تزيد عن



أسبوع. وربما كان ليستمر لفترة أطول، ولكن فجأة اندلعت أزمة سياسية كبيرة، وظهرت معركة شبه مصيرية بين كامل باشا والاتحاد والترقي. وعندما اندلعت هذه الأزمة التي كانت ستنتهي بانتصار الجمعية وإسقاط الصدر الأعظم، توقفت دموع نعمت، التي كانت تسكبها من أجل والدها الذي تجاوز عمره الثمانين - رغم بقاء ألم دائم وحلو في داخلها - بشكل مفاجئ. وبدلاً من ذلك، انجرفت المرأة الشابة في مشاعر الإثارة والشغف بالحياة السياسية.



الفصل الثالث والثلاثون

بدأت معركة الحياة والموت بين الاتحاد والترقي وكامل باشا عندما اقترح رئيس تحرير صحيفة «طائن»، الكاتب حسين جاهد بك، دعوة الصدر الأعظم إلى تقديم بيان في مجلس المبعوثان. وقد أثار هذا الاقتراح رد فعل عكسي تمامًا، حيث أدى انتهاء قراءة البيان الذي ألقاه الباشا إلى تصفيق حاد من جميع المقاعد، كما لو كان نوعًا من «الاعتراف بالسيادة»، مما منح الوزير الهرم ربما أكثر لحظاته نشوة.

وعند دخوله وخروجه من المجلس، كان يُصفق له في ساحة آيا صوفيا، وفي الفناء والممرات القديمة عند دخوله الباب العالي. كما شعر الباشا بزيادة كبيرة في ثقته بالنفس بفضل الكلمات المدحية التي وردت في برقية من ملك إنجلترا، والتي وُظفت بطريقة غير تقليدية. هذا الشعور بالثقة دفعه إلى الاعتقاد بأنه، بعد مرور سنوات طويلة على عمره، الذي زعم أعداؤه أنه قد تجاوز التسعين، قد يُنهي حياته في منصب الصدر الأعظم.

كان كامل باشا مدرّكًا أنه مُتهم بالحصول على أول صدارة له منذ أكثر من عشرين عامًا، بفضل تأييده لسياسة السلطان عبد الحميد التي تقضي بعدم معارضة توحيد روميليا الشرقية مع بلغاريا بالحرب. وعلى الرغم من عدم اتخاذ أي تدابير لمنع هذا الاتحاد، كان مصممًا على الحرب، مما أدى إلى سقوط سعيد باشا، الذي ينتقده منذ ذلك الحين بحرية.

ومن المحتمل أن هذه الضغوط وهذا الاستياء دفعه، بعد إعلان



الدستور، إلى اتخاذ سياسة صارمة تجاه بلغاريا، حيث تخلى تمامًا عن سياسة تقديم التنازلات البطيئة لحقوق السلطان عبد الحميد. وعندما سنحت له الفرصة، قرر استعادة بعض الامتيازات التي حصلت عليها إمارة بلغاريا، بشكل صارم للغاية. حتى أن الأمير البلغاري فرديناند كان متوجسًا إلى حد يكاد يساوي توجس السلطان حميد، ولم يكن قادرًا على إعلان استقلاله منذ سنوات عديدة، حتى دفعته حكومته لإعلان هذا الاستقلال. وقد أدى ذلك إلى أن النمسا-المجر، التي كانت تدير البوسنة والهرسك بشكل مؤقت منذ ثلاثين عامًا، اتجهت نحو ضم هذين البلدين. بينما ثار المسيحيون في كريت للانضمام إلى اليونان، وتم إجراء انتخابات مجلس المبعوثان وسط رائحة البارود. ومع ذلك، لم تكن اليونان قادرة على المخاطرة بطرح قضية كريت، وفضل كامل باشا التوصل إلى اتفاق مع النمسا-المجر، مما جعل النزاع البلغاري هو المشكلة الوحيدة التي لم يتم حلها.

وربما كان هدف كامل باشا هو حل هذا النزاع عن طريق الحرب، بحيث يتخلص تمامًا من الجريمة المنسوبة إليه، سواء كانت منصفة أو غير منصفة. بكل الأحوال، وبعد أن كاد يُخرج النمسا من الصورة، حينما بات وجهًا لوجه مع بلغاريا، وأُرسل إلى الباب العالي من مجلس المبعوثان بتصنيف حار مع اعتقاد بأن صدارته قد تدوم مدى الحياة، بدأ في البحث عن وزير حرية قوي يُعد جيشًا يستطيع فرض الهيمنة في المفاوضات، بل وحتى إعطاء الأوامر للجيش (مارش) إن لزم الأمر.

أما رجب باشا السبعيني، الذي كان يُعقد عليه آمال كبيرة، فلم يتمكن من البقاء في منصبه سوى ثلاثة أيام قبل أن يتوفى. ثم عُيِّن علي رضا باشا، وهو من المشيرين الشرفاء والعلماء، لكنه كان ضعيفًا للغاية، بل إنه تعامل



بلين مع الضباط المدللين الممتين للجمعية.

وأراد كامل باشا استمالة مفوض مصر السامي في قصره المريح في القاهرة وإخراجه من مجلس الوزراء، وجعل ناظم باشا، الذي كان رجلاً متباهياً ومهيباً، واكتسب شهرة كقائد ماهر ونشيط في الجيش الثاني، وزيراً مكانه. كما أراد كامل باشا إخراج وزير البحرية الهادي، علي رضا باشا، الذي كان قد أراد التنحي سابقاً، وتعيين شخص يتصرف حسب رغبته في هذا المنصب.

بينما أصبح السلطان عبد الحميد في حالة من الصمت التام والعجز عن المقاومة، يخشى حتى من ظله. كان يرى نفسه ملزماً بالرضوخ لكل ما يقوله الصدر الأعظم. أما مجلس المبعوثان، الذي ضم أحد أعضائه إلى مجلس الوزارة على أن يكون وزيراً للعدل كهدية خاصة، فقد أصبح جماعة تستمع وتطيع كامل باشا، وتناقش القوانين التي يرسلها، وتوافق عليها، وتقوم بالتحقيقات للحصول على تصفيق جديد له.

وبما أن الباشا كان يمتلك جيشاً قوياً وبحرية منظمة، ويعتمد على الدعم البريطاني خارجياً - متأكداً من أن روسيا، حامية السلاف، لم تتعاف بعد من هزيمتها أمام اليابان - فإنه كان سيعلن الحرب على بلغاريا، التي قيل إن الفرصة قد أتت لها لتحقيق استقلالها. بفضل هذا الوزير الحربي الجديد، وبعد تحقيق النصر في الحرب، سيتم استعادة ولاية روملي الشرقية من بلغاريا مقابل الاعتراف بالملكة. وربما يتم تبادل السكان بين البلغاريين في هذه الولاية والمسلمين في بلغاريا الأصلية، بحيث يتم تحقيق أغلبية من السكان الأتراك والمسلمين في روملي الشرقية. كامل باشا، الذي ينجح في تحقيق كل هذا، سيحكم الدولة بشرف ومجد لم يتمكن أي من أسلافه من نيله، مثل



صقلي^(١) أو آل كوبريللي^(٢) الأب والابن. وبفضل قوته الجسدية، كان واثقاً أنه سيبقى في السلطة حتى وفاته التي لم يكن يشك في أنها ستأتي متأخرة.

ومع ذلك، لم توافق جمعية الاتحاد والترقي على ثقة كامل باشا اللامحدودة في قوته وقدرته، ولم يعجبوه إطلاقاً، وكانوا يشعرون بالندم في حال قبوله بوجوده في منصبه حتى ليوم واحد. لم يكن الرغبة في إسقاط كمال باشا نابعة فقط من رغباتهم الشخصية، بل كان يعتبر عائقاً أمام تحقيق تلك الرغبات.

كان هناك أيضاً اتحاديون يرغبون في إسقاطه بشكل واعي وبدون توقع أي منفعة شخصية. فقد اعتبروا أن لديه حباً كبيراً لرجاله، وخاصة لأحد أبنائه، سعيد باشا، الذي تم ترقيته إلى منصب عالٍ في البحرية في سن صغيرة. كان سعيد باشا شاباً قد تم الترويج له في فترة حكم والده كمال باشا، وكان يشغل منصب والي أيدين لمدة ثلاثة عشر عاماً، على الرغم من أنه لم يكن قد حصل على المنصب بعد الإصلاحات الدستورية.

واعتقد بعض الأعضاء النظيفين في جمعية الاتحاد والترقي أنه إذا ازداد نفوذ كامل باشا، وأصبح في وضع يصعب فيه إبعاده، فإن ابنه سيكون له دور كبير في إدارة الأمور، مما قد يؤدي إلى جمع الملايين من الأموال بطريقة

١ _ صقلي محمد باشا (١٥٠٦-١٥٧٩م) هو سياسي عثماني. أخذ محمد وهو في صغره ضمن نظام الدوشيرمة لكي ينضم بعدها إلى الإنكشارية. ترقى في مناصب الدولة إلى أن أصبح قائد البحرية العثمانية ثم الصدر الأعظم للدولة لمدة ١٤ سنة (٩٧٢-٩٨٧هـ الموافق ١٥٦٥-١٥٧٩م) تحت ثلاث سلاطين: سليمان القانوني، سليم الثاني، مراد الثالث.

٢ _ آل كوبريللي هي أسرة تركية كان لها شأن كبير في الحقبة العثمانية ١٦٥٦-١٧٠٣م. حمل عدة أشخاص من هذه العائلة الصدارة العظمى. نبغ من هذه العائلة: حسين باشا الكوبريللي، وفاضل أحمد، وباشا الكوبريللي، ومحمد باشا الكوبريللي. ومصطفى باشا الكوبريللي، ومحمد فؤاد الكوبريللي.



تضرر بالبلاد، وفتح باب الفساد والرشوة الذي قد يفوق فترات الاستبداد. وأخيراً، كان كامل باشا يتصرف بحزم مثل أكثر الأعضاء المتعصبين في جمعية الاتحاد والترقي، فيما يتعلق بعدم إدخال السلطان في الأمور. لكنه لم يختلف عن السلطان عبد الحميد من حيث الطباع. فكان ينظر إلى وزرائه كمديري مكاتب خاصة، ويطلب منهم أن يتصرفوا بأوامره في جميع الأمور. وبالفعل، كانت الصورة التي كان يشكلها في ذهنه عن الحكومة الدستورية تشبه إلى حدٍ ما نظاماً مطلقاً تم نقله إليه من السلطان.

اعتبرت جمعية الاتحاد والترقي أن التغييرات غير النظامية لوزير الحرية والبحرية كانت سبباً كافياً للإطاحة بالصدر الأعظم. كما أنهم كانوا قد رضوا بصمت عن مغادرة ناظر المعارف ورئيس مجلس الدولة بناءً على التصويت، وحقي بك، الذي كان يتقل ذهاباً وإياباً بين وزارة التعليم ووزارة الداخلية مثل كرة القدم، مقابل توليه منصب السفارة الرومانية، وهذه المرة كان بإمكان ناظري الحرية والبحرية أن ينسحبوا بهدوء، حيث كان أحدهما قد حصل على منصب في القاهرة، والآخر كان قد استقال بالفعل.

ومع ذلك، قررت الجمعية الاستفادة قدر الإمكان من التحركات غير النظامية لكامل باشا. بانضمام شفيق، تم تنظيم كل شيء وفقاً للخطة في الاجتماعات التي عقدت في المبنى المركزي العام. بعد الحرية، أصبح حسين حلمي باشا بلا عمل كمدير عام في سالونيك، لذا وافق بسرور وشعور بالدين على منح الصدر الأعظم له وزارة الداخلية. وتم تكليفه بإدارة عملية هزّ الحكومة من الداخل.

كما تم تكليف آخرين بمهمة إرسال أصوات السيوف من الجيش والبحرية إلى مجلس النواب وتنظيم المناقشات وفق هذه الأصوات. بعد



ذلك، تم إرسال ناظر الحرية السابق، الذي كان يستعد للذهاب إلى القاهرة بهدوء، ووزير البحرية السابق، الذي كان عائداً بصمت، ليطعنا أمام مجلس النواب للمطالبة بحقوقهما، وتم استدعاء كامل باشا إلى المجلس لاستجوابه عن سبب قيامه بهذا الانقلاب الدستوري.

كان الصدر الأعظم المسن شجاعاً، وعلى الرغم من بلوغه الثمانين احتفظ بكامل ذكائه وإرادته. لو كان لديه صوت قوي ومهارة في الخطابة مثل خصمه سعيد باشا، لربما واجه المجلس بلا خوف. لكن مع الأسف، كان لديه صوت ضعيف يكاد لا يُسمع حتى في قاعة. كان بحاجة إلى يومين أو ثلاثة لإعداد رد على اقتراح الاستجواب الذي قدمه رئيس تحرير جريدة "طائن"، حسين جاهد بك، ولتغيير الوضع لصالحه من خلال المناورات السياسية خلال ذلك الوقت. أراد أيضاً كسب يومين أو ثلاثة أخرى بتقديم أعذار وأسباب جديدة. ولكن، أدرك الاتحاديون أن هذا التأخير الجديد كان يعني فقدان فرصة قد لا تتكرر. تواصل المجلس، الذي كان يتطلب بالضرورة أن يعود كامل باشا بعد ثلاثة أيام، مع النواب بإصرار، وقضى ساعات طويلة في انتظارهم. كانت القاعات والممرات مليئة بالضباط المنتمين لجمعية الاتحاد، ورئيس المجلس كان مرتبطاً تماماً بالجمعية، واستمر الاجتماع حتى منتصف الليل. ومع ارتفاع وتيرة الهجمات، تم التصويت بالأغلبية الساحقة على إعلان عدم الثقة بكامل باشا، الذي كان قد حصل على أسسمى التقديرات قبل بضعة أسابيع فقط. وحتى بعد أن بقي المخرج الرئيس والممثلون خلف الكواليس، وانتهت منصة الخطابة، التي كانت تملأها دائماً أشخاص ثانويون من أول المتحدث إلى آخر المتحدث، من واجبها وسقط كامل باشا، استقل أحمد رضا بك والنائب الأول للرئيس طلعت بك السيارة على الفور للذهاب إلى قصر يلدز. ورغم عدم وجود أى



احتمال حول اعتراض السلطان عبد الحميد، ولكنه كان لابد تحت أى ظرف من الذهاب هناك للتأكد من الأمور، وإخطار السلطان بوضوح بأنه يجب أن يأخذ الختم من كامل باشا ويمنحه إلى حسين حلمي باشا.

منذ الساعة الأولى من الخلاف والأزمة وحتى هذه اللحظة الأخيرة، كان شفيق، الذي كان من بين الذين أدوا المهمة، قادرًا على العودة إلى منزله بعد أن أراق عرق النصر مثل أعضاء الجمعية الذين أداروا هذه الحرب دون أن يكونوا أعضاء في المجلس. لم يكن لديه لقب يتطلب منه الذهاب إلى يلدز مثل أحمد رضا وطلعت بك، وكان على علم بمدى شوق زوجته وقلقها عليه، التي كانت تتابع بشغف كل الأحداث الدرامية التي جرت في الأيام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة. لذلك، وبينما كان متعبًا وما زال متحمسًا كما لو كان يطارد عصابة لساعات وأيام في جبال مقدونيا، نزل درجات سلم الجمعية وركب على الفور سيارته الخاصة، التي كانت مبطنة بحرير أزرق داكن وأحصتها رائعة، عقب تحرك سيارات الرئيس والنائب الأول للرئيس. وبعد أن ملّت الخيول من الوقوف لساعات، انطلقت بسرعة على الطريق. في تلك الأثناء، كان هناك العديد من النواب الذين يعيشون في إسطنبول وبيوغلو، أو الذين كانوا مقيمين في أماكن بعيدة، يضطرون للترجع في الظلام لتفادي التعثر من تلك الخيول السريعة، خوفًا من أن يصطدموا بها أثناء تقدمهم بتعب. وكان هناك من يتعثر، أو يمسك بعضهم بالآخر أو بأشجار الطريق، وبعضهم كاد يسقط...

وهذا البذخ الذي حققته له ثروة تعود إلى فترة الاستبداد لرجل كان ضابطًا تافهًا حتى الأمس لم تفشل في جلب ابتسامة مريّة وساخرة وحاقدة في كثير من الأحيان على شفاه كل هؤلاء السادة، حتى أقرب أصدقائه.



الفصل الرابع والثلاثون

— وجد السيد شفيق زوجته في غرفة معيشته الصغيرة، مدفونة على كرسي واسع بذراعين، وشعرها ينسدل من كتفيها في ضفirtين كثيفتين، منهمكة في كتاب أحد الروائيين الفرنسيين المفضلين لديها. فسألها:

— لماذا لم تنامي يا عزيزتي؟

— بدا هذا السؤال غير ذي صلة ولا معنى له بالنسبة لنعمت، لدرجة أنها وجدت أنه من غير الضروري الإجابة عنه. وسألت:

— ماذا حدث؟

— وأضافت دون أن تمنح شفيق الوقت للتوضيح:

— لقد منحتم الثقة للرجل، أليس كذلك؟

— نعم، أسقطناها بأغلبية ساحقة قبل ساعة.

— لم يأتِ إلى المجلس وظل في الباب العالي، أليس كذلك؟

— كان في الباب العالي حتى حلول الظلام، وبما أنه ذهب إلى القصر من هناك، فلا بد أنه قدم استقالته وسلّم ختم السلطنة.

— وماذا سيحدث الآن؟

— بينما كنت خارجاً من المجلس، كان أحمد رضا بك وطلعت قد ركبا السيارة وذهبوا إلى قصر يلدز. سيخبرون أن كمال باشا حصل على



تصويت بحجب الثقة بأغلبية كبيرة وسيطلبون أن تُسند الصدارة إلى حسين حلمي باشا. ومن الطبيعي أن يقبل السلطان.

_ فكرت المرأة الشابة للحظة: "وا أسفاه على السلطان حميد! لقد حولتم هذا السلطان العظيم إلى دمية في أيديكم!" ثم تخلصت مرة أخرى من مشاعرها وأفكارها حول الماضي وعادت إلى الحاضر ومصالحه، وسألت:

_ - لقد كان لك تأثير في الاجتماع الأخير وسقوط الصدر الأعظم،
أليس كذلك؟

_ - دون مبالغة أقول إن أكثر التأثيرات كانت لي وطلعت. لم يكن لدى الأغلبية الكبرى الشجاعة لإسقاط كامل باشا حتى النهاية. كان من الضروري التغلب على خوف الجمعية من خوف كامل باشا. نجحنا، ولكن مقابل مشقات وجهود كبيرة.

_ - إذن، لديكم الحق في الحصول على أهم وزارتين في التشكيل الوزاري الجديد، وحتى لو لم يُختَر السيد طلعت منصب نائب الرئيس الأول، ستكون أنت بالتأكيد وزيراً!

_ تجمّد شفيق. فلم يكن هو ولا طلعت ولا الآخرون قد فكروا في شيء كهذا. ولم تذكر نعمت شيئاً من هذا القبيل حتى الآن. يبدو أنه قال ذلك باعتباره نتيجة طبيعية جداً لإسقاط كامل باشا.

_ - لا أحد من الأصدقاء يفكر في دخول التشكيل الوزاري الجديد. سيتم ترك الحرية لحسين حلمي باشا لاختيار من يشاء.

نظرت السيدة نعمت إلى زوجها بنظرة باردة، وقبل أن ينهي حديثه، وقفت بحركة تدل على قرارها بإنهاء هذا النقاش. وبينما ألقت ضفائر شعرها



الأسود على ظهرها بحركة رأس، تثاءبت وسألت، في إشارة إلى أنها لم تعد ترى في الموضوع أي جانب يستحق الاهتمام:

- إذن، ما كانت جريمة كامل باشا؟ هل كان ذنبه أنه يمتلك خبرة لا تُقارن مع رئيس وزرائكم الجديد، وأنه كان معروفًا ومحترمًا في أوروبا؟

سألت هذا السؤال بنبرة وكأنها تدافع عن الوزير الذي أسقطته وطردته جمعية الاتحاد والترقي، وبأسلوب يوحي بأنها لم تسمع أبدًا المبررات التي قُدمت لها في هذا القصر - بل في هذه الغرفة - على مدى اليومين الماضيين، حول كيفية اتهامه بالخيانة العظمى وبشتى أنواع الجرائم. لدرجة أنها يمكنها القسم على أنها لم تستمع ولم توافق على تنظيم الحملة ضد هذا "المحنك"، المثقف، المعروف والمحبوب في أوروبا" كامل باشا.

بينما كان شفيق مذهولاً، وعلى الرغم من أنه كان مؤمناً تماماً بصحة وحسن إسقاط كامل باشا، لم يستطع أن يدافع عن رأيه هذا بكلمة واحدة: وكأنه عُقِدَ من لسانه.

وبعد أن تثاءبت نعمت مرة أخرى، قالت:

غداً ستسخطون على حلمي باشا، وتصبحون أعداءً له. ستقيمون الدنيا ولا تقعدون لإسقاطه. وفي يوم من الأيام سيقول السلطان "كفى!"، ولن يوافق على نزع الختم من الصدر الأعظم الذي لا تريدونه، ليعطيه للرجل الذي تريدونه.

وبينما كان صوت ثوب النوم الأبيض الحريري ذو الذيل الطويل المزين بالدانتييل يهمس على ظهرها، كانت تسير غير مبالية تماماً إذا ما كان زوجها يتبعها أم لا. ولكن في هذه اللامبالاة، نجحت تماماً في إيضاح قرارها بعدم



إرضاء رغباته هذه الليلة لذلك الرجل المسكين. تركته في الصالون الصغير وحده، وانتقلت إلى غرفة النوم.

انتصار الرجل الذي تلاشى، تركه عاجزاً، كالشجرة الكبيرة التي سقطت أمامه، بلا حراك. متعباً، جلس على المقعد الذي كان شاغراً بعد أن غادرت زوجته. ولم يجد في نفسه القوة ليذهب إلى غرفة النوم كي يخلع ملابسه، أو يطالب بحقوقه من زوجته التي لم يمض على زواجهما سوى شهرين. انغمس في تأمل اللهب الأحمر الذي كان يتلأأ من باب المدفأة الخزفية.

في الخارج، كان الشتاء يعصف، والرياح تضرب نوافذ الغرفة بعنف. وكانت المدفأة البيضاء الكبيرة والمزخرفة -التي بدت كبيرة بعض الشيء على هذا المكان- تبث حرارة لطيفة ومريحة ولكنها تكاد تكون مرهقة.

في صمت كثيف، كان القصر الذي يشبه السرايا غارقاً في النوم. وفي اليوم التالي، عندما تم تشكيل مجلس وزراء حسين حلمي باشا، علمت نعمت أن منصب وزارة الأوقاف لا يزال شاغراً، وأن الصدر الأعظم الجديد يريد إحضار باشا من مصر لتولي هذا المنصب.

ولكنها لم تفكر في التدخل ليقوم زوجها بالتحرك للحصول على هذا المنصب الشاغر. فقد كان والدها يشغل هذا المنصب قبل ثلاث سنوات ولمدة عشر سنوات كاملة. ربما لم ترغب نعمت في رؤية ضابط من اللجنة الثورية، الذي ظهر بالأمس فقط، يجلس على الكرسي الذي شغله والدها، بغض النظر عن مدى شغفها بهذا الرجل ليلاً.



الفصل الخامس والثلاثون

كان الصدر الأعظم حسين حلمي باشا ضعيف البنية، لكنه كان يرتدي قمصاناً سميكاً وطبقات من القمصان الداخلية، جعلته يبدو رجلاً قوى البنية، لدرجه أنه بدا على جسده الجاف أنه رجل ممتلئ وهو يرتدي معطفه الأسود. كانت الغرفة شديدة الحرارة إلى درجة أن الفحم الحجري الذي أضيف حديثاً كان يحترق في المدفأة، حتى إن صاحب الغرفة الذي نادراً ما كان يشعر بالدفء فيها قد خلع معطفه للتو.

كان الصدر الأعظم واقفاً عند رأس الطاولة بشكل يوحي بأنه لن يظل واقفاً لفترة طويلة، وكان منشغلاً بفحص الأوراق المتراكمة من كل جانب، وكل منها يرتفع عن الآخر. وفجأة تدمر وألقى بالورقة التي كان يمسك بها على الطاولة.

الورقة التي جعلته يتدمر بتلك الطريقة كانت قراراً من مجلس الوزراء أعدته أمانة الديوان الهمايوني^(١) لتقديمه إلى السلطان. فبعد العاشر من يوليو، ظهرت عبارة وتعبير جديدان هما «الأديب الوطني»، وكان المقصود بهما نامق كمال بك، الذي تعلم الكتابة عندما كان متصرفاً في جزيرة ميتيليني^(٢)

١ _ قلم أمانة الديوان: كان قلماً خاصاً لرئيس الكُتاب، يتولى الشؤون الخارجية كافة، ويربط بين الصدر الأعظم والقصر.

٢ _ «متصرف ميتيليني» هو المسؤول الإداري عن إدارة جزيرة ميتيليني في الدولة العثمانية. و«المتصرف» هو منصب إداري في التنظيم الإقليمي العثماني على مستوى السنجق، ويُعتبر أدنى بدرجة من منصب والي. كان متصرف ميتيليني مسؤولاً عن الشؤون الإدارية والاقتصادية والقضائية في الجزيرة.



بصفة كاتب خاص، ثم طور مهارته لسنوات عديدة من خلال العمل في إدارة التحريرات والمراسلات في الولايات. أما حلمي باشا، الذي شغل مناصب الوالي والمفتش العام، فلم يستطع نسيان مكانته ككاتب. وقد قرأ هذا التقرير، الذي كتبته نخبة من كتاب الباب العالي بعناية وبراعة في تركيب الجمل الطويلة، بشعور يكاد يكون عذائًا.

هذا كان أشبه بحسد مومس عجوز، لم تعد عملتها رائجة، مما يجبرها على منح المال لمن تحب، وبالرغم من أنها تدير بيتها الذي افتتحته بمدخراتها من أيام البغاء كخلية نحل، إلا أنها ما زالت تطعن وتنتقد الفتيات الشابات اللواتي يعملن معها، وكأنها بذلك تقطع الغصن الذي تجلس عليه.

توجهت يد حسين حلمي باشا الطويلة والنحيلة إلى مجموعة الخبر، وعلى وجهه نظرة استخفاف لا حدود لها. أخذ ورقة بيضاء وقسمها إلى نصفين، وكتب بسرعة وبشكل مرتب، بدون أي شطب، طلباته التي ستذهب من مكتب العدالة إلى الديوان الملكي، وكأنه مجرد موظف في أمانة الديوان الهمايوني.

بعد فترة قصيرة من نفي رئيس البلدية رشيد ممتاز باشا، الذي كان ساكنًا قديمًا في شارع الترام في شيشلي، إلى جزيرة الأميرات تحت إشراف الأمن، وبعد عودته إلى إسطنبول من سالونيك بتعليمات من وزارة الداخلية، لم يُسمع في قصر حسين حلمي باشا-الذي كان يسكنه-أي صوت سوى صوت قلم الباشا، ولم يكن هناك أي ضجيج قادم من الشارع.

لكن بعد حوالي ساعتين ونصف، سُمع صوت عربة ضيافة ذات عجلات مطاطية، تتقدم وتتوقف فجأة أمام الباب الخارجي، حيث نزل منها رجل وصعد بسرعة درجات السلم الرخامي ليترك الباب.



رفع حلمي باشا، وقد اقترب من نهاية كتابته، رأسه للحظة وخمن مباشرةً من القادم. لا بد أنه أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الأكثر نفوذاً، وهو شفيق بك، نائب تكيرداغ والمستقبل من الجيش، الذي كان والد زوجته -الباشا محمد شهاب الدين - أحد أعيان الباشوات الكبار والوزراء ذوي المكانة العالية، وقد زوجها له قبل وفاته بفترة قصيرة. وكان حلمي باشا حاضراً في الحفل الكبير الذي أُقيم بمناسبة زفافهما. على الأرجح أنه قد جاء لعقد لقاء سري طلبه بنفسه.

وبالفعل، بعد دقيقة واحدة، دخل الحارس وأبلغه بأن الزائر يطلب السماح له بالدخول.

فقال حسين حلمي باشا للحارس:

دعه ينتظر دقيقة واحدة.

ولم يستقبل الزائر قبل أن ينتهي من الورقة التي كان يعمل عليها. بذلك أظهر أن مشاغله في شؤون الدولة تمتد حتى الصباح، وأوضح أيضاً أنه، حتى لو كان الزائر من أبرز أعضاء "الاتحاد والترقي"، يجب عليه الانتظار للدخول على الصدر الأعظم.

وهكذا، جعله ينتظر خمس دقائق. ثم نهض بعدها وفتح الباب الفاصل بنفسه ودعا شفيق من غرفة الانتظار، وأجلسه على الكرسي المقابل له واعتذر عن الانتظار، موضحاً أنه غارق في الأوراق حتى هذه الساعات المتأخرة، وأن هذا الحال لا يقتصر على هذه الليلة فحسب، بل يتكرر كل ليلة.

أما شفيق، فقد أراد ألا يستغرق وقتاً طويلاً من وقته وأيضاً أن يُنهي



الأمر الذي يثقل عليه بسرعة. فتحدث مباشرةً ودون مقدمات. أخبره أن حالة "مانياس زاده رفيق بك"، العضو الوحيد في الحكومة الذي يُعتبر رسميًا من جمعية "الاتحاد والترقي" وعضوًا في مجلس المبعوثان، قد ساءت للغاية، وهناك احتمال كبير بأن يوافيه الأجل خلال يومين.

في حالة وقوع هذا المصائب، كان شفيق واثقًا من أن حسين حلمي باشا لن يتراجع عن خطوة كامل باشا، بمعنى أنه سيرغب في الاحتفاظ بشخص من "الاتحاد والترقي" في حكومته، لكن ليس مجرد عضو شرقي كما فعل كامل باشا، بل بشخصٍ قادر على دعم الحكومة بشكل فعال. لهذا، جاء شفيق ليقتراح نفسه لهذا المنصب، ويؤكد مدى فخره بالعمل تحت إمرته.

استمع حسين حلمي باشا إلى مخاطبه دون أن يقطع عليه الكلام، ووجد أنه من المناسب أن يستخدم كلمة "أستغفر الله" في حديثه، ولكنه كان يشعر بالغضب في داخله. كان يفكر: "ضابط برتبة صغيرة، يفتقر إلى أبسط المعلومات حول التنظيم الإداري، ولا يعرف شيئًا عن القوانين، والذي كان قبل عدة أشهر يطارد العصابات ووقف أمامي مرتين فقط، يجلس الآن على كرسي ويطلب مني إدارة. وما يطلبه هو من أهم الأمور، مما يمكن أن يكون مدخلًا إلى الحكومة!" ومع ذلك، كان الشاب الذي يدرسه بعينه السوداوين عميقتي النظر واقفًا بشكل مستقيم ورفع رأسه عاليًا، لدرجة أن الباشا خاف من الاستسلام للغضب الذي اجتاحه، ومن إعطاء رد قاسٍ على مخاطبه.

ومع ذلك، لم يكن الاتحاديون سعداء بتعيين رفيق بك وزيرًا، ولم يشعروا بالامتنان لكامل باشا بسبب هذا الاختيار. يبدو أنهم لم يستطيعوا تحمل فكرة أن أحدًا منهم قد يتفوق عليهم وينظر إليهم من بعيد ومن علو. وأثناء حديثه أمس مع طلال ورحمي والدكتور ناظم بك في باب العلي، عندما ذُكرَ



أن الأطباء قد فقدوا الأمل في حياة مانياس، لم يتحدث أي منهم عمن يمكن أن يكون وزير العدل الجديد. من المؤكد أن شفيق جاء فقط باسم نفسه، وبتقدير شخصي منه، وطلب من حلمي باشا في المجلس التحدث معه في الوقت المحدد. وإذا قبل حلمي باشا هذا الطلب وجعله وزيراً للعدل، فلن يدعم حكومته كما يدعي، بل سيجعل الجمعية وأغلبية جمعية الاتحاد في مجلس النواب معادية له.

ثم كان هناك مسألة مهمة للغاية ألا وهي اقتراح هذا الشاب الذي لم يتجاوز الثلاثين، والذي انفصل حديثاً عن رتبة مقدم، ولا يعرف القوانين والأنظمة القديمة والجديدة للدولة، على السلطان حميد لتعيينه ناظرًا للعدل. فعلى الرغم من أن السلطان المهيب أصبح يخضع لكل شيء، ويبدو من نظرات عينيه أن هناك العديد من الأفكار تجول في خاطره، ويظهر في ذهنه العديد من المخاوف في لحظة، في النهاية يتردد ويفتقد الشجاعة فيقول على كل شيء "حسنًا" و"مناسب"؛ ومع ذلك، لم يكن حسين حلمي باشا يستطيع أن يتجرأ على اقتراح تعيين بهذا القدر من السخافة، وهذا القدر من الهزل. فقال:

"إن امتلاك شابٍ قيمٍ مثلكم يشكل لي سرورًا وفخرًا، ولكنني أعتقد أن من الأنسب تعيين شخص ينتمي إلى هذا المجال في وزارة العدل".

لم يكن شفيق يتوقع ردًا قاسيًا وصريحًا كهذا من الرجل الذي كان يظن أنه ساعده في أن يصبح صدرًا أعظم. وليس هذا فحسب، بل إن الأثاث في هذا المنزل، الذي يمكن رؤية ما في داخله من طريق الترام، والذي يُعتبر من الأنسب وصفه بعبارة إسطنبولية تعلمها منذ أن أصبح صهرًا للبasha محمد شهاب الدين بـ "بيت صغير" بدلًا من كونه قصرًا، لم يكن ملائمًا لما كان يحلم



به منذ صغره من عيشة المساكن الفاخرة. ولم يتردد في الرد بالمثل على ذلك الباشا، الذي تجرأ على معاملته بازدراء وهو جالس خلف مكتبه في غرفة لا تضاهي أبداً فخامة غرفة المكتب التي أصبحت ملكاً له بعد أن انتقلت إليه من محمد شهاب الدين باشا. فقال:

- يا حضرة الباشا، لن أستطيع أن أتفق مع رأيكم. بما أن الوزراء شخصيات سياسية ويتولون إدارة السياسة العامة للدولة، فإن وجود مستشارين أكفاء من ذوي الخبرة وأصحاب المهنة تحت أمرهم يكفي. والدليل على ذلك، أنكم لم تختاروا بحرياً لمنصب وزير البحرية في الوزارة التي شكلتموها، بل تم تعيين باشا من سلاح المدفعية.

غضب حسين حلمي باشا تماماً وقال:

- نعم، هذا صحيح. لكنني أعتقد أنه لا توجد مسافات شاسعة وغير قابلة للتجاوز بين قائد بحري وقائد بري، كما هي بين محام أو قاضٍ وعسكري.

في الماضي، عندما كان يغضب حسين حلمي باشا وتزايد وتتصاعد نوبات غضبه، لم يكن يهدأ إلا بعد أن يدفع خمسة أو عشرة موظفين الثمن. ولكن بعد أن ارتدى العمامة في اليمن، ثم تولى إدارة نظام مختلط مع الأجانب في سالونيك وهو يرثي القبة العالية، أصبح ماهراً في تكييف تصرفاته حسب الظروف التي يجد نفسه فيها. ولم يتأخر أبداً في إدراك أنه من الأنسب عدم خروج هذا الرجل الجريء بعد منتصف الليل وهو في حالة استياء تام ويحمل الضغينة في قلبه. ثم أضاف على الفور بصوت خافت ولين، وابتسامة تكاد تعكس نظرة مفعمة بالود تجاه من يقف أمامه:

- أكرر مجدداً، إنني أعتبر صداقتك، وأنت شاب ذو قيمة كبيرة، شرفاً



لي. سيكون ذلك مكسباً حقيقياً للوزارة. وآمل أن يُكتب للسيد مانياس زاده رفيق عمر طويل، لكن إذا حدث له أمرٌ محتوم، فمن الممكن إجراء بعض التغييرات والتنقلات داخل هيئة الوزراء. وفي هذه الأثناء، من الممكن جداً أن تتولى وزارة أخرى قد تصبح شاغرة.

لقد تحدث بلهجة جادة وصادقة لدرجة أن شفيق شعر بأن كل غضبه قد تبخر، ولم يعد يشعر بالرغبة الشديدة والعناد التي كانت تملؤه قبل قليل نتيجة رفض طلبه ليصبح ناظرًا. الآن، أصبحت المسألة بالنسبة له تتمثل فقط في تقديم رد مناسب لنعمت. وبما أن الأطباء أكدوا أنه لا يوجد أي أمل في شفاء مانياس زاده، فقد شعر بالرضا عن نفسه كزوج قام بتلبية رغبات زوجته بمجرد إبلاغها تعهد الصدر الأعظم، الذي أصبح شبه مؤكد. ثم ودع الرجل المسن ذو الشعر واللحية البيضاء الذي ربما سيبقى منغمساً في أوراقه لساعات، وغادر دون أن تظهر عليه أي علامات تعب، رغم تأخر الوقت.



الفصل السادس والثلاثون

توفي مانياس زاده رفيق بك، ليس بعد يومين من حديثه هذا، بل بعد أسبوع. وفي صباح اليوم التالي مباشرة، استدعى الصدر الأعظم كُلاً من طلعت ورحمي بك إلى مكتبه للتشاور معها بشأن الشخص الذي سيتم تعيينه في وزارة العدل.

ودخل في الموضوع مباشرة:

- هل ستقترحان شخصاً؟ أم أن أحدهما سيقبل بالمنصب؟

فأجاب زواره الاثنان دون تردد:

- لا، يمكننا اختيار شخص مناسب وعرضه على الإرادة، لا يوجد لدينا مرشح لهذا المنصب.

ثم أضاف رحمي بك:

- على المستوى الشخصي، نحن لا نرغب في قبول الوزارة.

لم يتحدث طلعت بك، وخرج حلمي باشا من صمته مستنتجاً أنه إذا تم اقتراح الوزارة عليه على انفراد، فإنه سيكون مستعداً لقبولها. لكنه في الحقيقة كان مفتشاً عاماً كبيراً في سالونيك، وكان يعيش هناك كمحام. ورغم أنه حصل على رتبة رفيق بك قبل ذلك، إلا أنه استصغر ذلك. وكان من المؤلم جداً أن يتم نقل أي من هؤلاء الرجال، الذين كانوا يعتبرون قبولهم لهذا المنصب بمثابة شرف ونعمة، إلى المكان الذي تركه.



شعر حلمي باشا بالفرح والفخر لمنع هذا الخطر. وفي هذه الأجواء من الفرح والفخر، أراد معاقبة المقدم السابق ونائب تكيرداغ شفيق بك بسبب أحلامه حول الوزارة، ولم يستطع حرمان نفسه من هذا الشعور. ثم بدأ يتحدث بصوت أكثر رسمياً، مشيراً إلى التجربة التي كان ينوي القيام بها بصوت هادئ:

- إن احتمالي بوجود مرشح لدينا يأتي من أن شفيق بك قد جاء إلى منزلنا في شيشلي بعد ساعتين من منتصف الليل قبل أسبوع، وطلب تعيينه وزيراً للعدل حالما كانت الوزارة شاغرة، نظراً للحالة الصحية الحرجة التي كان عليها مانياس زاده.

نظر طلعت ورحمي بك إلى بعضهما البعض في دهشة، ثم ابتسما قليلاً. وكانت ابتسامة رحمي بك مريرة، بينما كان طلعت بك يبتسم بطريقة ساخرة، وبتعبير يتسم ببعض التسامح. ثم سأل:

- كيف كان رد سمو دولتكم؟

شعر حسين حلمي باشا -الذي كان يجب أن يقال له "سمو فهمكم"، ليس فقط منذ أن أصبح صدرًا أعظم، ولكن من قبل ذلك، وكان يغضب حينما يقال له "الذات العالي" أو "ذاتك السامية" أو "سمو دولتكم" - بقليل من الانزعاج، لكنه تحدث بثقة نابعة من أنه قد أبلغ مؤخرًا بأنه يمكنه تعيين من يشاء وزيراً للعدل، بأسلوب جدي ورصين:

- ماذا يمكنني أن أقول؟ إن شاء الله تتحسن صحة رفيق بك ويطول عمره، لكن إذا كان مقدراً أن نفقده، سأختار شخصاً ذا معرفة ومهارة للتعين في وزارة العدل.



فتحولت ابتسامة طلعت بك إلى ضحكة عالية وقال:

- من المؤكد أن ابنة الباشا قالت له: "لا يكفي أن أكون زوجة نائب، بل يجب أن أكون حرم معالي الوزير أيضًا".

أما رحي بك، فقد أخذ الأمر بجدية أكبر، وظهر في عينيه الزرقاوين، بلون البحر المفتوح، بريق حاد. وقال بصوت قوي:

كان على شفيق أن يطلعنا على هذه الرغبة الغريبة، لم يكن ينبغي له أن يتوجه إلى حضرة الصدر الأعظم دون علمنا.

أما حسين حلمي باشا، فقد وجد نفسه مستبعدًا للغاية من الحدود التي رسمتها كلمة "نحن"، حتى شعر فجأة بالقلق والألم. فعلى الرغم من أنه كان يشعر في بعض الأحيان بأنه بعيد عن الجمعية مثل كامل باشا، وكان يعلن ذلك، إلا أنه كان يشعر بقلق كبير إذا قال أحد من الجمعية أو أشار إلى هذا البعد. وشعر بحزن شديد في تلك اللحظة.

لاحظ طلعت بك هذا الحزن على الفور، وبذكاء ربما ما زال غير ناضج، لكنه حاد، وجد من المناسب أن يهدئ خاطر الصدر الأعظم بلهجة ودية ومحترمة، فقال:

- ليس لدينا مرشح لمنصب وزارة العدل، يا سعادة الباشا. ومن المعلوم لديكم أن الجمعية لم تقترح أيضًا على كامل باشا تعيين مانياس زاده. وإنما هو بنفسه رأى ذلك مناسبًا، وعندما استشارنا في هذا الأمر، قلنا: "إنه شخص محترم، لكنه مرهق ومريض، ولا يستطيع أن يظهر نشاطًا، وقد يُنسب فشله إلى الجمعية، لذا لا نصح بتعيينه." وعلى إثر هذا، قام سلفكم بنقل ردا هذا إلى المرحوم، محاولًا إحداث خلاف بيننا.



هنا صمت طلعت بك للحظة، وبدأت على حسين حلمي باشا هيئة المستغرب، وكأنه يسمع هذه القصة لأول مرة، فابتسم ابتسامة يمكن تفسيرها بمعنى: "يا إلهي، كم يوجد في هذا العالم من الأشخاص المنافقين وذوي الوجهين!"

- نعم، فقد تصرف كامل باشا، الذي نشأ على التربية الأجنبية وكان يكره النسيمة بشدة، بهذه الطريقة. في ذلك الوقت كما هو الحال الآن، ليس لديكم مرشح. كل ما تريدونه هو أن يكون شخصاً مناسباً وأهلاً للثقة. وتدخل رحي بك في الحديث قائلاً:

- نعم، تختارون شخصاً، ويتم إبلاغ الجمعية قبل رفع الأمر إلى الإرادة. كان من الواضح أن طلعت بك كان مسروراً بتولي زميله مهمة إبلاغ هذا التحذير القاطع والمختصر، والذي أزعج الصدر الأعظم. لم يضيف أي شيء آخر حول هذا الموضوع، إذ أبلغ طلعت بك في وقت سابق بمثل هذا التحذير، وبطريقة أكثر دقة، من خلال التركيز على كلمة "كُفء".



الفصل السابع والثلاثون

بعد وفاة محمد شهاب الدين باشا مباشرةً، ومن دون دعوة تُذكر، جلس شفيق بك في غرفة المكتب التي بدأ باستخدامها حديثاً، حيث جلس في مقدمة طاولة الكتابة الكبيرة ليكتب رسالة. وفجأة، فُتح الباب بسرعة، وظهرت السيدة نعمت عند العتبة. توقفت دون أن تتقدم، ونظرت إلى زوجها وكأنها تحمل له نظرة عدااء. من هذا الرجل الذي جلس بكل ثقة واعتزاز على طاولة الكتابة؟ الرجل الذي لا يليق بمقامه، يكتب رسالة؟

هل كان يكتب إلى أختيه المتقدمتين في السن، اللواتي بدأت في رؤية فرص جديدة مع والدتهما الأرملة التي تعيش في حي ما من الأحياء، والتي لم يجرؤ أحد على مواجهتها؟ أم ربما كان يكتب لصديق طفولته، الذي ربما أصبح الآن بقالاً أو عطاراً في مدينة صغيرة حيث أمضيا طفولتهما؟

كلما رأت نعمت شفيق على طاولة كتابة والدها، ورثه الآن، زاد الشعور الغامض بالألم الذي يسكنها، وتفاقم حتى أصبح عذاباً. لكن شفيق بك، الذي لم يخطر على باله كل هذا، رفع رأسه وابتسم لزوجته بنظرة مليئة بالحب، في ثوبها الأزرق الفاتح الذي جعلها تبدو كصباح ربيع مشرق ومنتعش، وكأنه ينظر إليها ليشبع وجودها في كيانه.

هذا الأمر جعل نعمت تشعر بالغضب تماماً، فقالت لزوجها بنبرة حادة تقريباً:

- من المؤكد أنك لم تقرأ صحف اليوم.



- لا، عزيزتي، لم أقرأها. لقد سألت قبل قليل، لكنها لم تصل بعد.
- وهل يمكن في الحياة السياسية البقاء حتى هذا الوقت دون قراءة الصحف؟

ثم اقتربت بسرعة، وألقت ثلاث صحف دفعة واحدة على طاولة الكتابة. ثم عادت بخطوات سريعة، وأغلقت الباب بسرعة، وغادرت.

شعر شفيق بتوتر خفيف بمجرد أن أمسك بإحدى الصحف التي ألقيت أمامه، ورأى في الصفحة الأولى الخبر الذي يجب أن يكون قد أغضب زوجته. بعد فترة من عدم وجود وزير للعدل، تم أخيراً تعيين شخص ما، ولكن بشرط عدم إجراء أي نقل أو تعديل في الحكومة. وكان هذا الوزير الجديد هو ناظم باشا، الذي كان من قدامى رجال القضاء، وقد تم تعيينه والياً لإيالة يانيه ولم يتسلم منصبه الجديد حتى الآن.

في البداية، بدا اسم ناظم غريباً تماماً على شفيق، لكنه بعد ذلك قرر أنه نفس ناظم باشا الذي تم إعادته دون اعتباره والياً على سالونيك في يوم إعلان الدستور، ثم تم إرساله إلى أدرنة، ومن ثم ربما أرسل إلى سوريا أو بيروت.

فصاح قائلاً:

- هل تعود إدارة الاستبداد من جديد؟

ولكن عندما ألقى نظرة على السطور التالية في الصحيفة التي تعرف الوزير الجديد، أدرك أن ناظم باشا هذا لم يكن هو ناظم باشا القديم، وزير الضبطية. لا، لم يكن هو، لكن هذا لا يعني أنه أفضل.

كان ناظم باشا هذا والياً في أرض الروم خلال الاضطرابات التي



حدثت ضد حكم السلطان حميد قبل عدة سنوات، حيث حاول قمع هذه الحركة الديمقراطية بقدر ما استطاع، لكنه لم يحقق نجاحًا بسبب ضعفه. وكان جزءًا من عصر الاستبداد.

وتركت التفاصيل التي وردت في الصحيفة عن هذه "القصة القديمة" شفيق في حالة من الغضب الشديد. فقد أدرك أن حسين حلمي باشا كذب عليه بلا خجل عندما أبلغه أنه سيتم إجراء بعض التغييرات لإعطاء وزارة له.

إذًا، كانت زوجته محقة تمامًا في غضبها. ومع ذلك، كان من المؤكد أن هذا الشخص، الذي يتذكره العديد من الناس أثناء فترة خدمته البسيطة في الأقاليم بشكل جيد، سيجعل هذا الصدر الأعظم يعرف حدوده. ومن المؤكد أنه سيدفع ثمنًا باهظًا بسبب تقديم الأجهزة القضائية في الإدارة الجديدة، التي رأى أنه من الخطر منحها لضابط نزيه في الخدمة العسكرية، لوالى قمعي وفاشل إلى حدٍ جعله يدفع الشعب إلى التمرد في تلك الفترة، حيث كانت تلك الأجهزة قد قُدمت له في النهاية، كما لو كانت هدية، من خلال ترتيبات سرية.

— ركضت نعمت إلى غرفة نومها، وقد احمر وجهها من الغضب. كانت غاضبة لدرجة أنها لم تقل شيئًا في البداية. جلست نعمت بشكل هادئ للغاية على الكرسي الموجود أمام النافذة، وكانت تطلي أظافرها. ثم رفعت رأسها ونظرت إلى زوجها بنظرة ساخرة ومحتقرة قليلًا. ثم أصدرت ضحكة بسيطة قائلة:

— لقد خدعك حسين حلمي باشا وفعل ما يريد فعله.

— ثم أكملت حديثها بطريقة جادة:



_ حسنًا، كنت في المجلس العمومي قبل يومين، وكان هناك اجتماع للمجلس أمس. كيف لم تعرف أنه اختير وزير جديد للعدل وأنه ذهب ليخبر السلطان بذلك؟

_ فأجاب:

_ لا أحد يعلم شيئًا. لقد أجرى الصدر الأعظم كل شيء بسرية شديدة. وقد أصاب في هذا. الله سيلحق به الأذى بسبب مكروه! لو لم يبدأ في الترتيبات السرية لمنح هذا المنصب المهم لأحد رجال العصر السابق الفاسدين، لربما لن أستطع أن أكون ضد الجمعية بأكملها. لكنه يمنحني بيديه أقوى الأسلحة التي سأستخدمها ضده!

_ كانت عينيه تتألقان، وجهته مجمدة. وقد كان جميلًا حقًا وهو في هذه الحالة. وعلى الرغم من أنه ليس من العادة خلط مشاعر النهار بجنون ساعات الليل، فصدر نعمت كان يتنفخ بشغف. ولكن لم يلاحظ شفيق ضعف زوجته ورغبتها هذه، فاضطرت نعمت إلى دفن مشاعرها داخلها. وتعاملت مع غضب زوجها وكلماته، مما جعلها تجد فيه شيئًا من الطفولة أحيانًا وشيئًا من السخرية أحيانًا أخرى.

_ كانت مشككة تمامًا في قدرة شفيق على تحريك الجمعية بالكامل ضد حسين حلمي باشا؛ فالشخص الذي يمكنه فعل ذلك كان بإمكانه الحصول على هذا المنصب في الفترة التي كانت فيها وزارة العدل شاغرة لعدة أيام. فهزت كتفيها، وقالت:

_ يبدو لي أنك فقدت وزارة العدل تمامًا، وسوف تضيع وقتك هباءً.

_ لقد كانت مليئة بالازدراء وكأنها غريبة. فقد نسيت كل ما فعله شفيق،



مثل كل خدماته السابقة، أمام هذا الفصل الأخير. ولم يعد الشاب يُنظر إليه على أنه من أنقذ شرف وعرض والدها من الخراب، بل كزوج مفروض عليها أو نتيجة حسابات خاطئة. وكررت بلهجة متعالية وغريبة:

— لن تحصل على أي شيء! فلا تجعل الآخر عدوك بلا سبب.

ولكن شفيق كان دائم الغضب، وكانت سخرية زوجته تزيد من غضبه باستمرار. وقد قرر الذهاب فوراً إلى المجلس العمومي لإقناع أصدقائه باستجواب حسين كامل باشا علناً في البرلمان. ثم ضغط على الجرس. وبعد ثانية واحدة، دخل مرجان أغا، فقال له:

— احضر السيارة على الفور.

وهزت كتفيها ببطء، كما كانت تفعل في كل مرة يصدر فيها أمراً، وأخذت تفكر ولسان حالها يقول:

— أصبح لا يخطو أي خطوة بدون السيارة، فحتى لو لم يكن المجلس العمومي على الجانب الآخر من إسطنبول وكان على بعد خمسة منازل فقط من القصر لطلب السيارة أيضاً.

وبعد نصف ساعة، نزل من السيارة عند باب المجلس العمومي، وسأل أول خادم رآه عن طلعت بك، لأنه كان يعتبره الأقرب إليه. فأخبره الخادم أن طلعت بك وجاويد بك ورحمي بك والطبيب ناظم بك كانوا معاً، وأضاف أنهم موجودون في الغرفة الأخيرة. صعد السلم سريعاً، ودخل الغرفة دون أن يطرق الباب، كما كان يفعل دائماً.

فوجد في الغرفة طلعت بك وجاويد بك ورحمي بك والدكتور ناظم، كما قال الخادم. كان الجميع جالسين حول الطاولة الطويلة. كان جاويد بك



ورحمي بك مشغولين في دراسة الأوراق التي أمامهما، بينما كان طلعت يقرأ الجريدة، والدكتور ناظم يكتب رسالة.

عندما دخل شفيق، قال طلعت بأسلوب بدا كأنه يتحدث نيابة عن نفسه وعن أصدقائه:

— أووهه! مرحباً، تعال هنا!

رفع جاويد رأسه عن كومة الأوراق مبتسماً ابتسامة تظهر أسنانه بالكامل، لكنها لم تحمل أي علامة على الفرح على وجهه، وبقي رأسه مرفوعاً مثل طلعت. بينما رفع رحمي والدكتور ناظم رأسيهما للحظة، ثم عادا بسرعة إلى الأوراق.

لكن شفيق كان مليئاً بالمشاعر، حتى إنه شعر بالبرودة في استقبالهم، فبدأ يشكو على الفور:

— ما رأيكم في الفضيحة التي قام بها حسين حلمي باشا؟

كان طلعت يبتسم ابتسامة صادقة، وهو يدلك شواربه السمكية السوداء، فسأل:

— ما هذه الفضيحة؟ ثم أضاف:

— هل مهد الطريق لقيصري ليحل مجلس المبعوثان كما فعل في عام ٩٣، أم قدم له المشورة؟

— دعك، عزيزي، من هذا المزاح! أتسألني عن ذلك بعد صدور صحف اليوم؟

ظلت رؤوس جاويد ورحمي مائلتين على الأوراق، أما الدكتور ناظم،



فقد ترك رسالته في منتصفها، ووضع يديه في جيوب صدر سترته، وابتسم بطريقة تحاكي أسلوب جاويد. ورد طلعت بك هذه المرة بجديّة ودون ابتسامة:

_ لقد قرأت الصحف وانتهيت منها، لكنني لم أجد شيئاً يدين الصدر الأعظم.

_ ماذا تريد أكثر؟ لقد أحضر شخصاً إلى وزارة العدل دون علمنا، وشخصاً ملطخاً بسمعة سيئة، حاول قمع انتفاضة أرضروم وأول حركة للحرية.

_ تحدث طلعت بك هذه المرة بشكل جاد وبنبهة حادة:

_ لا، إن ناظم باشا ليس رجلاً سيئ السمعة. لقد أظهر نزاهة شخصية في قضية أرضروم. ثم إنه لماذا حكمت بأنه قد تم تعيينه وزيراً للعدل دون علمنا؟ لقد استشارنا حسين حلمي باشا، وعلى أساس موافقتنا أعلن عن تعيين ناظم باشا.

_ كان شفيق واقفاً متسمراً مكانه، شحّب لونه تماماً، وسأل بصوت خافت:

_ منذ متى تُخفي الأمور المبلغ عنها والمقبولة أو المرفوضة من قبلكم عني؟

_ لقد طرح هذا السؤال بصوت أجش، مؤمناً بأن أصدقاءه القدامى قد خدعوه. وكان يشعر بالألم لدرجة أنه نسي تماماً أنه هو من أفسد الوحدة بينهم ودخل في اتفاقات سرية مع الصدر الأعظم. فذكره الدكتور ناظم بتحركاته السرية، بصوته الذي كان كالسلاح الحاد يخترق الناس، وقاطع



طلعت بك الذي كان سيتحدث بأسلوب أكثر هدوءًا:

- بينما أنت تدخل في أعمال تتعارض تمامًا مع أفكار وقرارات الجمعية، هل تعلمنا الآن القواعد والأمانة؟ انظر، يا رجل!

_ هنا تجنب طلعت النظر إلى وجه صديقه وابن بلده، ونظر من النافذة. بينما وجه الثلاثة الآخرون، ناظم وجاويد ورحمي، نظرات حادة نحو شفيق وبدأوا بتفحصه. حاول شفيق ألا يظهر ضعفًا، بل وبدأ بالهجوم بعد بعض التردد:

- يبدو أن تصرفي الذي ينتهك وحدة الجمعية والسرية هو زيارتي لحسين حلمي باشا. لم أكن أعتقد بصراحة أنه يجب الحصول على إذن من كل واحد منكم لرؤية رئيس الحكومة الذي تم تعيينه بموجب قرارنا المشترك. إذا بدأنا نشك في بعضنا البعض بهذه السهولة وبكثرة، فإن العواقب ستكون وخيمة، وستسقطنا أول ضربة.

فأجاب الدكتور ناظم مرة أخرى بصوته الحاد الذي كان كالصاعقة:

- لا داعي لتغيير الموضوع! القضية هنا هي ما إذا كان الذهاب إلى منزل الصدر الأعظم بعد منتصف الليل مثل اللصوص، ولقاؤه معه، وطلبه مكان وزير ما يزال حيًا دون إبلاغ الأصدقاء، هو تصرف مناسب أم لا! شعر شفيق فجأة بالذنب، وهذا الشعور جعله، ربما للمرة الأولى في حياته، يكذب قائلًا:

- لم أطلب مكان مانياس رفيق بك من الصدر الأعظم.

لكن الكلمات كانت تخرج من فمه بتردد. حول طلعت رأسه عن النافذة، ونظر إلى وجه صديقه بدهشة، بل وحتى بشيء من الحزن. هل غيرت ابنه



الباشا أخلاقه إلى هذا الحد؟ فقد نشأ حسين حلمي باشا أيضًا في مدرسة قيصري. وكان بإمكانه بالطبع أن يحاول زرع الفتنة بين أتباعه وبين كبار مسؤولي الإمبراطورية، بل وحتى بين موظفي قصره مباشرة، وقد يرغب الآن في زرع الشقاق بينهم. لكن حسين حلمي باشا لم يتحدث على نحو عشوائي؛ بل قدم معلومات مؤكدة وبدقة، وبثقة كبيرة.

أما شفيق، الذي كان ينظر إلى الأرض تقريبًا، فقد حاول الرد على الاتهام، وكأن الكلمات تتساقط من فمه. ولأنه لم يشعر أن الجملة الأخيرة دافعت عنه بما يكفي، أضاف:

- أكرر أنني لم أطلب مكان مانياس زاده من الصدر الأعظم. هو من أخبرني أن الأطباء فقدوا الأمل في حياته، وسألني عما إذا كنت سأقبل منصبًا زارياً إذا شغل في مجلس الوزراء، سواء كان في وزارة العدل مباشرة أو إذا تم نقل شخص آخر إلى العدل وتوفّر منصب آخر.

فأجاب رحي:

- ربما لم تكن هذه المحادثة خطأ بحد ذاتها، بشرط أن تكون قد حدثت مصادفة. ولكنك طلبت مقابلته بنفسك، وذهبت إليه في موعد تقرر أن يكون بعد منتصف الليل بساعتين. هل يمكنك أن تجيب على هذين السؤالين: هل ذهبت إلى منزل الصدر الأعظم لأنه دعاك؟ وهل حاولت إخبارنا بأنك ستذهب ولم تتمكن من ذلك؟

نهض شفيق بسرعة من الكرسي الذي كان جالسًا عليه وقال:

- لن أقول شيئًا! لأنني لا أقبل هذا النوع من الاستجواب. وداعًا!

ثم سار نحو الباب بخطوات عسكرية حادة مرتديًا ملابس المدنية،



وأغلق الباب بعنف واختفى عن الأنظار.

تبادل من بقوا في الغرفة، طلعت، جاويد، وناظم، ورحمي، النظرات فيما بينهم. كانوا جميعًا صادقين في رغبتهم وقرارهم بعدم السعي لمنصب وزاري، وقد استنكروا حقًا أن شفيق كان يسعى للوصول إلى كرسي الوزارة بطرق ملتوية، ثم لم يعترف بذلك بصراحة.

وبينما كانوا يستمعون إلى صوت حوافر الخيول في الشارع، التي أعلنت رحيل صهر الباشا الذي لم ينزل من عربة القصر، تنهد طلعت بحزن؛ فقد كان حزينًا بشدة.

قال طلعت متأففًا:

- قلت لكم، إن ابنه الباشا قد أفسدت أخلاقه. فحتى لو تولى شفيق منصب وزير، ستصر عليه أن يكون "صدرًا أعظم". من أين ظهرت له هذه المرأة!

كان الطبيب ناظم قد أرخى يديه إلى جانبيه، فيما أدخل جاويد بك أصابعه في الجيوب العليا لسترته المزخرفة، وقال بنبرة خطيب يلقي خطابًا:

- لا شك أن الوضع الذي نحن فيه مؤقت. لا شك أن انتقال جمعية الاتحاد والترقي غدًا إلى موقع السلطة ووضع حد لوجود هذه الدمى الحالية، وتولي جميع المناصب الوزارية بأنفسنا، هو أمر صائب ومحتم. ستقودنا الثورة في هذا الطريق بالتأكيد. ولكن في ذلك الوقت أيضًا، يجب أن نفكر طويلًا فيما إذا كان من المناسب دخول شفيق إلى مجلس الوزراء. خاصةً أن توليه منصب وزير العدل، وهو منصب يتطلب كفاءة مهنية، لا يمكن قبوله على الإطلاق.



كان طلعت منزعجاً بعض الشيء، لكنه حاول جاهداً ألا يظهر ذلك. لقد سئم من خطب جاويد المتكلفة التي كان يلقيها بين الحين والآخر، ومن انتقاده لكل شيء. قال في نفسه: "يبدو أنك ستتولى رئاسة هذه الحكومة المستقبلية وجميع المناصب، بما فيها مشيخة الإسلام! عندها ستصبح في وضع مثالي أمام فرنسا وإنجلترا".

لم يكن هناك معنى لأن ينزعجوا إلى هذا الحد، ويصبحوا كالأعداء بسبب شيء قد مضى دون أن يترك أثراً. في هذه الأيام التي بدأت فيها معارضة شديدة تتصاعد من كل جانب، فإن التسبب في انقسامات عميقة بين أعضاء الجمعية الذين خاطروا بحياتهم من أجل الحرية قد يكون خطأ لا يُغتفر، وقد يؤدي إلى نتائج مؤسفة.

إذا لم يندم شفيق ويعد إلى صفوفهم بعد بضعة أيام، فإن طلعت بك سيتصل به بنفسه ويهدئ من خاطره، وسيطلب منه باسم الجمعية والوطن أن يكبت طموحه للوزارة لفترة أخرى وألا يظهره.



الفصل الثامن والثلاثون

وجد شفيق أنه من المناسب أن يقص على زوجته ما دار بينه وبين أصدقائه في الجمعية بكل دقة وصدق، دون اختصار أو تحريف، ودون تجميل لدوره في هذا الصراع القصير والحاد الذي دار بينه وبين الأربعة الآخرين. ورغم أنه استسلم لقوة ذكاء وقلبات زوجته، وكان قد سلم لها إرادته وقدرته على الحركة، إلا أنه ظل مستقلاً تماماً في أفكاره. لذلك، وأثناء استرجاعه للحظات التي قضاها في غرفة الدكتور ناظم، كان يشعر أحياناً بأن أصدقائه مسؤولون، بينما كان يشعر بسخط كبير تجاه الدكتور. وفي أحيان أخرى، كان يشعر أن طموح زوجته اللا محدود قد خلق فجوة قد لا تلتئم أبداً بينه وبين أصدقائه، الذين ظلوا رجال قضية خالية من الطموحات الشخصية، بينما أضحى هو في صورة رجل يسعى بشتى الطرق إلى الحصول على منصب وزاري، وهو ما جعله يشعر بالغضب العميق تجاهها، وكان يكاد يخنق محاولاً كتمان هذا الغضب داخله.

استمعت نعمت إلى حكايته باهتمام، ثم هزت كتفها قائلة:

- إذا كانوا يتعرضون لهذا القدر من الهجوم من كل جانب، ومع ذلك يسمعون بظهور الخلافات حتى بين صفوفهم، فمن المؤكد أن هؤلاء السادة سينتهي بهم المطاف إلى سالونيك قريباً. دعهم يغضبون منك كما يشاؤون، فهم من يصالحونك في النهاية. لا تتخذ أي موقف عدائي شخصي تجاههم، ولكن بما أنهم هم من هاجموك، فيجب أن تأتي منهم مبادرة الصلح، وستأتي بالفعل.



وكما قالت نعمت، فقد بدأ الاتحاد والترقي يمر بالفعل بأيام عصيبة في تلك الفترة. فبطرده كامل باشا، استهلكت الجمعية نصف القوة التي أثبتت بها وجودها، وأيضًا نصف الخوف الذي زرعه. فالصراعات بين "الاتحاد والترقي" وحزب "الأحرار"، الذي أسس خصيصًا لمعارضتها، بدأت تتصاعد بشكل علني. المسيحيون، الذين ساروا بجانب الشيوخ في الأيام الأولى من المشروطة، رفعوا أحلام الاستقلال. كما بدأت تظهر التطلعات الانفصالية لدى العرب والألبان، الذين أحاطهم السلطان عبد الحميد بكثير من العناية. إضافة إلى ذلك، ظهر بعض الرجعيين الذين يخفون نواياهم خلف قناع الدين. أما حسين حلمي باشا، الذي لم يثق بتوكيل الداخلية لأحد غيره مع الصدارة، فقد كان يتخبط مع حكومته في حالة من الضعف المطلق. لم يجرؤ على إعلان اعتماده على الاتحاد والترقي أو أنهم حكومته، بل ربما اعتبر ذلك انتقاصًا من شأنه، ومع ذلك كان يرغب في أن تقوم الاتحاد والترقي بالدفاع عنه وحمايته من أي هجوم. كان هناك بين الاتحاديين من ندموا على إسقاط كامل باشا، قائلين: "على الأقل، كان له شهرة في إنجلترا، وقد ضمن لنا الصداقة مع الإنجليز. أما هذا، فهو عاجز، وجاهل، وفوق ذلك أكثر غرورًا من سابقه".

أما حزب الأحرار، فكان غارقًا في الآمال العريضة. لم تتجرأ جمعية الاتحاد والترقي على تقديم أحد من داخلها لشغل مقعد النائب الشاغر بعد مانياس زاده، كما أنها لم تتمكن بسهولة من تعيين رفعت باشا، الذي نقل من السفارة في لندن، وزيرًا للخارجية بغية التقرب إلى الإنجليز. كان شهر مارس، الذي سينتهي بالدماء، يقترب من منتصفه.

وفي هذه الأثناء، وكما توقعت نعمت في مساء يوم الشجار، مدّ بعض الأصدقاء القدماء يد المصالحة إلى شفيق في أحد الأيام. صحيح أن جميع



من اختلفوا معه في ذلك اليوم لم يمدوا أيديهم دفعة واحدة، ولكن اليد التي مُدَّت كانت يداً لأحد أكثرهم نفوذاً؛ وهي يد طلعت بك.

وفي ذلك اليوم، ورغم أن مجلس النواب كان يناقش قانوناً ذا أهمية ثانوية ومملاً، إلا أن الأجواء كانت مشحونة بالكهرباء بلا سبب ظاهر، ليجد شفيق نفسه فجأة وجهاً لوجه مع طلعت في الدهليز.

بادر طلعت بالخطوة الأولى، وأمسك بذراع شفيق بأسلوبه الطبيعي والصادق قائلاً:

- ترى الوضع. ليس هذا وقت البقاء في خصام، بل على العكس، يجب أن نكون أقرب من أي وقت مضى، وكأننا ملتحمون معاً.

في ذلك اليوم، تحدثا لبضع دقائق وكأن شيئاً لم يحدث بينهما. كان جاويد ورحمي في المجلس، وربما لم يلاحظا هذا اللقاء أو لم ينضما إليهما. وفي المساء، عند عودته إلى نيشان طاشي، روى شفيق كيف صادف طلعت بك، وكيف أن الخطوة التي بادر بها طلعت أدت إلى محادثة ودية بينهما، وانتهى اللقاء كما لو أنهما أصدقاء كما كانا من قبل.

أنصتت نعمت باهتمام، بل بفرح، وقالت:

- طلعت بك محق، فالوضع جدي وخطير بالفعل.

ثم صمتت دقيقة وهي تفكر وأضافت:

- ادعُ هذا الرجل إلى العشاء هنا في إحدى الأمسيات، أريد أن ألتقي به أيضاً.

لم يرَ شفيق أي سبب يمنعه من قبول هذا الاقتراح، أليس قد اختارها



زوجة لأنه رآها وأحبها بفضل عدم مبالاتها بالشكليات؟ علاوة على ذلك، كان شفيق يقبل أفكار نعمت دون اعتراض. حتى لو لم يكن بينهما لحظة كهذه، لكان من المؤكد أنه لن يعترض. فسأل ببساطة:

- في أي يوم أدعوه؟

فأجابت:

- دعه يختار اليوم، بشرط ألا يكون بعيداً.

نقل شفيق دعوة زوجته إلى طلعت بك عندما توجه في اليوم التالي إلى الغرفة المخصصة لوكلاء الرئيس في المجلس، وقد كانت صدفة جيدة أن النائب الثاني للرئيس، أريستيدي باشا، لم يكن موجوداً في مكانه. فأوماً نائب أدرنة برأسه الضخم على كتفيه العريضتين وجسده الممتلئ قائلاً:

- حسناً.

ثم سأل:

- ألا يوجد مدعوون آخرون؟ من سيكون حاضراً؟

فأجاب شفيق:

- نحن ندعوك بمفردك.

لم يعترض طلعت بك على هذا، إذ إن هذا الرجل الذي وُلد ليكون سياسياً كان يرغب في أن يكون الجميع تابعين له، وأن تظل هناك بعض الخلافات البسيطة بين "الإخوة" بحيث يكون هو الوسيط والحاكم بينهم. كان طلعت يقدر السياسة التي اتبعها السلطان عبد الحميد لمدة ثلاثة وثلاثين عاماً، والتي كانت تستند إلى رؤية تقضي بضرورة وجود غيرة وعداوات دائمة بين رجال



القصر والوزراء، تمامًا كما كان يُطلق على ذلك بـ "سياسة القيصري" حسب تعبير السلطان.

وكما تقرر، في مساء اليوم التالي بعد انتهاء الجلسة، اصطحب شفيق طلعت بك إلى عربته المبطنة بالحرير الأزرق الداكن، التي لا تزال تحتفظ برائحة وشكل وتفاصيل تذكر بوجود محمد شهاب الدين باشا، ونقله إلى قصره في نيشان طاشي.

كان طلعت بك قد جاء إلى هذا القصر مرتين من قبل: إحداها بصفتها وكيلًا عن شفيق في عقد القران، والمرة الأخرى كمدعو في وليمة ليلة الزفاف، لكنه بالطبع لم يرَ نعمت في كلا المراتين. على الرغم من أن محمد شهاب الدين باشا لم يكن متعصبًا، كان متمسكًا بالتقاليد بشكل كامل.

استقبلت نعمت الضيف عند الباب الخارجي للصالون الكبير، مرتدية ثوبًا أسود حريريًا مفتوحًا قليلًا من الخلف، وشعرها الأسود الكثيف معقود على هيئة كعكة في مؤخرة رأسها. ومدت يدها بابتسامة قائلة:

- سررت كثيرًا بلقائك.

انحنى طلعت بك دون أن يرد، وبدأت عليه علامات الدهشة. ربما كان يتوقع أن تظهر السيدة الشابة أمامه بملايس محتشمة، على الأقل بغطاءٍ للشعر. لم يكن متفاجئًا فحسب، بل بدا وكأنه شعر بشيء من التواضع وحتى الارتباك.

بدأ طلعت بك غير مرتاح طوال فترة العشاء. كان يبدو أنه منزعج من ياقته الصارمة وأكمامه، ومن العدد الكبير من الشوك والسكاكين المحيطة بالأطباق، ومن الأكواب المتنوعة، ومن الجو الرسمي الذي كانت تضميه



جارتان مستتان ورجلان من الحرس الخاص، الذين كانوا يأتون ويذهبون في صمت تام وكأنهم ينزلقون. بدا وكأنه ضجر من كل شيء، من كل هذا البذخ في غرفة الطعام. كانت الصالونات الجديدة في باي أوغلو، التي بدأت للتو في استضافة الكبار، لا تزال غير معتادة عليه بما يكفي، لدرجة أنه كان يرتكب أخطاء، ويتردد، ويتصرف بشكل غير لائق أحياناً أثناء تناول الطعام، بل وأسقط طعاماً على مفرش المائدة الفاخر في إحدى المرات. طيلة الوقت كانت نعمت تفكر في نفسها:

- شفيق كان أكثر أناقة منه منذ البداية، أما الآن فالمقارنة ليست في صالح طلعت أبداً.

بعد تناول القهوة، وانتقال الضيف إلى الصالون الأحمر حيث جلسوا، طلبت السيدة نعمت سيجارة من علبة زوجها، التي كانت في البداية ترغب في تقديمها له كرشوة، ثم قدمتها له على أنها هدية الزفاف. كانت العلبة مذهبة ومرصعة بالياقوت، وقد تم تداول الحديث عنها كثيراً بين الأصدقاء. رغم أن طلعت بك لم يعجبه أن يرى امرأة شابة تدخن أمامه، وخاصةً أمام زوجها ورجل غريب، إلا أنه لم يتأخر في إشعال السيجارة لها، معتمداً على خبرته الأولية في التصرفات الاجتماعية.

قالت نعمت، وهي تتحدث بنبرة حازمة وواثقة:

- إذا كان لا يزال في داخلكم شيء من الغضب بسبب زيارة شفيق إلى حسين حلمي باشا، فيمكنكم أن تلوّموني أنا، لأنني أصررت عليه ليذهب إليه، بل وهددته. وأود أن أضيف أنه لو كنا قد التقينا سابقاً، لكان بإمكانني أن أوجه نفس الإصرار، وإذا لزم الأمر، التهديدات كبلدياتكم، ولأرسلتكم أيضاً للمطالبة بوزارة الداخلية، التي حافظ عليها حلمي باشا



من أجل نفسه، دون أن يكتفي بالصدارة.

ضحك طلعت بك بلطف. فهل استمتع بهذه المحادثة التي كانت وكأنها شكل من أشكال البلطجة؟ أم لأنه حظي بأن تكون هذه المرأة الجميلة، ابنة الوزير، بمثابة شقيقته؟ أم لأنه أعجب بحديثها عن تقليده وزيراً للداخلية؟ ربما كانت جميع هذه الكلمات لها تأثير في ضحكته. واستمرت نعمت هانم في الحديث:

- نعم، كنت سأرسل كلاً منكما إلى هذا الباشا لطلب وزارة. لأنني، بصراحة، لا أفهم. بما أن السلطان حميد قد أُجبر على إعادة المشروطة، وبما أن إدارته التي استمرت ثلاثة وثلاثين عاماً مليئة بالعيوب والجرائم، وتعتبر مشؤومة، فلماذا سقط بعض رجاله، بينما لا يزال الآخرون في مناصبهم؟ لو أنكم كنتم قد تعاملتم بكرم مع جميع هؤلاء الرجال وتجنبتم أي إهانة لهم، لفهمتم ذلك، بل وفضلته... لكن كان يجب إقالتهم جميعاً، وكان من الضروري ألا يُسمح لجزء منهم بالبقاء في المناصب. الشكل الإداري يتغير، بينما يمتلك النظام الجديد بعض عناصر الإدارة القديمة. يتم وضع علامة "شريف" و"مؤهل" على صدور بعض الرجال القدماء، وتقومون بتسليم البلد لهم. لماذا لا تظهرون شجاعة لتولي المسؤولية؟ ألا كان يجب عليكم تشكيل حكومة جديدة برجالكم المخلصين حينما أسقطتم كامل باشا؟

هذه الجمل التي تحدثت بها بشكل منظم ودون توقف، وبسهولة، وبأسلوب جميل ومليء بالحماسة، هي ما جعلت شفيق يقع في حيرة عميقة وإعجاب شديد بها أثناء الاستماع إليها في مطبعة "ثروت فنون". وعندما استمع طلعت بك إلى حديثها، نسي جمالها للحظة، وجذبتة قوة المنطق الموجود في الكلمات البسيطة. ورغم أنه كان يعلم تماماً أن هذا لا ينبع من



داخلها، وأنها عذّبت شفيق المسكين ليساعد والدها، الذي ينتمي إلى فترة لا تريد لأحد من رجالها أن يكون على رأس السلطة، كي يصبح من الأعيان؛ فإن كل ذلك اختفى من ذهنه لفترة قصيرة. كان جادًا للغاية، ولفترة قصيرة على الأقل، في اعتبار هذه الشابة، التي كانت ترتدي سوارًا بسيطًا في يدها اليسرى، لكنه متألّئ بالأمّاس الذي جاء نتيجة عرق ودماء كثير من أهل القرى، محاورًا حميمًا. وتكلّم طويلًا عن آلامه، مستسلمًا لرغبة في التحدث إليها:

- سيدتي، لقد أعلن السلطان حميد عن هزيمته بسرعة كبيرة، ودون أن نقوى على ذلك، وبالتأكيد دون أي معرفة أو خبرة. لقد تكيف مع هذا الوضع بسرعة، مشيرًا إلى السلطان دون أن يذكر لقب القيصر أو اسم عبد الحميد. فنحن في وضع "كما لو أمسك رجل بلص فيقول: لقد قبضت على اللص، فيردون عليه: إذا أحضره، فيقول: لا أستطيع إحضاره، فهو لا يتركني." نحن أيضًا في نفس الحالة. نقول إننا قضينا على الاستبداد، وأنها مهيمنون على كل شيء. لكن في الحقيقة، نحن مجرد مجموعة من الأشخاص غير المنظمين، وغير المؤهلين، وغير المستعدين. تمتد الإمبراطورية من إسقودرة (في ألبانيا) إلى فزان (ليبيا)، ومن هوبا (في تركيا) إلى حدود الخليج العربي وعدن. ليس فقط كل ولاية تختلف عن الأخرى، بل حتى أعلام تلك الولايات، التي تشبه ممالك صغيرة، تختلف أيضًا. إن هذا الكيان الضخم يتعرض لمختلف المخاطر من كل جهة. السواحل التي تمتد لآلاف الكيلومترات بدون أسطول، والشعوب الاثنان والسبعون التي تعيش على أراضيها، باستثناء الأتراك، يسعون إما للاستقلال أو الانضمام إلى دول خارج الحدود.

نقول: "لقد ربطنا يدي عبد الحميد وقدمه في قصر يلدز، ولم يعد له علاقة



بالعالم". وهذا ليس صحيحًا بالضرورة. ولكن، حتى لو كان الأمر كذلك، كيف ستمكن من الحفاظ على كل هذه الإمبراطورية التي أخذنا إدارتها منه، بقوة هذا التدفق؟ كيف سنحافظ على الأجزاء التي بدأت تتفكك؟

يتخفى ضعف الاتحاد والترقي تحت غطاء من السرية. نقول: "نحن المسيطرون على كل شيء، ولا نتمسك بالحكومة القديمة إلا بشرط أن تتلقى الأوامر منا." لكن، تمسكنا بهم يأتي من عدم جاهزيتنا لتولي السلطة بأنفسنا. هناك من يلاحظون أننا لسنا بالقوة الكافية تحت ستار الغموض الذي نستتر خلفه، ويزداد عدد هؤلاء الملاحظين. ماذا سيحدث إذا هجموا علينا جميعًا دفعة واحدة، وتلقوا الدعم من عبد الحميد؟

الآن جاء دور نعمت هانم للصمت والتفكير. هذا الرجل، الذي بدا بتصرفاته الخشنة والمستغربة داخل القصر الفخم، كان في الواقع ذكيًا وذو أصالة. منذ أن خرج عن طقوس الصالون، اكتسب شخصية إنسان متفوق. حتى طريقة حديثه عن السلطان عبد الحميد بشكل غير مبالٍ وخارج عن قواعد الأدب لم تترك تأثيرًا سيئًا عليها. صحيح أنه لم يكن طويل القامة ووسيمًا مثل شفيق، ولكنه كان يبدو أكثر جاذبية بفضل عينييه الكبيرتين بلونهما الكستنائي.

وفكرت بحزنٍ للحظة كيف لم تظهر هذه الصورة أمامها في ذلك اليوم البعيد، حينما زارت مكتب مجلة "ثروت فنون" مرتدية العباءة السوداء، حاملةً معها الرد على اتهام والدها بإساءة استخدام سلطته، مسترجعةً ذكريات الأيام القريبة، ولكن البعيدة الآن.

لكن هل سيكون هذا الرجل طيِّعًا بين يديها مثل شفيق، لينًا كالشمع يمكن تشكيله بالشكل الذي تريده؟ هل كانت الفتاة التي تصوّرُها



واشتهها كزوجة هي تلك الفتاة الصغيرة البيضاء التي تجلس عند عودته إلى المنزل، تُلبسه نعليه وتسليّه بأحاديث الحي التافهة التي لا تسمّن ولا تغني من جوع؟ لم تتعمق نعمت في هذا السؤال في ذهنها، بل فكرت أنه بما أن طلعت بك أيضًا أعزب، فربما تستطيع أن تحقق تأثيرًا عليه لا تستطيع زوجة أن تحققه، ولم تر ضرورة لحساب الثمن الذي يمكن أن تدفعه لتحقيق هذا التأثير.

وعندما نهض طلعت بك مستعدًا للذهاب، أراد أن يكمل انتصاره، وأن يضمن تمامًا بقاء شفيق تحت سيطرته بمساعدة زوجته، فاعتبر أنه من الملائم أن يجعل مخاطبه نعمت. قال:

-إننا نمر بأيام مهمة للغاية، سيدي. فجمعية الاتحاد والترقي تواجه هجماتٍ لا ترحم. أولئك الذين ربطوا مصائرهم بالجمعية ووهبوا لها كل ما يملكون قد جاءوا جميعًا من روملي. وقد انتزعت الحرية بفضل تضحياتهم، وإن سقطوا لن يتمكنوا من الاتحاد مع من أسقطوهم، وسيظلون مُلقين على الأرض. يجب أن يكون هناك ثقةٌ وتضامنٌ عميقٌ ومطلق بيننا. وبين هؤلاء القادمين من روملي، نحن فقط من أدرنة، أنا وشفيق. يجب ألا تحدث وقعة بيننا ولا يُسمح بظهور أي خلاف. عليكم الحرص على بقاء الأمور على هذا الحال، سيدي!

قال هذه الكلمات بجديّة وإخلاصٍ عميق، فأثرت تلك المشاعر الصادقة في نفس نعمت، التي جمعت يدي زوجها ويد طلعت. وكأنهما، رغم ضعفهما وعدم تغذيتهما الكافية بسبب الفقر الذي نشأ فيه، قد أحسّا بكل حرارة الثورة، فشدا على أيدي بعضهما البعض.



الفصل التاسع والثلاثون

بفضل شخصية طلعت بك وذكائه وصدقه، تمكنت السيدة نعمت في اليوم التالي مباشرةً من التخلص من التغيرات التي كانت قد تراكمت في عقلها وأفكارها. لقد قبلت اعتراف نائب الرئيس الشاب كشيء يستحق ألا يُنسى، ويستحق أن يُتذكر، ومفاده أن حزب الاتحاد والترقي كان ضعيفاً، وأنه كان يصمد بفضل نشره الوهم بامتلاكه قوة لا يملكها فعلياً.

كان من الممكن أن تمر أشهر، وربما سنوات، دون أن يتمكن حزب الاتحاد والترقي من الاستيلاء على الحكم، ودون أن يتمكن من تنحية الباشوات والبكوات الذين نشأوا في عهد السلطان عبد الحميد ليصل هو إلى السلطة. لكن، خلال تلك الشهور أو حتى السنوات الطويلة التي كانوا يمررون فيها الوقت دون جراءة أو قدرة على تولي الحكومة، لن يُكتشف أن القوة المزعومة والسلطة التي بدت موجودة ما هي إلا شبح. ألن يتحرك عبيد قصر يلدز مع البنادق والمسلحين، والفرقة الثانية التي كانت مليئة بالتبرعات ومعسكرات من الجنود؟

صحيح أن السلطان عبد الحميد، الذي كان قد استسلم بسهولة في العاشر من يوليو، لم يكن هو نفس السلطان القديم؛ كان أشبه بظل لنفسه السابقة. ومع ذلك، هل يعجز من حوله، الخدم والمسلحون والبنادق، بقيادة ابنه العزيز الأمير برهان الدين أفندي، عن فعل ما لم يتمكن هو من القيام به؟ هذا الأمير، الذي أُقرّ بوجود جوانب غريبة في شخصيته، بلغ الآن الخامسة والعشرين من عمره؛ فلم يعد طفلاً.



بل إن "الاتحاد والترقي" نفسه، الذي ساعد هؤلاء "رجال العهد القديم النظيفين" للوصول إلى السلطة، قد يجد هؤلاء الرجال الفرصة لركله بعيداً، بل وقد ينجحون في ذلك. بالفعل، لقد واجهوا مؤخرًا خطرًا من هذا النوع، إذ حاول كامل باشا، الذي لم يكن يلقي بالاً للجمعية، جمع كل السلطات بيده، ولم يتمكنوا من إسقاطه إلا بصعوبة بالغة. صحيح أن حسين حلمي باشا، الذي جاء بدلاً منه، بدا مدينًا للجمعية بسبب تعيينه صدرًا أعظم، ومطيعًا لها بشدة. ومع ذلك، ألم يكن أحيانًا يصرح باستقلالته، وأن الجمعية ليست موجودة فعليًا وأنه غير منحاز؟ لم يكن من المستبعد أن ينتهي هذا الشعور بالولاء بسرعة. فقد كان هذا الرجل، رغم تقلده مناصب متواضعة في الأقاليم لسنوات، قد شغل مناصب عليا في السنوات الأخيرة، بل وكان يُقال إنه كان مرشحًا لمنصب الصدارة العظمى حتى قبل إعلان الحرية.

إسطنبول كانت تزداد برودة تجاه الأشخاص الذين قدموا من روملي، وبدأت ملتفتة نحو من يبرز داخلها من "أحرار"، أولئك الذين أسسوا حزبًا باسم "أحرار"، بل وحتى إلى الأمير صباح الدين بك، الذي لم يكن يملك سوى ذوقه الرفيع وطريقته الجميلة في الحديث، ومقتنيات والدته السلطانة سنيحة، التي كانت تسكن في قصر قديم أثاثه بات باليًا.

كانت إسطنبول تتطلع إلى الأمير، على الرغم من أن برنامجه وخطاباته، اللذين كانا متضخمين وغامضين، يشتملان على عبارات قد تهدد الإمبراطورية بالتفكك لو أمكن تطبيقها. وفي ذلك اليوم الذي كان سيتم فيه اختيار وزيرٍ جديدٍ بدلاً من منياس زاده، أصدر كامل باشا بيانه الذي ظل أسابيع بدون نشر. شرح فيه كيف أن الاتحاد والترقي كان يتبع سياسة استبدادية، وكيف حاولوا التآمر عليه وتدمير المكائد لإسقاطه، مما زاد من برودة مشاعر الناس تجاههم.



وعلى الرغم من كل الجهود، لم يتمكن الاتحاد والترقي إلا من تحقيق فوز بشخصٍ محايدٍ وليس من المعارضة في الانتخابات، وكان هذا بسبب عدم تراجع المرشحين المعارضين عن بعضهم البعض، مما أدى إلى تشتت الأصوات المعارضة.

وكانت المدينة، التي لا تزال تُدعى بيزنطة، حاضنة الخلافة والسلطنة، قد بدت وكأنها ستسقط الاتحاد والترقي، الذي استولى على السلطة بالقوة، في غضون أشهر معدودة، لتجعلهم في النهاية مجرد شطايا في بحر من اللعنات والدماء، بل وستهمزهم وتُحيلهم إلى البؤس، حتى قبل أن يتولوا السلطة فعلياً.

بعد فترة وجيزة من إقالة كامل باشا، وبمجرد أن بدأت نجمة الجمعية في الأفول، كانت "نعمت" قد رأت بوضوح مسار الأحداث دون غموض. ولم تخدعها الكلمات الجميلة لـ "طلعت بك" إلا ليوم أو يومين فقط. وبمجرد أن زال صدى تلك الكلمات من أذنيها، عادت لتفكر وترى الأمور كما كانت سابقاً، وبدأت تملأ أذني "شفيق" بأرائها القديمة باعتبارها ابنة وزير سابق. وتجدر الإشارة إلى أن شفيق لم يكن يغفل عن حضور جلسات مجلس المبعوثان، حيث كان يرى تلك الأحكام والتوقعات تتحقق يوماً.

وبعد إعادة الدستور، بدأ بعض النواب الذين انضموا لجمعية "الاتحاد والترقي" - بل إنهم لم يسمعوا عنها إلا حينها - يشعرون بالفتور والابتعاد عن الجمعية. وبدأت العناصر المختلفة، بما في ذلك الأقليات المسلمة، تشكل مجموعات فيما بينها. وبات عدد النواب من العرق العربي المرسلين من مختلف المناطق العربية يقارب عدد النواب الأتراك.

بالإضافة إلى كسب حزب الأحرار ثقة جميع هذه الفئات الأقلية، كان



يزداد تأثيره بشكل مطرد داخل مجلس النواب بين النواب الأتراك، الذين يمكن أن يشكلوا غالبية قوية. كان مجلس النواب يبدو وكأنه ليس هو نفسه البرلمان الذي تصرف ككتلة متحدة ضد كامل باشا بإيعاز من الاتحاد والترقي، وأسقطه. فقد ندم الكثيرون ممن منحوا تصويتهم بعدم الثقة تجاه ذلك الباشا صاحب التجارب العميقة والصديق الشخصي للملك إنجلترا، وأصبحوا يشعرون بالحنج. غداً، ويبدو أن عددًا كبيرًا منهم سيرر موقفه السابق بأنه كان بفعل الضغط.

ربما لم يرَ شفيق بك، نائب تكيرداغ، كل هذا لو لم يكن ينظر إلى الأمور من خلال عدسات النظارات التي ترتديها زوجته السيدة نعمت. ولربما كان يخلص القضية، مثل كل الاتحاديين المتشددين، بعبارة: «خونة، سنسحق رؤوسهم! لا شك أننا سنسحق رؤوسكم!» ولكن تحت تأثير النظارات السوداء التي كانت ترتديها زوجته، ابنة الباشا حسب قول طلعت بك، بدأ يرى الاتحاد والترقي بشكل بغيض وبدون أمل، لدرجة أنه في الأيام الأخيرة لم يكن يطأ قدمه مقر المجلس العمومي.

إلى جانب ذلك، كان له بعض الأقوال والتصرفات في مجلس النواب التي عبّر فيها بوضوح عن انتقاده لسياسة السيطرة المطلقة التي يتبعها الاتحاد والترقي، وعن أهمية إعطاء قيمة أكبر لسياسة توحيد العناصر المختلفة. بل وكان يعبر بشكل صريح عن أن بعض جوانب مشروع اللا مركزية للأمير صباح الدين، الذي لا يوجد له أي ممثل في البرلمان، جديرة بالاهتمام والتفكير. لكن لم يكن أي من ذلك ليزعج طلعت بك بشكل كبير، حيث كان يظهر نفس الابتسامة الدافئة في كل لقاء، بل كان يضع يده على كتفه أثناء الحديث.



وقد تطلب الأمر في آخر أيام شهر مارس، الذي بدا وكأنه لا ينتهي، وفي منتصف الليل، أن يُقتل أحد الصحفيين المعارضين على الجسر بمسدس، كما حدث مع جميع أصدقائه الآخرين، لكي تنتهي صداقته مع طلعت بك، ويُعتبر عنصراً غريباً وعدواً للجمعية، وخارجاً عنها بالكامل. كان هذا الكاتب رجلاً بائساً، يعمل لحساب صحيفة معارضة في إسطنبول، وهي صحيفة لا تُباع إلا عندما تنشر هجمات عشوائية هنا وهناك. وربما كان يقوم بمعارضته فقط من أجل لقمة عيشه، أما قاتله، فقد تمكن من الفرار بسهولة من الجسر، الذي كان دائماً تحت حراسة جباة الجسر والشرطة، دون أن يقع في أيديهم أو حتى يلفت انتباههم.

وعلى إثر ذلك، عرف الجميع أن هذا الاغتيال من تدبير جمعية الاتحاد والترقي، وبدأت الأصوات تعلو من كل حذب و صوب: "يجب أن يظهر القاتل". كانت ترتفع هذه الصيحات، وكان شفيق من بين من أطلقوها. والغريب في الأمر أنه كان مستاءاً للغاية من تنظيم هذا الاغتيال دون إخباره، بل ودون اعتبار له، حيث اعتُبر تماماً كغريب عنه، مما أثار غضبه بشدة. وفي اليوم التالي، صعد إلى المنصة في مجلس النواب قبل الجميع، وطالب الحكومة بضرورة كشف القاتل مهما كان الثمن. وقد قوبل خطابه في هذا الشأن بتصفيق حار من جميع المعارضين، في حين استمع له أصدقاؤه السابقون بصمت ولا مبالاة، بل وخرج بعضهم من القاعة لكيلا يستمعوا. لم يتوقف شفيق عند هذا الحد، بل تجاوز ذلك؛ إذ شارك في جنازة الكاتب المقتول، حسن فهمي، دون استشارة زوجته، وتواجد هناك بين المعارضين الأكثر تشدداً، ومع مجموعة من الرجال مرتدين العمام وملايس العلماء، وكأنه كان بينهم كنفاً إلى كتف.

وبعد أن فعل ذلك، عندما التقى بطلعت في دهليز مجلس النواب، لم يقف



معه ليحادثه كالمعتاد مع ابتسامه دافئة على شفتيه، بل مرّ به بابتسامه باردة وإيماءة خفيفة. وكان معه نائبان مرتبطان بشدة بجمعية الاتحاد والترقي، وهما من النوع الذي يفضل البقاء في الخلفية دون تقدم الصفوف، وقد أدارا وجهيهما دون إلقاء التحية عليه.

وفي تلك الليلة، عندما عاد إلى القصر، أزال شفيق صور المجاهدين الأحرار، مرتدين القبعات البيضاء، التي كانت ملتقطة قبل العاشر من يوليو، من جدار صالة الضيوف القديمة، وألقاها في درج إحدى الخزائن بطريقة فوضوية، ولم يبقَ على الجدار سوى صورة والده، الإمام أفندي، المتواضعة.

بعد ذلك بيومين أو ثلاثة، استيقظت إسطنبول على حركة التمرد العسكري في ٣١ مارس.



الفصل الأربعون

أحداث ٣١ مارس، هي تمرد مجموعة من الجنود من مختلف الثكنات العسكرية بالمدينة أمام مبني وزارة العدل بميدان آيا صوفيا، حيث يوجد مجلس الأعيان والمبعوثان، في الساعات الأولى من الصباح، وأصوات الأسلحة تملأ مع صرخاتهم "نريد الشريعة". ولقد سُمعت الأخبار في قصر نيشان طاشي مبكرًا جدًا، وكان الذي أحضر الخبر إلى نعمت هانم، بينما كانت لا تزال في السرير، هو زوجها الذي استيقظ في وقت سابق وبدأ في الحلاقة كما يفعل كل صباح، وكان وجهه شاحبًا للغاية، وأضاف قائلاً:

— يجب أن أرتدي ملابسني وأذهب إلى المجلس. لكن نعمت اعتبرت هذه الفكرة شيئًا طفوليًا، وقالت:

— هذا ليس صحيحًا على الإطلاق. دعنا نحصل على معلومات شاملة أولاً ثم نفكر في كيفية التصرف.

كان من الطبيعي أن يكون هناك تحرك يرفع شعارات "نريد الشريعة!" ضد الاتحاد والترقي. وقد نظر الزوجان، رغمًا عنهما، معًا إلى التلة المقابلة، حيث يقع قصر يلدز. إذا كانت هناك حقبة جديدة تبدأ، فماذا سيكون وضع شقيق في هذه الحقبة؟ هل كان ابتعاده عن الاتحاد والترقي في الأيام الأخيرة كافيًا ليغفر لهذا العضو القديم المتطرف في الحزب؟ كان هذا شيئًا يعتمد على مدى اتساع الحركة.

وقالت نعمت فجأةً لزوجها، وكأنها توضح له مجرد فكرة:



— لحسن الحظ أنك كنت في جنازة حسن فهمي، وقد كتبت جميع الصحف عن وجودك هناك.

لم يستطع شفيق إدراك ما إذا كانت مشاعره نابعة من الفرح أم من الحزن. كما أن الأخبار التي وصلت لاحقاً إلى القصر لم تساعد في توضيح نوع مشاعره. ووفقاً للأخبار الواردة، فقد أحكم قائد الجيش الأول محمود مختار باشا قبضته على الجنود الموجودين داخل مبنى وزارة الحربية، وكانت تنتظر الأوامر بالحرف بالقوات التابعة له لقمع هذا التمرد؛ الغريب والغامض في هذا الأمر، أن تلك القوات، التي يوجد بينها الكتائب المقاتلة التي جلبتها جمعية الاتحاد والترقي من سالونيك للدفاع عن نفسها، كانت تضم أيضاً متمردين في صفوفها وحتى في قيادتها. لكن الصدر الأعظم ووزير الداخلية حسين حلمي باشا ووزير الحربية علي رضا باشا - وهو نفس القائد الذي قبل شهرين فقط دافع بشدة عن بقاء 'الاتحاد والترقي' كانوا في حالة ضعف وذبول عميق، فلم يتمكنوا من إصدار هذا الأمر، وبسبب ذلك ستتغير الأمور تدريجياً. وعلى الرغم من بقاء مقر المتمردين في آيا صوفيا، فإن القوة الظاهرية التي كانت تلتزم بالأوامر الصادرة من وزارة الحربية ستعرض للتسمم أيضاً. لم يكن المتمرّدون يتخذون موقفاً ضد المجلس، بل ضد عدد قليل من الأعضاء المعروفين في الاتحاد والترقي، مثل رئيس المجلس المستقيل أحمد رضا بك، وطلعت بك، ورحمي بك، وجاويد بك، وجاهد بك... وقد هرب هؤلاء جميعاً واختفوا. لكن تم العلم بأنه تم إطلاق النار على وزير العدل ظناً أنه أحمد رضا بك، وكذلك على نائب أمام مجلس النواب ظناً أنه جاهد بك.

وقد اتضحت الأمور في آخر الأخبار التي وصلت إلى نيشان طاشي؛ فقد ذهب حسين حلمي باشا من الباب العالي إلى قصر يلدز وقدم استقالته، وتم



تكليف توفيق باشا -الذي كان وزير الخارجية حتى إقالة كامل باشا وعيّن حديثاً سفيراً في لندن، ولكنه لم يغادر بعد- بتشكيل الحكومة الجديدة. وقد أرسل السلطان عبد الحميد شيخ الإسلام وكبير كتّابه إلى مجلس المبعوثان لتهدئة الجنود المنتظرين هناك وهم يعانقون النواب.

عندها قالت السيدة نعمت:

_ اذهب الآن إلى المجلس. لكن اجلس بهدوء، ولا تقم بأي استعراض. ولا تقل شيئاً ضد الاتحاديين. عندك فرصة مناسبة لتوضح أنك قطعت علاقتك مع الجمعية منذ زمن، وأن موقفك بعد وفاة حسن فهمي يجب أن يكون واضحاً للجميع.

عاد شفيق بعد أن حلّ الظلام، وأبلغ أنه بالرغم من أن حكومة توفيق باشا لم تُشكّل رسمياً بعد ولم يتم حفل تعيينه في الصدارة، فإن المشير العجوز أدهم باشا، قائد حرب اليونان والذي عُيّن وزيراً للحربية، قد وصل إلى ميدان آيا صوفيا وتمكن من إعادة جميع الجنود المتمردين إلى ثكناتهم بعد سماعهم خبر العفو عنهم من قبل السلطان. كما أخبر أن النواب قد عادوا الآن إلى منازلهم بأمان، وأنه من المناسب الاعتقاد بأن عاصفة الثورة قد هدأت دون إحداث كثير من الدمار.

هزت نعمت كتفيها. وعليه فإن المجلس، كما تمنى ونصح السلطان عبد الحميد في خطابه الافتتاحي، سيكون بمثابة مجلس يصوغ خطباً "جديرة بموافقة الأعيان" ولن يتدخل في الأمور الكبيرة أو الحساسة، بل سيكون أشبه بمجلس دولة استشاري. وفي أحد مقاعد هذا المجلس، سيجلس شفيق بصمت، يرفع يده ويخفضها بناءً على الأوامر التي يتلقاها، وسيظل يغدو ويروح شاكراً عدم نفيه لأنه ابتعد عن حزب الاتحاد والترقي بفضل



إيعازات زوجته. أما نعمت، فستغلبها النعاس من شدة الملل إذا ما استمعت إلى جلسات مثل هذا المجلس بتفاصيلها.

كانوا على المائدة، وشفيق، الذي لم تعدد معدته بعد على اعتبار تناول الطعام الجيد أمرًا طبيعيًا، كان يتذوق ما أعدّه كبير الطهاة بشهية شخص لم يأكل منذ عشر ساعات على الأقل، بينما نعمت كانت تفكر في رتابة وحماسة الحياة التي ستقضيها معه بعد الآن. لم يبقَ في ذهنها أي شيء في الصباح من السعادة التي يمنحها إياها لبضع ساعات من الليل. هذا الرجل، يومًا بعد يوم، سيفقد أهميته ويصبح مجرد زوج مقيم، زوج مقيم يشعر بالعار من ذكر عائلته أو حتى الإشارة إلى اسمه. سيأتي في المساء بصمت، يرتدي حذاءه المنزلي ويجلس دون أن ينبس ببنت شفة، ولن يجرؤ على النظر لأي امرأة أخرى بعين ماثلة، بل ولن تخطر له هذه الفكرة، وبذلك سيصبح حبه لها سببًا للملل حتمًا في وقت قريب. تذكرت نعمت فجأة طلعت بك. ترى أين هرب؟ ربما عندما يُقبض عليه سيتمزق، أو ربما ستصدر المحكمة حكم ضده، وإن تمكن من الهرب ووصل إلى خارج الحدود، فهل ستكون تجربة الخوف والأمل والإثارة في أن تكون زوجة لهذا الرجل الذي قد يخوض نضالًا جديدًا من أجل الثورة، أجمل من ذلك؟

كانت نعمت تنظر إلى زوجها بنظرة عدائية تقريبًا. وتفكر قائلة:

— كيف يمكنني أن أفكر أنه قد حسن من طريقة تناوله للطعام؟ إنه لا يزال غير قادر على استخدام السكين بشكل صحيح أو إمساك الشوكة.



الفصل الواحد وأربعون

في تلك الأثناء، كان الحظ قد ابتسم لشفيق، حيث تم تخصيص منصب وزاري له في التشكيل الوزاري الجديد، وكان هذا المنصب من بين المناصب الأكثر أهمية. كانوا قد انتهوا للتو من تناول العشاء في ساعة متأخرة حينما وصل أحد مبعوثي الباب العالي إلى القصر. (منذ أن استبعد الصدر الأعظم سعيد باشا محمد شهاب الدين باشا من الوزارة، لم يزر مبعوث من الباب العالي هذا القصر منذ شهور). وأبلغ هذا المبعوث شفيق بك بأن الصدر الأعظم الجديد، توفيق باشا، يطلب حضوره فوراً إلى قصره في «آياز باشا» لمقابلته. وقد استقبل شفيق بك المبعوث عند بداية الدرج في جناح الرجال، ثم توجه إلى زوجته شاحب الوجه ليخبرها بما حدث وقال: "ماذا تظنين قد يكون السبب في دعوة الباشا لي؟"

فضلت السيدة نعمة البقاء هادئة، متجنباً التعليق بالأمل حتى لا تصاب بخيبة أمل كما حدث عند مسألة منصب مانياس زاده، لذلك لم تذكر الاحتمال الذي خطر على بالها، وقالت:

— ستصل إلى آياز باشا خلال عشر دقائق بالعربة. وستعرف السبب عند وصولك، وعندما تعود، أخبرني بما حدث. وإن تأخرت كثيراً لن أنام وسأبقى بانتظارك.

وفجأة ملأ الأمل صوتها بالحنان.

أما سبب النداء فكان كالتالي: قبل ثلاثة عشر عاماً، عاد توفيق باشا



من سفارة برلين ليتولى منصب وزير الخارجية، ومنذ ذلك الحين لم يغادر البلاد. لكن، على الرغم من ذلك، ظل توفيق باشا كما كان خلال السنوات التي قضاها في أوروبا، منذ عمله في السكرتارية الدبلوماسية وحتى وصوله إلى منصب السفير، أي بقي في حالة من الجهل التام بشأن أوضاع البلاد وشعبها. خاصةً أنه بعد الثورة، ظهر أفراد جدد ذوو أسماء معروفة وشخصيات بارزة، ولم يكن يعرف أيًا منهم. ولأن توفيق باشا كان يخشى أن يبدو مجلس وزرائه كمجموعة من الرجعيين، وكان السلطان نفسه لا يريد ذلك، قرر توفيق باشا أن يضم أحد الأشخاص الذين، رغم أنهم كانوا من أعضاء حزب الاتحاد والترقي ودخلوا مجلس النواب باسمه، إلا أنهم انتقدوا تطرف رفقاتهم وانفصلوا عنهم مؤخرًا. ولأنه لم يستطع تذكر اسم مناسب، اضطر للاستعانة بإسماعيل كمال بك، نائب بيرات، الذي كان يتمتع بمعرفة ورأي يُحتكم إليه، وكان يُعتبر من أبرز وجوه مجموعة النواب المستقلين، بالإضافة إلى مجموعة الأحرار في مجلس النواب.

إسماعيل كمال بك، هو ابن عم الصدر الأعظم الألباني السابق، فريد باشا، الذي شغل هذا المنصب حتى اليوم السابق للعاشر من يوليو. وقد وصل إلى رتبة والي، ثم أمضى عدة سنوات بين المنفيين في أوروبا حتى عودة الدستور. وبعد ذلك، ذهب أولاً إلى مسقط رأسه ألبانيا حيث استُقبل هناك استقبال الملوك تقريبًا، وانتُخب نائبًا، ثم جاء إلى إسطنبول. خلال إقامته في أوروبا، اتُهم بأنه كان يسعى لضمان استقلالية ألبانيا أكثر من السعي لإعادة الدستور، كما أظهرت معارضته لحزب الاتحاد والترقي في مجلس النواب، والتي كانت تُعزى إلى قناعته بأن السياسة المركزية المتطرفة التي يتبعها الحزب لن تسمح بأي حال من الأحوال بمنح ألبانيا استقلالًا ذاتيًا. بل وحتى كان يُقال إن إسماعيل كمال بك مستعد لقبول أي دعم أجنبي - وربما



حتى لتحقيق استقلال ألبانيا يومًا ما أو لمصالحه الشخصية - وأنه لم يرفض هذا الدعم حين عُرض عليه.

ولكن أيًا كانت نسبة الحقيقة في هذه الأقوال، فقد هرع إسماعيل كمال بك إلى قصر يلدز فور اندلاع تمرد الحادي والثلاثين من مارس، وقدم أفكارًا منطقية لاستعادة الأمن العام في أسرع وقت ممكن. ورغم رفضه قبول منصب وزاري، إلا أنه أبدى استعداداته لتقديم النصيحة لتوفيق باشا، الذي كان يبدو سعيدًا بتوليته رئاسة الوزراء لكنه محتار بشأن كيفية تهدئة الأوضاع وحتى بشأن كيفية تشكيل الحكومة. وقد أوصى إسماعيل كمال بك بتولي شفيق بك الذي كان ينتمي إلى جمعية الاتحاد والترقي، إلا أنه كان مستاءً منها وابتعد عنها، لمنصب وزاري وأوصى به دون تردد. وعندما وجد توفيق باشا أن هذا الترشيح مناسب، أرسل في الساعات الأولى من الليل مبعوثًا إلى شفيق، وطلب منه الحضور إلى قصره في آياز باشا.

أما السبب الرئيسي والمهم الذي جعل هذا النائب الشاب يبدو مناسبًا ومرغوبًا لدى رئيس الوزراء الجديد، فهو كونه صهر محمد شهاب الدين باشا. فهذا الوزير الكبير الذي كان أحد وزراء السلطان عبد العزيز، وجلس مع توفيق باشا لسنوات طويلة على طاولة واحدة، وتوفي منذ فترة وجيزة وهو في مجلس الأعيان، لم يكن ليزوج ابنته الوحيدة لشخص سيئ أو غير مناسب. وبينما استدعاه، كان توفيق باشا قد قبل بشكل أساسي تعيين شفيق بك وزيرًا، ولكنه لم يقرر بعد أي وزارة سيتولاها. وكان المنصب الوزاري الأهم الذي يتعين شغله هو وزارة الداخلية، وحيث أن هذا المنصب كان يشغله الصدر الأعظم السابق نفسه، فقد كان من غير الممكن إبقاء الشخص ذاته في هذا المنصب لحل المسألة. وبين أعضاء الحكومة السابقة كان هناك بالفعل أشخاص ذوو خبرة مثل حسن فهمي باشا، ممن



عملوا ولاة، ولكنهم كانوا مسنين إلى درجة لا تمكنهم من تحمل مثل هذه المسؤولية الثقيلة.

ثم اقتنع توفيق باشا بعد أن تحدث قليلاً مع شفيق بأن هذا الشاب يتمتع بشخصية حازمة، ولفت انتباهه إلى أنه يتحدث بشكل جيد للغاية، على الرغم من أن لهجته تميل قليلاً إلى لهجة منطقة أدرنة في روملي. وعليه، قرر أن بإمكانه أن ينجح في منصب وزير الداخلية بشكل جيد، وأخبره أن وزارة الداخلية شاغرة في حكومته وأنه سيسعد جداً إذا قبل هذا المنصب.

وبعد أن كان شفيق شبه يائس، بسبب عدم قدرته على فهم ما ستؤول إليه الكلمات الغامضة التي قيلت حول الوضع، فخفق قلبه بشدة عند سماع ذلك. وتخيل الفرح الذي ستشعر به نعمت لكونها زوجة وزير، ليس وزيراً عادياً، بل وزير الداخلية؛ السياسي الأهم في الحكومة. وفكر في السعادة التي سي جلبها لها، ونظر إلى وجه الصدر الأعظم، الذي كان طويلاً قليلاً وله لحية مدببة مائلة إلى البياض، وقد شعر بقلبه يلين، ووعد أن يعمل بكل قوته ليكون جديراً بالشرف الذي مُنح له والثقة والمحبة التي أبدأها له. ولم ينس أن يضيف: "سأكون دائماً منتظراً ومحتاجاً لإرشادات جلالتكم الحكيمة."

وبسبب السعادة العارمة التي كان فيها شفيق لم يخطر على باله أن يطرح على الصدر الأعظم سؤال مثل: "من هم أعضاء الحكومة الآخرين؟ مع من سأعمل؟"، ومع تراجع أفكار المشروطة أمام الهجوم الذي دعمته البنادق والذي دافع عن الشريعة، واستعداد توفيق باشا لتولي منصب الصدر الأعظم بعد رفضه لمنصب وزير، كان طموحه أن يكون رئيس حكومة مشروطة أكثر نزاهة من أسلافه الذين كانوا في السلطة منذ العاشر من يوليو، وهم سعيد كامل وحسين حلمي باشا. وبعد أن قدم شفيق الشكر



العميق على بشرى دخوله الحكومة، دون أن يطرح أي شروط أو أسئلة، وضمان أنه سيظل دائماً في انتظار إرشادات جلالته، قدم له توفيق باشا قائمة بأسماء من سيعمل معهم في الحكومة. وقبل أن يسلمها، كتب توفيق باشا بخط يده المرتجف اسم شفيق بك من مجلس المبعوثان في المكان الفارغ الموجود بجانب كلمة "وزير الداخلية".

هذه الورقة كانت تشكل الوثيقة الأولى والحاسمة لانتقال شفيق إلى المنصب الحكومي، وقد أثرت تأثيراً كبيراً على الشاب فجأة. بعد أن قرأ الأسماء المذكورة واحداً تلو الآخر في هذا المكان الذي سيشغله، والتي كانت مكتوبة بجانب اسم الوزارة، ونظر مرة أخرى إلى اسمه الذي كُتب قبل لحظة باسم الوزارة، ورفع رأسه وقال بأسلوب محترم لكنه يطلب تفسيراً بشكل شبه علني:

— لا أعلم من هو حجي أمين باشا الذي تم تعيينه لوزارة البحرية.

كان الصدر الأعظم الجديد يعتقد أن هذه الأسماء ستُقرأ بتقدير وبدون أي تحفظ، لكن عندما لم يتم تقديم معلومات عن أحد الأسماء، أصبح من شبه المؤكد أنه كان مضطراً لإقناعهم به، فهل انفعَل؟ بما أنه كان دبلوماسياً قديماً، والدبلوماسيون عادةً ما يخفون مشاعرهم، فإنه لم يظهر أي شيء. ومع ذلك، كان من الواضح أنه لم يتذكر ما قاله أولئك الذين اقترحوه، هذا الشخص الذي لا يعرفه وكان على ما يبدو يشغل منصب رئيس التوريدات في وزارة البحرية، وهو باشا غير مهم بالنسبة له.

فقال بنبرة توحى برغبته في عدم إطالة الحديث حول هذا الموضوع:

حتى يتم تعيين شخص لهذا المنصب، تم التأكد من أن الشخص القادر على أداء هذه المهمة موجود. ثم أعطى بعض التعليمات: كان يجب على



شفيق البدء فوراً في أداء مهام وزارة الداخلية. فقد نجح وزير الحربية في إعادة الجنود إلى الثكنات العسكرية في آيا صوفيا، وقد أنهى فعلياً تجمع الجنود. بعد ذلك، كان من الضروري اتخاذ تدابير حاسمة وفعالة لضمان عدم حدوث اضطرابات في النظام العام سواء في إسطنبول أو في الأقاليم، وخاصة في ولاية أضنة، حيث كان العنف قد بدأ بين الأتراك والأرمن، وكان من الواجب القضاء عليه دون أن يتسع ويمتد إلى التدخل الأجنبي.

بينما كان يتحدث داخل الغرفة، كان توفيق باشا، الذي لا يمتلك أسلوباً قوياً مثل كامل باشا، لكنه يملك صوتاً مناسباً وقدرة على التأثير، يتحدث بلغة مرتبة وجميلة، ويقتصر على النقاط الرئيسية في أي موضوع، دون إضاعة الوقت في الحديث الفارغ، على عكس سعيد باشا الذي كان يطيل الكلام دون فائدة.

عاد شفيق بك من عند توفيق باشا، في قصر آياز باشا، واحتضن زوجته بشغفٍ شديد، ليخبرها بفرحة أنه قد تم اتخاذ قرار تعيينه وزيراً للداخلية. ثم انحنى وأخذ يقبل يدها بتقدير واحترام. كان قد وصل إلى هذا المنصب بفضل التزامه بنصائحها، وكذلك بسبب انفصاله عن الاتحاد والترقي في الوقت المناسب.

ثم قدم شفيق بيه شرحاً مفصلاً عن الوضع. وكان من المقرر أن يتم الإعلان عن الحكومة الجديدة في موكب الصدارة غداً، لكن الوضع كان جاداً للغاية، خاصة مع وقوع اشتباكات دموية بين الأتراك والأرمن في مناطق أضنة. وبناءً على ذلك، كان يجب عليه بدء العمل الفعلي من تلك اللحظة. فقريباً، سيصل إلى الباب العالي البرقيات وبعض الرسائل، من المحتمل أن عليه أن لا ينام حتى الصباح.



الفصل الاثنان والأربعون

فور تلقيها خبر تعيين زوجها في وزارة الداخلية، شعرت نعمت هانم بوجود إحساس بالثقة والوقار ينتشر فيها، وكأنها كانت قادرة على لمس رؤيته بشكل ملموس. كان هذا الشعور، قد اختفى عندما أعاد سعيد باشا تشكيل حكومته، فاستغنى عن والدها وآخرين، وترك مكانه فراغاً كبيراً. بالإضافة إلى ذلك، بغض النظر عن التفاخر والمظاهر التي كان يتمتع بها الوزراء القدماء، فإن وزارة الداخلية لا يمكن مقارنتها من حيث الأهمية بمجلس الوزراء أو حتى بوزارة الأوقاف. ربما كانت أكثر أهمية من وزارة المالية أيضاً. سيكون هناك حراس لا ينامون طوال الليل في جناح الرجال، وستأتي الأخبار من جميع أنحاء البلاد حتى الصباح، وستصدر الأوامر والأخبار التي ستعزز النظام والأمن من هنا. وعندما جاء أحد الحراس ليخبرها بأن البرقيات الأولى قد وصلت من باب العالي، شعرت نعمت براحة وسعادة، فقبلت جبين زوجها قبل أن تذهب للنوم.

وبناء على ما قاله شفيق بأنه سيظل حتى الصباح في غرفة المكتب منشغلاً بالبرقيات التي ستأتي له، ستنام نعمت لأول مرة منذ زواجها دون أن ينقطع نومها بسبب الأمان التي كانت تراود جسد زوجها الشاب الذي لم يتعب بعد. بالطبع، لم تكن تتوقع أن تشكو من ذلك في تلك الليلة الأولى.

وفي اليوم التالي، عاد وزير الداخلية الجديد شفيق بك من الباب العالي إلى القصر، ودخل إلى المقام الذي تركه محمد شهاب الدين باشا والذي لم يُسلم له بعد، وهو مقام صاحب القصر والحاكم عليه. وقبل تهاني الجميع



من حماته عزة هانم إلى الخادم الأصغر والأكثر شباباً. ولم يُعتبر من المناسب إقامة حفل التهنئة قبل أن يُقام العرض الرسمي للسلطة الحكومية ويُعلن عنها مجلس الوزراء. وبعد إقامة الحفل، كان قد تخلص شفيق من اللقب الذي كان قد التصق به، والذي كان يُطلق عليه "المشؤوم"، بسبب دخوله في الأسرة كصهر وبعدها بقليل توفي شهاب الدين باشا؛ فهو بذلك تخلص منه ومزقه في جناح النساء وجناح الرجال.



الفصل الثالث والأربعون

ها وقد استنشقوا بضعة أيام من الهواء نقي والسعيد، ليس فقط أهل قصر محمد شهاب الدين باشا في نيشان طاشي، لقد عاد الهدوء إلى إسطنبول، وكانت الدماء القليلة التي سُفكت بمثابة صدقة صغيرة يمكن قبولها كقربان لهذه الثورة. أما رائحة الدماء المتدفقة بغزارة في أضنة فلم تصل إلى العاصمة. وكان مجلس المبعوثان راضياً عن الوضع طالما أن السلطان لن يمسهم. ذلك المجلس، الذي لم يعقد كثير من الحداد على النائب الذي شُبه بجاهد بك ودفع ثمن ذلك بحياته، كونه ينتمي إلى دين غريب غير معروف يُدعى الدرزية، وكان يشعر تقريباً بالسعادة لهروب بعض أعضائه، بمن فيهم الرئيس. لقد تحطت كرامة هؤلاء الرجال وغرورهم حدود التحمل. أما النواب الذين اقتنعوا بسرعة أن السلطان عبد الحميد لن يعيد ما حدث في عام ٩٣، وبالتالي لن يحل المجلس، فقد وافقوا على أن ما حدث في الحادي والثلاثين من مارس لم يكن ضد المشروطة، بل كان انقلاب مشروع ضد مجموعة تجاوزت الحدود حقاً واستهانت بالمقدسات، ولم يترددوا في الإعلان عن هذا الرأي في بيان نشره على مستوى البلاد.

من الطبيعي أن يكون وزير الداخلية الجديد شفيق بك من بين أولئك الذين كانوا سعداء للغاية من الوضع الحالي، ولم يحزن أبداً على ما أصاب رفاقه السابقين في النهاية. كان هو الرجل الوحيد الذي لم يهرب من إسطنبول بين الجموع التي قدمت من سالونيك في الأيام الأولى لثورة العاشر من يوليو. لم يهرب، بل وصل إلى أحد أهم المناصب في الدولة في



إسطنبول. وكان واثقاً من بقاءه في هذا المنصب لفترة طويلة. لقد انتهى عهد تضحيات الوزراء من أجل أهواء وملذات الاتحاد والترقي. وقد أعجب كثيراً بذكاء ووقار وجدية الصدر الأعظم الجديد توفيق باشا، الذي رأى فيه شخصاً يقدر له منصباً مهماً كوزارة الداخلية، والذي قال له في أثناء منحه التعليمات الأولى:

— "سيكون مبدؤك الوحيد هو جعل القانون سائداً في كل مكان". وسعد للغاية عندما قال له "لقد تلقيت من سمو مولانا الأمر والبشرى بأن بقاء المشروطية هو أسمى الأمانى الملكية". ومنذ ذلك الحين، لم يلاحظ أي شيء يعكر عليه فرحته، وقد مرّت بضعة أيام على ذلك.

كان شفيق يعلم أن جداراً أبدياً قد ارتفع بينه وبين الاتحاد والترقي، ولم يكن يشعر بأي قلق حيال هذا. فقد أنهى الاتحاد والترقي وجوده بنفسه بسبب أخطائه. ولم يكن يفكر أبداً في حماية أنقاض ذلك البناء المنهار. حتى لو كان من الممكن رأب الصدع الذي أحدثه دم الصحفي البسيط المسكين حسن فهمي بينهم، فلم يكن ليرى أي ضرورة لذلك. لن يتبع سياسة انتقام عنيفة فحسب، بل لن يُسيء أو يسمح بالإساءة إلى الاتحاديين القدامى الذين لم يتورطوا في أعمال الضغط والترهيب التي قامت بها الجمعية، بل سيتركهم وشأنهم.



الفصل الرابع والأربعون

وفي الجناح المخصص لورثة العرش في قصر دولمة بهتشة، كان الأمير محمد رشاد أفندي، الذي بلغ الخامسة والستين من عمره بعد أن عاش هناك منذ ثلاثة وثلاثين عامًا، قد أرهقته الأمراض المتعددة، وقد خيم عليه اليأس العميق كأنه مصير حتمي. فلم يعد يرفع رأسه الذي يعتمر طاقية بيضاء عن صفحات صحيح البخاري والمصحف الشريف. ومن خلال الأخبار التي ينقلها رجاله من المدينة، والصحف التي لم يكن يقوى على قراءتها طويلاً، ولكن يلقي عليها نظرة سريعة، كان يدرك بمرارة كيف تغيرت حال أخيه الأكبر فجأة وما آل إليه وضعه على العرش، مما جعله يشعر بحزن لا ينتهي وكأنه قد بلغ التسعين من عمره. أما رجاله الذين كانوا قد امتلؤوا حيوية وفرحاً بعد العاشر من يوليو، وكانوا يتطلعون للأمل، متسائلين أي مناصب مهمة سيشغلونها في القصر الجديد عند تولي سيدهم العرش، وقد تمنوا لأنفسهم مناصب مثل "رئيس المابين"^(١)، و"ثاني المابين"، و"وزير الخزانة الخاصة"، فقد بدأوا يظهرن الحزن والجدية، بل ولم يعدوا يخفون استياءهم.

هذا الأمير المتعب والمريض، الذي بلغ سنًا لم يبلغه أحد من آل عثمان دون أن يصعد للعرش، كان يشعر بالإهمال حتى في حريمه البائس. أما زوجاته الأربع، اللاتي تخلين عن أحلامهن في أن يصبحن من نساء القصر

١- ما بين (وتعرف أيضا بـ المابين الهمايوني) يشير إلى القسم الواقع في القصر السلطاني ما بين جناح الحريم وما بين الدوائر الخارجية. وهو المكان الذي كان يقضي السلطان فيه وقته، إن لم يخرج من القصر. ويسمى العامل في دائرة المابين «ما بين جي».



الرئيسيات، فبدأت، كما بدا له، تظهر عليهن علامات الاحتقار له علناً، حتى إنهن لم يعدن يحاولن إخفاء ذلك. حتى إن هذه الزوجات الأربع، اللواتي لم ينلن اهتمامه منذ زمن طويل إلا آخرهن فقط مع المحظية المفضلة، قد بدأت يدركن بمرارة مدى يأس وضعه، رغم بساطتهن وجهلهن. فكيف شعرن بذلك؟ ومن أخبرهن؟ ربما كانت "قمرس هانم"، الأذكي بينهن والتي كانت تتميز بشعرها الأشقر الفاتح وعينيها الزرقاوين مثل الخنزف وجسدها الممتلئ الذي يشبهه قليلاً، هي التي علمت بذلك وأخبرت بقية الزوجات. ومن المحتمل أن الأمير محمد ضياء الدين أفندي، الابن الأكبر من أولاده الثلاثة، لولي العهد والذي أنجبته قمرس هانم، هو من نقل لها الأخبار عن حالة والده.

والمعاناة الحقيقية للأمير رشاد أفندي لم تكن بسبب انعدام الفرصة في صعوده إلى العرش بعد سقوط أخيه، بل لأن احتمالاته في الوصول إلى العرش كانت قد تلاشت تماماً. كان يشعر نفسه أكبر سنّاً بكثير من شقيقه، وكان مقتنعاً بأنه إذا كان سيبقى على العرش، فلن يكون إلا جثة ملك، إذ لم يكن يعتقد أنه سيعيش بما يكفي ليصبح سلطاناً. كان يخشى أن يمضي ما تبقى من حياته دون أن يتمكن حتى من أن يصبح ولي العهد، وكان يتلوى من الألم بسبب هذا الخوف. وعلى الرغم من أن الشائعات التي انتشرت خلال فترة أيام الاتحاد والترقي، والتي تحدثت عن عزل السلطان عبد الحميد وتخلي الأمير رشاد عن ولاية العهد لصالح ابن عمه عبد العزيز، يوسف عز الدين أفندي، قد اختفت تقريباً فالأمر لم يكن قد انتهى تماماً. كان السلطان عبد الحميد، الذي كان يخطط منذ سنوات لتحقيق رغبته التي كانت تُداول في كل مكان، وهو تغيير نظام الوراثة لصالح ابنه المحبوب بورهان الدين أفندي، في حال سعى إلى تنفيذ هذه الرغبة، فمن سيقف في



وجهه؟ من سيحمي أولئك الأمراء، الذين يعيشون في قصرهم في ضعف، وكثير منهم يعانون من الأزمات المالية؟ وكان اسم بورهان الدين قد بدأ يظهر في الصحف، حيث كانت تصريحاته حول دعمه للجيش كحامي له.

منذ عدة أيام، كان ولي العهد يراجع سلوكياته خلال فترة التسعة أشهر من إعلان الحرية، محاولاً تقييم تصرفاته من الصباح حتى المساء. كان يقوم بتحليل الحركات التي قد تثير غضب شقيقه، محاولاً تحديد ما إذا كانت هذه الأفعال قد أثارت غضباً يمكن نسيانه أو أنها من النوع الذي لا يمكن نسيانه. على الرغم من أنه لم يتبع نصائح بعض رجاله في إصدار تصريحات صحفية أو التحدث عن حياته نصف السجنية التي عاشها لمدة ثلاث وثلاثين سنة، فقد تصرف بحذر، وعندما ذهب إلى قصر يلدز بعد إعلان الحرية، لم يُقصر في إظهار الاحترام لشقيقه. لكن، كيف يمكن تفسير تصرفه عندما سمح لصورته أن تُعرض في واجهة محل مصوّر في باي أوغلو؟ هذه الصورة، التي التقطها المصوّر في غرفة أمامه، سُمح لها بالتواجد في الواجهة الزجاجية للمحل، مما أتاح الفرصة للصحف والمجلات لنشرها.

ماذا كان ليفوز من إظهار شيب رأسه وشاربه الأبيضين، ووجهه المسن المترهل للجُمهور؟

خاصة عندما قيل إنه انضم إلى القول أغاسي نيازي أفندي الذي بدأ حركة التمرد بعد فراره إلى جبال رسنه، وتجوّل معه في الجبال بعد إعلان الحرية، ثم دخلوا معاً إلى مانستير لتلقي التهاني. عندما تم إحضار هذا "الغزال" إلى إسطنبول وعُرض لأغراض غير معروفة، لماذا ذهب مع أولاده الثلاثة، الذين كانوا جميعاً يرتدون الطواق المعوجة ويبدون جادين، وأحدهم كان سميناً بشكل مفرط، لمشاهدة هذا العرض؟ ولماذا سمح بنشر



خبر ذهابه في الصحف؟

بالرغم من أن رشاد أفندي كان يعتقد أن شقيقه سيتقبل كل هذا بتجاهل واحتقار لم يكن يهتم كثيراً بما فعله، لكنه كان يخشى من نتيجة أحد تصرفاته الجارحة. كانت هذه التصرفات المبالغ فيها تتضمن تصرفاً محدداً كان يثير قلقه. ففي الوقت الذي تم فيه استبعاده من حضور جلسات مجلس المبعوثان، شعر بالانفصال التام عن الجميع، وقبل نصائح رجاله، وخاصة أكثرهم ذكاءً، "نابت بك"، الذي كان يروج لمخططاته. وسمح بانتشار قصة عن رجل حاول التسلل إلى قصره ليلاً عبر البحر. كانت هذه القصة قد نشرت في الصحف، وتم إعدادها بشكل كامل مع تفاصيل دقيقة، حيث كانوا قد درسوا ما يجب أن يقوله له وأجبروه على حفظ هذه الكلمات لتكرارها أمام الصحفيين الذين تمت دعوتهم. وهكذا، بالرغم من أنه لم يعيش حياة حرة لمدة ثلاث وثلاثين سنة، كان قد اتهم شقيقه صراحةً بالقتل، مما كان قد زرع شكوكاً في الأذهان حول هذا الموضوع.

هل كان السلطان عبد الحميد، الذي كان قد استولى على كل قوته الآن، سيسامح في هذا الأمر؟ وبينما كان ينظر من النوافذ وسط الأثاث العتيق الذي مر عليه الزمن، ويراقب الأفق حيث يفصل بين أسكدار وكوزجونجوك، كان يشعر بتقدمه في السن وسط هذه الحرارة الشديدة في الصيف ورطوبة الشتاء، التي أضافت إلى همومه. وكان يتساءل إن كان سيُطرد من جناح ولي العهد، وإذا كان سيتحول إلى سجن دائم، يُسمح له فقط بالخروج بين الحين والآخر إلى مزرعة الشمع. كيف كان سيعيش في تلك الكوخين الصغيرين هناك؟

كان لديه أربع زوجات، وعشيقته، وثلاثة أبناء، وكان أكبرهم أعزب،



بينما كان الآخرون متزوجين، وكان له بنات من الزوجة الأولى، إضافة إلى العديد من الجواري والخدم. ومع هذا العدد الكبير من الناس من حوله، لم يكن لديه مجال للتحدث بحرية مع أبنائه، الذين كان يعرف أنهم بعيدون عن فهم معاناته. وفي الواقع، لم يكن ليقبل أن يكون بينهم أي نوع من العلاقة أو الود، لأنهم لم يكونوا ليفهموه أو يقدموا له العزاء المطلوب.

ولم يحظ أهل جناح الحريم بأي قدر من الحرية خلال الأشهر التسعة الماضية من فترة الحرية، ولو للحظة، في حين أن أبنائه كانوا قد استفادوا من الفرصة، وتحركوا هنا وهناك. فهل كان بإمكانهم الآن تحمل العودة إلى العزلة داخل جدران القصر؟ وكان السلطان حميد قد أعطى بعض الحرية للأمير صلاح الدين أفندي، الذي كان مسجوناً في قصر تشرآغان مع والده مراد الخامس لمدة ثمانية وعشرين عامًا، عندما توفي ذلك الحاكم سيئ الحظ الذي ظلت سلطته محل شك، حيث سمح له بالتجول في المدينة تحت المراقبة. وإذا نظرنا إلى حالة أبنائه محمد ضياء الدين ومحمود نجم الدين وعمر حلمي أفندي، والرعاية التي لم يقدمها السلطان حميد لهم والحرية القليلة التي منحها للأمراء الشباب الذين مات أبوهم وكانوا بعيدين عن صفوف العرش فمن أين لنا أن نعرف أنهم لم يفكروا قائلين "بما أنه لم ولن يكن سلطاناً أبداً، فيمكننا على الأقل أن ننجو بأنفسنا إذا مات" وما إذا كانوا سيفكرون في هذا من الآن فصاعداً.



الفصل الخامس والأربعون

تقدم الصدر الأعظم وأحد الأعيان ووزير الخارجية السابق وسفير الدولة العثمانية في لندن أحمد توفيق باشا بكل احترام وتواضع مستلهمًا من الانحناءات التي اعتاد عليها في البلاطات الغربية التي زارها لسنوات طويلة، رغم التزامه التام بتقاليد البلاط العثماني. وحيا السلطان تحياته المتكررة والمبجلة، وأراد أن يقبل ذيل رداء السلطان، ولكن لم يُسمح له بذلك، فراجع قليلًا وجلس على الكرسي المخصص له واضعًا يديه على صدره بوقار، منتظرًا الأمر ليقدم تقريرًا عن الوضع. حينها قال له السلطان عبد الحميد الثاني، بابتسامة لطيفة:

- ما الأخبار؟

فبدأ الصدر الأعظم بشرح الوضع قائلاً: "الوضع في إسطنبول أصبح طبيعيًا بالكامل، وتم إعادة الانضباط في الجيش الأول. وكان مجلس المبعوثان يتمتع بمظهر هادئ جدًا؛ وكانت المناقشات تسير في جو من الهدوء والرصانة. وقد أعدّ مجلس الوزراء برنامجًا قصيرًا للغاية. إذا نال هذا البرنامج موافقة السلطان، فسيقرّاه الصدر الأعظم على المجلس غدًا. ولم يكن لديه شك في أنه سيحصل على ثقة المجلس. أما في الأقاليم، فقد كانت الأوضاع الأمنية جيدة للغاية في كل مكان. حتى أضنة كان يصل منها أخبار جيدة. وأنهى توفيق باشا تصريحاته قائلاً إن الأمور عادت إلى طبيعتها في كل مكان بفضل العناية السامية".



كان السلطان حميد يستمتع باهتمام شديد لكلمات الصدر الأعظم الجديد، دون أن يقاطعه، ورأسه مائل قليلاً إلى الأمام. وعندما أنهى توفيق باشا حديثه، رفع السلطان رأسه ومد يده، وأخذ برنامج الحكومة المذكور وقرأه بتأن. ومع ذلك، كان البرنامج قصيراً لدرجة أنه انتهى منه بسرعة رغم قراءته المتأنية. ثم أعاد السلطان حميد الورقة بتعبير يوحي بأنه لم يمنحها أهمية كبيرة، قائلاً: "مناسب". وبعد أن أعاد الورقة له، بدأ يتحدث موجهاً كل تركيزه وقوة نظراته الزرقاء الداكنة العميقة نحو الشخص المقابل، وقال:

— لقد لخصتم الوضع منذ قليل بشكل مفصل وجميل للغاية. لا يوجد شيء يدعو للقلق في العاصمة أو في جميع أنحاء الأناضول ولايات الجزيرة العربية. إلا أن هناك اضطرابات عادت مرة أخرى في ثلاث ولايات من روملي. الهاربون من إسطنبول بشجاعة توجهوا إلى سالونيك، وأبطال الحرية الذين أرسلوا إلى برلين وفيينا وباريس بصفة ملحقين عسكريين، مثل أنور وحافظ حقي وفتح بك، قد غادروا مناصبهم متوجهين إلى نفس الجهة. سيقودون الجيش المتجه ضد إسطنبول، ليحققوا أمجاداً جديدة. أنا من رعت قائد الجيش الثالث، محمود شوكت باشا، ورفعته إلى المناصب العليا. أرسلته ليصبح حاكماً على ولاية مهمة مثل كوسوفو. ومن واجبه أن يهدئ الفتنة التي نشأت في سالونيك ومحيطها. لكن، أليس ما حدث في الأشهر الأخيرة كافياً لإثبات أن الثقة في ولاء الناس ووفائهم قد تكون أمراً لا يعتمد عليه؟ من المؤكد أن الاضطرابات بدأت في سالونيك ومانستير، بل حتى أن هذه الاضطرابات أصبحت ذات طابع منظم، حيث يتم التحضير لقوات هناك بغية الزحف على إسطنبول. ويقال إن هذه القوات تضم أفراداً من كل عرق، من المسيحيين واليهود على حد سواء. قد يشعر محمود



شوكت باشا بالخلجل من قيادة هذه القوات والزحف إلى إسطنبول ليصبح شبيهاً بالعلمدار مصطفى باشا، فيعارض العاصمة. ولكن، هل سيتمكن من منع تجمع هذه القوات وتقدمها بالكامل؟ حتى لو أراد ذلك، هل تكفي عزيمته وإرادته لتحقيق ذلك؟

بعد أن قال عبد الحميد كل هذه الكلمات بنبرة طبيعية وهادئة، مع خفة من السخرية أحياناً أو لمسة من التوبيخ، صمت ونظر إلى الصدر الأعظم بوجه مغمم بالدهشة، بينما كان يطرق بأصابعه الطويلة والنحيلة على الطاولة بجواره. كان ينظر إليه نظرة ملؤها التعجب وقال:

— خلال فترة توليك وزارة الخارجية لمدة ثلاثة عشر عامًا كنت تعلم بعض الأحداث السياسية مني، وتُصاب بالدهشة. لكن في ذلك الوقت، لم يكن الوضع بهذه الأهمية والخطورة، فقد كنت أسيطر على الأمور. عدم معرفتك حينها لم يكن يسبب ضرراً كبيراً أو أهمية قصوى. لكن الآن أيام خطيرة ومرعبة تقترب بشدة. إنك نائم، كما لا بد أنك فهمت بنفسك.

بالطبع لم يجزؤ توفيق باشا على طرح سؤال من نوع "من أين علمتم هذا؟ ومن أي مصدر حصلتكم على هذه المعلومات؟". بل كان يعلم، من خلال خبرته الطويلة، أن ما يقوله السلطان عبد الحميد كان في الغالب صحيحاً، وأنه لا يصدق إلا ما هو جدير بالتصديق، وأنه لم يكن مرتبطاً بتقارير سخيفة أو اغتيالات وهمية أخبر بها. لذلك، لم يشك في صحة ما قاله السلطان. وبناءً على ذلك، كان من الضروري تفريق القوات التي بدأت تتجمع في مانستير وسالونيك قبل أن تكتمل هذه التجمعات، أو على الأقل إيقافهم في بداية الطريق قبل أن يبدأوا التحرك. فإذا عبرت هذه القوات حدود ولاية سالونيك ودخلت أراضي ولاية أدرنة، وكان الجيش الأول



من إسطنبول قد أرسل ضدهم في ذلك الوقت، فقد تظهر بلغاريا التي لم يتم تأكيد استقلالها بعد بمطالب جديدة. وبالتالي، يمكن أن تكون هذه الفرصة قاتلة، حيث يمكن أن تجبر الدولة العثمانية على قبول مطالبها الرهيبة.

بعد أن فكّر توفيق باشا في كل هذه الأمور في لحظة، قرر قائلاً: "لو كان سعيد باشا في مكاني، لقدم استقالته فوراً بعد أن أصبحت الأمور بهذا الشكل الصعب، واعتزل للراحة" لكنه كان يعلم أنه لن يتصرف بهذه الطريقة، وأنه لن يترك منصبه. ولكن ماذا كان يجب أن يفعل حتى لا يأت جيش من روملي ضد إسطنبول، وحتى لا تفتح بلغاريا أبواب مشاكل جديدة للدولة؟ كان من الغريب بالنسبة للسلطان أن يكون وزير الداخلية شفيق بك، الذي كان ينتمي إلى جمعية وسبق له أن جاء من روملي، على علم بما كان يعرفه السلطان من وضع هناك.

لم يكن السلطان عبد الحميد يغير موقفه، بل ظل جالساً باحترام، وقد كشف كل ما كان يدور في ذهن الصدر الأعظم الذي لم يفتح فمه. بل فكر في شيء لم يخطر على باله بعد، شيء كان قد غاب عن ذهنه حتى الآن. كان توفيق باشا، الجالس أمامه بكل احترام، سعيداً للغاية بحصوله على هذا المنصب الذي كان يتمناه منذ سنوات عديدة، حتى أثناء فترة صدارة خليل رفعت باشا، كان سعيداً للغاية لأنه أخيراً وصل إلى هذا المنصب الرفيع. وفي هذا المنصب، لم يكن يعتقد أنه سيظل فيه طويلاً، لكنه كان يرى أنه إذا اضطر السلطان للتخلي عن العرش، فيإمكانه الحفاظ على منصبه. وكان من غير المحتمل أن ينظر إلى تغيير في السلطنة على أنه كارثة.

قال السلطان عبد الحميد الثاني:

_ وجهوا كل قوتكم وجهدكم لإقناع وتهدة أهل روملي. يجب أن



يقتنعوا بأنه لا يوجد رجعية وأن كل شيء قد أصبح في حالة طبيعية تماماً، ومتوافقاً تماماً مع الدستور. إن تجمع بعض القوات من تلك المناطق وبدء تحركها، ليس فقط لدخول العاصمة، بل حتى الاقتراب منها سيكون أمراً خطيراً. ما يسمّونه العاشر من يوليو، أي الإرادة التي دفعتني لإعادة الدستور إلى مكانه الصحيح، كانت بسبب الخوف من أن يؤدي ذلك إلى صراع كبير في روملي، ويثير اضطرابات هناك. أما الآن، فالأخطار التي كانت محتملة في ذلك الوقت أصبحت موجودة وبقوة، خاصة أننا في نزاع شديد مع بلغاريا. كما أن علاقتنا مع اليونان قد توترت. ووجدنا أنفسنا بين نارين. جيشنا، يا للأسف، قد تراجعت قوته بسبب التدخلات السياسية. رغم أننا نولي اهتماماً بالغاً للحفاظ على النظام في إسطنبول والمناطق، يجب أن تبقىوا على اتصال دائم مع مجلس المبعوثان. وأبلغوهم تحياتي. لقد قرأت بيانهم الذي نشره بكل سرور. دعهم يخاطبوا جميع أنحاء البلاد مرة أخرى، وليعلنوا أنه لا يوجد أي حركة رجعية في البلاد، وأن جميع واجبات الدستور قد تم الوفاء بها، وأنه إذا طالبوا بإلغاء تطبيق الدستور مرة أخرى، فلن أقبل بهذا الأمر، وأعلنوا ذلك باسم السلطنة.

استمع الصدر الأعظم إلى جميع هذه الكلمات باحترام، بل وكأنه يشعر بالراحة والاطمئنان، وأومأ برأسه موافقاً، وبعدما أكد على أن أوامر السلطان ستُنفذ كما هي، غادر بإذن من السلطان. لكن السلطان عبد الحميد، الذي كان قد عين هذا الرجل في المنصب مؤقتاً باعتباره شخصاً محايداً في ظل تقلبات الحادي الثلاثين مارس، كان يعلم جيداً أنه ليس الشخص الذي يمكنه اتخاذ قرارات حاسمة وتحركات حاسمة في هذه الأوقات العصيبة. وقد سقط في أفكار عميقة مرة أخرى، وهو يحرق خلفه في تعب وعجز ويأس لا نهاية له. وكان كان قد غرق في هذا الشعور العميق



من اليأس والإرهاق عندما أرسل عزت باشا العربي إلى لجنة الوزراء الذين كانوا قد اجتمعوا لمدة ستة وثلاثين ساعة، والذين كانوا قد أصبحوا في حالة من الإحباط الشديد، ليلغهم عن قراره بإعادة الدستور. لكن في ذلك الوقت، كان لا يزال لديه العديد من الرجال، وعلى رأسهم عزت باشا العربي، وكانوا جميعًا موجودين، بينما كانت إسطنبول وبقية الإمبراطورية في حالة من السكون، باستثناء ثلاث ولايات في روملي. لكن الآن، بدأت بذور الفوضى والنزاع تنمو في كل مكان، وكان يشعر بتعب شديد نتيجة لتسعة أشهر من التوتر والمشاكل. لكن في الحقيقة، ألم يكن قد اقترب من السبعين عامًا؟

كان يشعر بالحزن لأنه لم يستغل الفرصة التي ظهرت له في يوم الحادي والثلاثين من مارس، وهي الفرصة التي كانت ستجعل الاتحاد والترقي مدينين له حتى النهاية. كان قائد الجيش الأول في انتظار الأوامر لسحق الثوار في ساحة آيا صوفيا، بينما كان وزير الحرب علي رضا باشا، الذي اختبأ في الباب العالي ولم يجرؤ حتى على الذهاب إلى مكتبه، يتردد ويتأمل في إصدار هذا الأمر. وتساءل عن السبب في عدم ظهور السلطان بنفسه لإصدار هذا الأمر، ولماذا لم يقم هو، بصفته الحاكم الأعلى، بقمع هذه الانتفاضة؟ إذا نجحت حركة الحادي والثلاثين من مارس، ألن يحقق نفوذه وقوته التي كان يأمل فيها بشكل أكثر تأكيدًا وقوة، بل وأيضًا بصفته سلطانًا مؤيدًا للدستور؟

كان يشعر بسعادة خفية وهو يشاهد تراجع وتدهور الاتحاد والترقي، التي كان يشعر بأنها ستزداد في قوتها وتصرفاتها الجنوبية، وكان يفرح بفشلهم دون أن يستطيع إخفاء هذا الفرح تمامًا. لكنه كان يعلم أن الاتحاد والترقي سيأخذون ثأرهم منه قريبًا. ومع ذلك، كان من المشكوك فيه ما



إذا كان قمع حركة الحادي والثلاثين من مارس سيسعد الاتحاد والترقي. ومن الممكن أن يكون الهدف من هذه الحركة هو أن يتولى الاتحاد والترقي القوة بالكامل، وربما التخلص منه في هذه الأثناء، وكان من غير المستبعد أن تكون هذه الحركة قد نفذها أعضاء في الجمعية، أو على الأقل أفراد منتمون إليها.

ألم يكن من الغريب أن الجمعية قد جلبت بشكل خاص من مناطق روملي من أجل الحفاظ على وجودها والدستور معاً، وأن الوحدات الخاصة التي كان تحتفظ بها ضد كامل باشا قد ساهمت بشكل غير مباشر في تحريض التمرد؟

نهض السلطان عبد الحميد من مكانه، في محاولة لنسيان كل شيء، بحثاً عن سعادة في نسيان كل همومه، وفي حالة من الهم والحزن، توجه إلى مكان الحمام، حيث كان يشاهد الحمام ويتأمل في شكلها وحركاتها، متمنياً أن يجد بعض الراحة في هذا المنظر، ليخفف عن نفسه من الحزن والألم.



الفصل السادس والأربعون

لقد غيّر (مجلس المبعوثان) موقفه بسرعة كبيرة. فبينما كان يتقدّم على الحكومة في اعتبار حركة الحادي والثلاثين من مارس احتجاجًا مشروعًا ومقدّسًا وإعلان ذلك للأمة، وصلت أول برقية تعلن قرار السير نحو إسطنبول من يانيا، وهي بلدة قريبة من الحدود اليونانية، وبمجرد وصولها، استشعر الجميع أن الوضع قد يتطور. وكان هناك اعتقاد بأن هناك أخبارًا ستأتي قريبًا من مانستير وسالونيك، حيث ظهرت وتطوّرت جمعية "الاتحاد والترقي". عندما قرأ توفيق باشا بيانه القصير وقدمه كبرنامج وطلب من خلاله الثقة، قرر المجلس تأجيل منح الثقة ولم يعترف أبدًا بالوضع الذي نشأ في إسطنبول عقب أحداث الحادي والثلاثين من مارس، وكأنه اتخذ موقفًا يعارض هذا الوضع دائمًا. وفي غضون يومين أو ثلاثة، بدأت تصل أخبار من روملي بأن قوة مكوّنة من متطوعين من مختلف الأعراق تجمعت في سالونيك وتتحرك لقمع ومحاسبة الرجعيين في إسطنبول. ولم يتول قائد الجيش الثالث محمود شوكت باشا قيادة هذه القوات، بل تركها لمدير قوات الاحتياط في سالونيك، حسين حسني باشا. كان تصرفه هذا على الأرجح لتجنب الوقوع بين المسؤولين في حال تم دحر هذه القوات ومعاينة المسؤولين قبل اقترابها من إسطنبول. ومع تقدم هذه القوات ودخولها من ولاية سالونيك إلى حدود ولاية أدرنة واقترابها من تشاتالجا نحو إسطنبول، بدأت الأخبار تتوالى عن ترتيبات محمود شوكت باشا في سالونيك واستعداده للانطلاق لتولي القيادة. وباتت لهجة الصحف تتغير؛



فبعض الألقاب والكلمات الوضيعة التي لم تُستخدم منذ شهر يوليو عادت إلى الظهور، والسلطان عبد الحميد الثاني الذي لقبوه في اليوم التالي مباشرة ليوم الحادي والثلاثين من مارس بـ "ظل الله في الأرض"، وألقاب أخرى مثل "قائدنا العظيم" و "سيدنا" بدأت تختفي تدريجيًا، وبدأ اسم السلطان يكتب ببساطة شديدة بل أصبح يتبعه انتقادات حادة، تلك الانتقادات التي تطورت فيما بعد إلى إهانات متزايدة حدة.

وفي الوقت نفسه، كانت حكومة الباب العالي برئاسة توفيق باشا تواجه هجومًا من التلغرافات التي تفيد بأنها حكومة غير شرعية، وأنه ينبغي إعادة حسين حلمي باشا، الذي فرّ هاربًا أمام الجنود المتمردين، إلى السلطة. وقد دخلت البلاد بأسرها في سباق لإرسال تلك التلغرافات. حتى المناطق البعيدة، التي لا تملك كتيبة عسكرية أو تحتاج لأشهر لإرسال قواتها إلى إسطنبول، مثل شبه الجزيرة العربية والحجاز واليمن وأقصى زوايا طرابلس الغرب، كانت تعلن بلهجة حاسمة أنها سترسل قوات لمعاقبة من يحاولون المساس المشروطة. كما أُفيد أن الجيش القادم من سالونيك، والذي لم يكن معروفًا عدده بالضبط، بعد أن وصل إلى حي هادم كوي^(١)، قد دفع ببعض الأشخاص، ممن لم يعتبروا حادث الحادي والثلاثين من مارس حركة رجعية، ومن بينهم مالك وصاحب جريدة «إقدام»، إلى الفرار من إسطنبول على متن سفن ترفع أعلامًا أجنبية.

وفي ظل هذا لم يعد يصدر صوت من قصر يلدز أو مجلس الوزراء؛ فلم يعد هناك من يقول إن "الحادي والثلاثين من مارس لم تكن حركة ارتجاعية، والقوة التي كانت تتوجه إلى إسطنبول بزعم معاقبتها لن يُسمح لها بدخول

١ - هادم كوي هو أحد أحياء منطقة أرناؤوط كوي في إسطنبول.



العاصمة"، ولم تعد تُسمع أي كلمة بهذا الخصوص. أما (مجلس المبعوثان)، الذي كان قد أعلن قبل بضعة أيام لجميع أنحاء البلاد بأن أحداث ٣١ مارس كانت حركة مشروعة تمامًا، فقد بدأوا يتدفقون نحو آيا صوفيا، مسرعين لالتحاق بهذه القوة الجديدة التي تقترب، وكأنهم يحاولون الاندماج معها منذ الآن. أما سعيد باشا، الذي عينه السلطان حميد فور اعتقاله العرش بمنصب كبير الكتاب ليكون بمثابة مستشار له، والذي عُين صدرًا أعظم سبع مرات -والذي قيل إنه كان يذهب بنفسه عدة مرات يوميًا ليفتح ويغلق مخزن الطعام حيث يحتفظ بثلاث بيضات- قد التحق بهذه الجموع من النواب بعد أن ألقى نظرة مليئة بالمعاناة والقلق على هذا المخزن، ثم توجه بحذر إلى سان ستيفانو، ليحل ضيفًا على أحد موظفي السفارة البريطانية، كما لجأ إليه سابقًا. ولكن بما أن الأعيان والنواب الذين فروا من إسطنبول، التي أصبحت تحت سيطرة الرجعيين، ووجهوا وجوههم مجددًا نحو شمس الحرية المقدسة العائدة من سالونيك، لم يكن لديهم صديق بريطاني يقيمون معه في سان ستيفانو كما كان حال سعيد باشا، فقد اضطروا إلى تحمل مشقة النوم أربعة أو خمسة في منازل أصدقائهم، بالاضطلاع بدور "الفدائيين من أجل الحرية" في شوارع قرية صغيرة أصبحت تعج بالحياة فجأة.

وبموجب يمين الولاء الذي أعطي للسلطان حميد، ربما فكر توفيق باشا للحظة في توجيه هذه القوات إلى المكان الذي جاءت منه، لكنه كان الأرض انشقت وابتلعتة. أما أدهم باشا، الذي تم تهدئته بفضل احترام مستمد من لحيته البيضاء ولقب "غازي" الذي ناله من الشعب رغم أنه لم يُمنح له رسميًا، والذي كان قد اقترب من قبره بسبب ما مر بها، لم يكن رجلًا جريئًا إلى حد أنه سيتحمل مسؤولية حماية السلطان عبد الحميد بنفسه. ومع ذلك، كان هناك احتمال أنه يقبل هذه المهمة إذا طلبها منه السلطان حميد،



رغم علمه بأنه قد يسقط في منتصف الطريق. لكن السلطان عبد الحميد، بما أنه ليس له أي علاقة بحركة الحادي والثلاثين من مارس، كان يهدئ نفسه بالقول إن هذه القوات القادمة لن تلمسه، وكان يحاول أن يُظهر نفسه غير مبالي في هذا الدور المتفرج على القوات القادمة من أطراف البلاد لقمع القوات في العاصمة، دون أن يشعر أو يظهر أن هذا الدور لا يليق بالحاكم.

أما الشعب فكان على يقين بأن هذه القوات القادمة لإزالة السلطان من عرشه. ومع ذلك، كان هناك العديد ممن كانوا يعتقدون أن السلطان عبد الحميد سيدافع بشدة عن نفسه وعرشه، وأنه سيهزم قوة مقدونيا أمام إسطنبول هزيمة ساحقة، وأنه سيحمي عرشه وتاجه، حتى وإن دمر المدينة حوله، بالتعاون مع قوات الفرقة الثانية المحيطة بقصر يلدز. بدأ أهل الأحياء المحيطة بيلدز بالهروب إلى أحياء أخرى، خائفين من أن القصف الذي سيستهدف يلدز أو سيخرج منه سيؤدي إلى هلاكهم، فهاجروا إلى القرى من قاضي كوي إلى بنديك، وكذلك إلى الجزر.

أما نِعْمَت، التي كانت فخورة بأنها زوجة الوزير، فكانت تقلل من شأن أي خطر، ولم تكن تعتقد أن الأمور ستصل إلى شكل حرب أهلية. في حين كانت والدتها، عزة هانم، قد زارت قبل ثلاثة أيام منزل صافيناز هانم، زوجة موظف متقاعد في الجمارك، التي كانت صديقة قديمة من أيام عبودية عزة في ليباد بتشاملجا، وقالت لابنتها:

— اذهبي إلى القصر في روملي حصار فلن تصل الحرب إلى هناك.

إلا أن ابنتها لم توافق على اقتراحها وقبلت هذا الاقتراح بابتسامة توحى بأنه "لن يحدث شيئاً"، وعلى الرغم من أنها كانت تتصرف كما لو كانت ابنة مثالية فابتعاد والدتها عنها في لحظة الخطر لم يكن ليخلو من أثر على نعمت،



فقد كانت تشعر بالحزن لذلك.

فإسطنبول التي عزّت نفسها بالنميمة عن قسوة وظلم العديد من الإمبراطوريات لقرون وقرون، بل ودحضت تلك القسوة والظلم بثرثرتها، كانت الآن تنتقل بين شائعات جديدة أكثر حماسًا وفضولًا. فأصبح الجميع يتحدث عن أن السلطان عبد الحميد المعظم، كان قد غادر إسطنبول منذ فترة طويلة متجهًا إلى صديقه العزيز امبراطور ألمانيا في جزيرة كورفو، وأن الشخص الذي خرج لصلاة الجمعة الأخيرة لم يكن إلا شخصًا يشبهه إلى حد كبير، وكان يخرج عادة نيابةً عنه في مثل هذه المناسبات. وكانت هذه الأخبار تتردد على الألسن.



الفصل السابع والأربعون

اجتمع مجلس الوزراء مرة أخرى، وفي داخل هذا المجلس، الذي تشكّل من الشيوخ المتقدمين الذين بقوا من مجلس حسين حلمي باشا وأضيف إليهم بضعة أعضاء أكبر سنّاً من هؤلاء، جلس شفيق، أصغرهم سنّاً، بشعره وشاربه الخاليين من أي شعرة بيضاء، وبوجهه الذي لا تظهر عليه تجاعيد، وجسده المنتصب. كان يجلس بجانب وزير الخارجية رفعت باشا، الذي كان يحتفظ بلقب «الأكثر شباباً» في الحكومة السابقة، بات هذا اللقب كذكرى طويلة وغير قابلة للتصديق. بين هؤلاء الباشوات والأعيان، بدا شفيق وكأنه يجلس بغير استحقاق، كإهانة كبيرة لهم، مع أنه لا يحظى بمكانة فعلية. افتتح الصدر الأعظم توفيق باشا، الذي بدا دائماً مهيباً رغم اهتزاز رأسه باستمرار، المناقشات في المجلس الذي لم ينطق فيه أي عضو بكلمة، وعلى رأسهم شيخ الإسلام محمد ضياء الدين أفندي واثنان أو ثلاثة آخرون. وكعادته، لم يُطل الحديث، لكنه وضح النقاط الأساسية للمواضيع التي تناولها بدقته المعهودة، ثم ركز على الوضع في أضنة. فهناك، تم إخماد الصراع المتبادل بين الأتراك والأرمن تماماً، كما تم إحباط محاولة التمرد التي كانت على وشك الاندلاع في أروروم دون تحقيق أي نتائج، وساد الأمن والنظام في جميع أنحاء البلاد، وكان الوضع في إسطنبول هادئاً تماماً بالفعل. كل الأنظار كانت موجهة نحو جيش روملي الذي يسير باتجاه إسطنبول. هذه القوة القادمة أعلنت عزمها على دخول إسطنبول لمعاقبة المسؤولين، مصرة على أن التمرد العسكري في إسطنبول كان حركة ارتجاعية.



كان هذا الإصرار والعناد سبباً في إحداث بعض التغييرات في الوضع، حيث إن مجلس المبعوثان، الذي بدا وكأنه قد نسي رئيسه الذي أجبر على الهروب مع بعض الأعضاء، وأصدر بيانات مليئة بالشكر لله على هذا التحرك الذي سعوا منذ اليومين أو الثلاثة الأوائل إلى اعتباره حركة مشروعة بالكامل متقدمين بذلك على الحكومة، لم يعد مرتبطاً بالحكومة. كما أن مجلس الأعيان، الذي تم تعيين أعضائه من قبل السلطان، قد غادر أيضاً إلى سان ستيفانو. بدأ هذان المجلسان في الاجتماع هناك باعتبارهما المجلس الوطني، متوحدين في مصيرهم مع الجيش القادم من سالونيك تحت رئاسة سعيد باشا، كبير الكتاب الخاصين للسلطان عبد الحميد وصدرة الأعظم سبع مرات. ولمنع احتمال تعرض الجيش الموجود في إسطنبول لهجوم من الخلف من قبل البلغار إذا حدثت مواجهة بين قوات إسطنبول والقوات القادمة من سالونيك، فقد تم تسوية بعض المسائل العالقة مع البلغار بناءً على رغبة السلطان، وتم عرض الإجراءات النهائية للاعتراف بمملكة بلغاريا المستقلة على المجلس للموافقة عليها.

بعد أن ذكر توفيق باشا اسم السلطان مرة، انتقل إلى توضيح وضعه. كانت الشائعات التي انتشرت بين الجيش في سان ستيفانو حول رغبة السلطان في الحصول على حماية أجنبية مخالفة تماماً للحقيقة ولم تكن سوى افتراءات. السلطان عبد الحميد لم يطلب المساعدة، بل رفض أيضاً اقتراح الحماية الذي قدمه السفير باسم إمبراطور روسيا. وقد أبلغ قواته المحيطة به، من البنادق وكامل الفرقة الثانية والجيش الأول بالكامل، بعدم التصدي للقوات القادمة من سالونيك وتسليم أسلحتهم إذا دخلت المدينة.

بعد أن قال هذه الكلمات، توقف توفيق باشا للحظة. وجال بنظره الخافت على جميع الأعضاء، داعياً إياهم للاستماع بانتباه واهتمام للخبر



الأهم الذي سيلقيه الآن. ثم أضاف، وقد بلغ اهتزاز رأسه الحد الأقصى:
_ لقد جئت الآن من حضرة السلطان. لقد صرّح جلالة السلطان أنه
إذا كان تنازله عن العرش سيمنع حدوث مواجهة بين الجيشين ويضمن
عدم سفك الدماء، فإنه مستعد للتخلي عن عرشه. وقد أمر بتبليغ هذا الأمر
إلى قيادة جيش الحركة.

تحدث توفيق باشا عن السلطان باحترام كبير، بل وربما بمودة وتقدير،
لكنه مع ذلك كان يتحدث عنه وكأنه يحاكي ملكاً من زمن آخر، وكأن صفته
كملك قد أصبحت من الماضي. بدا وكأن ما جعله يترأس اجتماع مجلس
الوزراء لم يكن بسبب حيازته لختمه. ومع ذلك، غمر شعور طفيف من اللين
قلوب الشيوخ والوزراء، دون أن ينتبهوا لهذا التلميح. ولم يقتصر هذا الشعور
على الحاضرين فقط، بل تأثر به أيضاً الوزير اليوناني مافروكورداتو، الذي نشأ
وتربى في المدارس التركية حتى صار تركي الهوى بالكامل، ووزير الخارجية
رفعت باشا، الذي عاش في أوروبا لمدة ثلاثين عاماً وتزوج من امرأة روسية
لدرجة أنه أصبح يتحدث التركية بلكنة أجنبية. حتى شفيق بك، الذي كان
يعتبر السلطان حميد طاغية حتى دخل قصر محمد شهاب الدين باشا، وكذلك
الوزير الأرمني المتشدد كابريل نورادونكيان بك، وزير التجارة والأشغال
العامة، تأثروا جميعهم، وانهمرت دموع بعض الوزراء الشيوخ.

لأنه، بجانب كل جرائم سلطته التي استمرت ثلاثة وثلاثين عاماً،
وخاصةً الذنوب التي كانت نتاج وهمه بسبب جهله، لم يكن السلطان عبد
الحميد خالياً تماماً من الصفات الجيدة. ففي يوم ٣١ مارس، وعلى الرغم
من أنه كان يأمل بعودة حكمه الفردي لم يقم بأي حركة ضد الدستور،
متمسكاً بقسمه. ومع أنه كان لا يزال يملك القوة لتفريق القوات القادمة



من سالونيك، إلا أنه اقترح الانسحاب طواعيةً ولم يخطر بباله أن يطلب أو حتى يقبل أي تدخل أجنبي لضمان سلامته الشخصية.

ومع ذلك، فقد اختفى هذا التحالف المفاجئ، الذي شمل حتى شفيق بك الذي كان حتى الأمس من أتباع الاتحاد والترقي، وكذلك كابريل أفندي الذي كان ينتمي إلى نفس العرق الذي كان يعتقد أن السلطان عبد الحميد هو عدوه اللدود وكان يفخر بذلك. الآن، أصبح أعضاء هذه الهيئة، الذين كان آخرهم من كبار الوزراء والمشايخ الذين على وشك الوقوع في قبضة الموت، يفكرون فجأة في مصيرهم الشخصي. ورغم أنهم كانوا في سن متقدمة للغاية، لدرجة أن المناصب التي يشغلونها لم تكن لتصمد لهم سوى ثلاثة أو أربعة أشهر على الأكثر، ومع ذلك، لم يتحدثوا بكلمة واحدة للدفاع عن عبد الحميد أو حتى لتقديم دعم من أجل الدفاع عنه في مواجهة الجيش الذي كان يتنفس على بعد أميال من الباب العالي، ولم يجرؤوا على التصدي لهذا الهجوم حتى ضمن جدران هذا القصر.

لقد أتمّ توفيق باشا كل مهامه، ودفع جميع ديونه تجاه السلطان عبد الحميد، وبناءً على هذا، أصبح في أمان ليحول اهتمامه إلى بعض الأعمال اليومية التي كانت تنتظر توقيعه. بعد مناقشة هذه الأمور، تم توقيع بعض القرارات بتأن، بما في ذلك التوقيع على قرار الموافقة على استقلال بلغاريا، بالأيدي المرتعشة، والأصابع المتألمة التي كانت تحمل القلم بصعوبة.

بعد انتهاء المجلس، انتقل توفيق باشا إلى غرفة الصدر الأعظم، حيث أعطى بعض التوجيهات لشفيق الذي كان قد أن يبقى معه. وكانت هذه التوجيهات ملخصة في كلمات: "أرجو أن تولوا اهتمامكم الكامل بأمن إسطنبول والمقاطعات بقدر ما تستطيعون."



عاد شفيق إلى مكتبه من غرفة الصدر الأعظم، وجاء كاتبه حاملاً حزمة من البرقيات الجديدة التي وصلته. كانت هذه البرقيات مشابهة لتلك التي وصلت سابقاً لدرجة أنه كان يمكن حلف يمين بأن جميعها كتبت بالأيدي نفسها. كانت البرقيات تصل من أقاصي الإمبراطورية، من إسكودرا إلى هوبا والحُدَيْدَة، معلنة أن الحكومة التي تأسست بعد الحادي والثلاثين من مارس هي نتاج انقلاب رجعي، وتطالب بإعادة المشروعية ومعاقبة المسؤولين عن الجرائم المرتكبة، مع تحشيد السلاح في جميع أنحاء البلاد. كانت تسأل عن موعد بدء الهجوم، وتحديدًا عن القوات التي ستنتقل من ولايات اليمن، طرابلس الغرب، وفزان، إضافة إلى تلك التي تتجمع في ضواحي بيروت أو قونيا، وأوقات وصولها إلى إسطنبول. كان يتم إرسال البرقيات مع شتائم حادة إلى المسؤولين لإثبات حماستهم للمشروعية وحريرتهم. وفي رد فعل على هذا، أمر شفيق، الذي بدا مثل والد الكاتب ذو اللحية البيضاء، بإرسال نفس البرقيات المطمئنة من جديد، بأسلوب جاد ووقور.

لقد كان الصدر الأعظم قد غيّر قليلاً لغة هذه البرقيات المهدئة والمخادعة. كانت مسودات البرقيات الأولى التي تفيد بأن أحداث الحادي والثلاثين من مارس كانت حركة متوافقة تمامًا مع متطلبات الشريعة والمشروعية، قد تغيرت تدريجيًا، ليتم التأكيد الآن على أن حادثة الحادي والثلاثين من مارس قد تم قمعها بالكامل والحمد لله، وأن الحكومة تؤدي واجباتها بما يتوافق مع جميع أحكام المشروعية السامية والمقدسة. وكان يفضل الباب العالي، الذي لم يذكر اسم الشريعة، عدم التطرق الآن إلى وجود مقام السلطنة أو الإشارة إلى أن السلطان عبد الحميد الثاني ما زال يجلس على هذا العرش، متجنبًا الحديث عن هذا الجانب.



وبعد أن أمر شفيق بسحب هذه البرقيات، عاد، في ساعة متأخرة من الليل، إلى قصره بعد أن مر عبر الطرق والبوابات بسيارته. وبعد العشاء، وعندما بقيا وحدهما، أخبر زوجته بالاقترح الذي جاء من السلطان عبد الحميد وأبلغه الصدر الأعظم بشأن سحب القوات. وكان يرغب في أن يبقى هذا الاقتراح مجرد كلاماً فقط، ويفضل أن يتم تصوير الوضع لها كما لو أن الحكومة قد أجبرت السلطان عبد الحميد على الانسحاب، وذلك في مواجهة الجيش الثائر. ثم سألها عن رأيها في هذا الموضوع.



الفصل الثامن والأربعون

استمعت السيدة نعمت إلى تصريحات زوجها دون أن تنبس بنبت شفة. وعندما انتهى من كلامه، تحدثت بنضج نابع من خبرتها، حيث أمضت بضعة أيام، لكنها كانت أياماً مثقلة، بجانب وزير من عهد جديد، وكأنها مستشارة له، وذلك بعد أن تلقت دروساً من والدها لسنوات عديدة.

إن تنازل السلطان حميد عن العرش سيكون كارثةً على البلاد وعلينا نحن أيضًا. أولاً، ستكون كارثةً على البلاد، لأن رشاد أفندي، الذي عاش حياته كلها في الحبس، أصبح الآن مسنّاً بائساً وغيباً تماماً، والجميع متفق على ذلك! ستبقى الملكية مجرد اسم، وسيكون هو مجرد لعبة أو دمية في أيدي جمعية الاتحاد والترقي. والعناصر التي لن تتحمل الهيمنة المطلقة للاتحاد والترقي ستثير الفتن هنا وهناك. ولا حاجة لقول ما سيؤول إليه حال البلاد نتيجة لهذه الفتن! وذكرْتُ أيضًا أن تنازل السلطان سيكون كارثةً لنا، لأن الاتحاديين يضمرون لك الحقد الآن. حيث كانوا قد صاروا أعداءً لك قبل أحداث الحادي والثلاثين من مارس. ولن يغفروا لوزير الداخلية في حكومة توفيق باشا بأي حال. لن تنتهي حياتك السياسية فحسب، بل من الممكن أن تصبح ضحيةً لأحقادهم. والنماذج هذه أمامنا، مثل إسماعيل ماهر باشا وحسن فهمي.

لم يتطرق شفيق إلى المستقبل المظلم الذي يهدد البلاد، بل اهتم فقط بالاحتمالات التي طرحتها زوجته بشأن وضعه الشخصي. لم يكن يرى وضعه بهذا السوء. فقد اختارت الحكومة طريقاً وكأنها قد قطعت علاقتها



بالسلطان، وتركت له مواجهه قدره في قصر يلدز، وستسير في هذا الطريق حتى النهاية. إذا دخلت القوة القادمة من روملي إلى إسطنبول وواجهت مقاومة من قوة ستتحرك بأمر من السلطان، فلن تتدخل الحكومة في هذا الصراع بين الطرفين، وستستخدم قواتها وإمكاناتها فقط لحفظ السلم بين المدنيين في إسطنبول والأقاليم. وإذا تنازل السلطان عبد الحميد عن العرش وأصبح ولي العهد سلطاناً، فقد تنسب الحكومة جزءاً كبيراً من هذا النجاح إلى نفسها وربما تحافظ على مكانتها. ولكن إذا قرر السلطان المقاومة في اللحظة الأخيرة وانتهى به الأمر إلى الهزيمة، فإن الصدر الأعظم المحايد يأمل أن يتمكن من الذهاب إلى لندن التي كان يشغل بها منصب سفير قبل تعيينه صدرًا أعظم. أما الوزراء الآخرون، إذا لم يبقوا في مناصبهم، فسيُعينون في مهام أخرى كوزراء سابقين، وإن كانوا من مجلس الأعيان فسيُنتقلون إليه، وفي النهاية سيُجلسون في قصورهم ومنازلهم.

هزّت نعمت رأسها وقالت:

— ممكن، كل هؤلاء الباشاوات والسادة الكبار يبقون في نفس الأماكن دون سؤال أو استجواب، أو يتم نقلهم فوراً إلى مناصب وأماكن أخرى توازيها في الشرف والأهمية. لكن في هذا المجلس، أنت الوحيد الذي أتى إلى الحكومة من صفوف الجمعية بعد أن انفصلت عنها. في وقت كان فيه الآخرون مختبئين في الزوايا، وكانت رؤوسهم على وشك البيع بالمزاد، فهل يغفر لك أصدقاؤك القدامى حصولك على وزارة؟

غمر القلق شفيق فجأةً، وسأل:

— إذن، ماذا عليّ أن أفعل الآن؟ هل أستقيل فوراً؟

— الاستقالة... بل حتى الانضمام إلى "الاتحاديين"، أليس كذلك؟



— نعم.

— يبدو لي أن الوقت قد فات الآن. لو حدث ذلك قبل ثلاثة أو أربعة أيام لأصبح له معنى وقيمة. أما الآن...

نهضت نعمت هانم، وبدأت تتجول من أحد طرقي الصالون إلى الآخر، ويديها خلف ظهرها ورأسها منحني. كانت غارقة في التفكير. وكان الرجل، الشخص الذي تعتمد البلاد، هذا الإمبراطورية الكبيرة، عليه في الأمن والنظام، يدرك أنه في نقطة قد تكون الأدق والأهم في حياته السياسية، لكنه كان عاجزاً عن اتخاذ قرار بنفسه، منتظراً في خمول عميق. لقد كان خاضعاً منذ وقت طويل لذكاء وإرادة المرأة التي ارتبط بها بإرادته، منتظراً الحكم والكلمة التي ستخرج من فمها. وعندما اتخذت نعمة قرارها أثناء هذه الجولات، توقفت عن التجوال، اقتربت ووقفت أمام زوجها، ووضعت يديها على كتفيه، وكررت:

— لقد فات الأوان للعودة إلى الاتحاديين، ثم أضافت:

— حتى لو لم يكن الوقت متأخراً، فإن ذلك لن يضمن لنا سوى العيش بصمت في إحدى الزوايا.

وبعد دقيقة من الصمت في الغرفة الكبيرة التي يجلسون فيها، والتي كانت تحتوي على أثاث ضخم ومذهب للغاية، كما هو الحال في جميع الغرف الأخرى، عادت نعمت هانم للحديث، وسألت:

— هل الفتنة التي يُزعم أنها انتشرت في جميع أنحاء البلاد تشكل خطراً على إسطنبول؟

فأجاب شفيق:



— القوة الوحيدة التي يمكن أن تهدد إسطنبول هي تلك القادمة من روملي. أما البقية فليست سوى كلام. وإذا انتصرت القوة القادمة من روملي، سنقول لهم "إننا كنا على استعداد لمساعدتكم، وكان لهذا أثر كبير في عدم تشجيع السلطان على المقاومة"، هذا هو كل ما في الأمر.

— حسناً، هل ما يزال السلطان عبد الحميد قادراً على السيطرة على هذه القوة القادمة من روملي والتي تهدد إسطنبول؟

— الجيش الخاص كله تحت يده. بل ويمكنه بسهولة أن يهزم قوة روملي دون أن يدعها تدخل إلى إسطنبول.

— حتى إذا دعمت الفرقة الثانية القوة القادمة من سالونيك؟

— الفرقة الثانية لا تزال على الحياد. إذا أعلنت إسطنبول قرارها بالمقاومة وأوضحت أن هذه المقاومة ستكون دفاعاً عن السلطان، فإن الفرقة الثانية لن تدعم القوة المرسلة من سالونيك ومانستير بأي حال. الفرقة الثانية هي الجيش الذي ثار بعد العاشر من يوليو، ظناً أن السلطان عبد الحميد قد وقع في الأسر.

— أي أنه إذا قاوم السلطان عبد الحميد، فسيظل على عرشه بسلطة كاملة. أما إذا لم يقاوم، فسيكون معرضاً لخطر الانسحاب أو العزل بعد احتلال إسطنبول. وبما أن الأحقاد القديمة قد اشتعلت تماماً، فقد يواجه كل أنواع المصائب. ولكن إذا لم يكن الصدر الأعظم يخونه تقريباً بإخفاء هذه الأمور عنه، فهل لا يوجد حوله رجل يوضح له الوضع بكل صراحة؟

— لقد جاؤوا إليه جميعاً، الحراس والأتباع، وقالوا له: "لقد رعيتنا جميعاً لسنوات من أجل هذا اليوم، مرناً، لنقدم دماءنا في سبيلك" لكنه رفض،



وقال: "أنا لم أنقض يمين الولاء للدستور، أنا بريء، ولن يمسوني بسوء!"
وهذا الرفض، دب اليأس في رجاله، فغادر كثير منهم قصر يلدز.

حينها لمعت عيننا نعمة هانم بالدموع، ثم اشتعلتنا بالغضب:

— جميل! لكن إذا دخل هذا الجيش، الذي وصل إلى سان ستيفانو،
إسطنبول غداً، فإن الرجال الذين أرادوا القيام بواجبهم سيتم إعدامهم
على جبل المشانق من قبل القادمين من روملي. وسيفدي هؤلاء الرجال
أرواحهم في سبيل السلطان عبد الحميد، لكنهم سيفعلون ذلك بطريقة
مُهينة وذليلة، بلا شرف.

توقفت المرأة الشابة للحظة، ثم قالت وفي عينيها ضوء لا يقاوم، وهي
تتهجى الكلمات ببطء شديد:

— شفيق، استمع لي. أنت وزير الداخلية، وفي وضع يمكنك من
الوصول إلى حضرة السلطان في أي وقت. خاطر بمقامرة ستكون نتائجها
مكسباً أو خسارة مؤكدة! طالما أن توفيق باشا لا يسعى سوى لأن يبقى
صدرًا أعظم للسلطان القادم، فاذهب أنت ووضح الوضع للسلطان عبد
الحميد. أكد له أنه بالإمكان إعادة هذا الجيش المرتجل من حيث أتى دون
إراقة دماء كبيرة، فقط من خلال إظهار الصمود وعدم الخوف من سفك
الدماء. وطمئنه أنه إذا ولاك على الصدارة الكبرى وأسند إليك وزارتي
الحرب والبحرية، يمكنك في غضون ثلاثة أو أربعة أيام أن تضمن له عرشه
وتواجه من أي خطر.

كان شفيق وكأنه في خطر كبير، وكأن النار تشتعل حوله ويريد الفرار،
فنهض من مكانه بسرعة وقد شحب وجهه واصفرت ملامحه، وكأن الدم
قد انسحب بالكامل من وجهه. ونعمت أيضًا نعمة قد اصفرّ لونها، لكنها



عندما تحدثت، ارتفع صوتها الغليظ بنفس الهدوء:

— أكرر سؤالى مرة أخرى، إذا قرر السلطان عبد الحميد المقاومة، فهل يمكن السيطرة على الوضع؟
— بكل تأكيد، يمكن ذلك.

— هل تعتقد أن بقاء السلطان عبد الحميد على العرش أفضل للبلاد؟
وبالرغم من أنه قبل تسعة أو عشرة أشهر فقط كان يعتبر السلطان عبد الحميد الثاني من أكثر المستبدين دموية في التاريخ، وكان يحمل له كراهية لا حدود لها، فالتأثر من الاستقبال الحسن الذي حظي به في حضرته مؤخرًا، وبين كل تلك الزخارف والمخمل والحرير المحيطة به كوزير، جعله يجيب دون تردد:

— نعم، لأننى أخشى من عهد جديد، سيبدأ بسقوط السلطان عبد الحميد، حيث ستتوالى الأزمات والتمردات حتمًا، كما أخشى من سلطان منهار ومريض، لا أحد يمكنه إنكار قلة حكمته.

— إذن، اذهب إلى قصر يلدز صباح الغد باكراً. وأوضح للسلطان كل تفاصيل الوضع. فعرض المقاومة الذي يقدمه الحراس يختلف تمامًا عن عرض والتزام يأتي مباشرة من وزير الداخلية، خاصةً عندما يكون هذا الوزير قد أتى من صفوف الاتحاد والترقي. أقهر كل تردداته ومخاوفه، وأقنعه تمامًا. هل تفهم؟ عليك أن تشرح كل شيء بوضوح، وتقول كل شيء صراحة! أفنعه أنه إذا استمر في التردد، فإن القوات التي ستدخل إسطنبول ستعزله، بل قد تجره إلى محكمة عسكرية مهينة. إذا كان يخشى من خطر الموت إن قاوم وهُزم، فليعلم جيدًا أن احتمال الموت لا يزال قائمًا حتى



في حالة الطاعة والاستسلام، بل إن هذا الاحتمال أكبر بمئة مرة! لماذا تنظر بدهشة؟ نعم، بالتأكيد هو أكبر بكثير! لأنهم سيعلنون أنه المسؤول الأكبر عن أحداث الحادي والثلاثين من مارس، وسيُلصقون به تهمة المجرم، وسيضعون ختم الجريمة على جبينه ليحاكموه حتى لا يظن الشعب أنهم قد عزلوا السلطان عبد الحميد عن العرش دون وجه حق. إن عدم المقاومة لن ينقذ السلطان عبد الحميد، بل ربما سيواجه موتًا ذليلاً. فليمت على الأقل ميتة مشرفة، ليثبت أنه حفيد الفاتح ويافوز، وأن الجبن الذي نُسب إليه على مدى السنين ليس سوى افتراء.

وتوقفت نعمة عن الكلام، وهي تلهث وكأن قلبها سيكاد ينفجر، وانهمرت الدموع من عينيها فجأة. وضعت يدها على صدغها، وعيناها موجعتان نحو الأرض، وغرقت في تفكير عميق. ثم عندما رفعت رأسها، رأت زوجها جالسًا على أحد المقاعد، منتظرًا أن تخرج من أفكارها العميقة. ونظرا إلى بعضهما. ثم وقف شفيق وقال:

— سأتوضأ وأقرأ القرآن.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها نعمت من زوجها كلمتي "وضوء" و"قرآن".

قضيا تلك الليلة، دون أن يغادرا سريريهما المتجاورين، دون أن يعرفا أن هذه ستكون ليلتهما الأخيرة معًا بكل ما تعنيه الكلمة. وعندما بدأت الشمس تشرق، سقطت نعمت في نوم عميق، وكأنها تهاوى وتكاد تنزلق في نومها. وعندما استيقظت بعد ساعتين من شروق الشمس، عرفت أن زوجها قد استيقظ عند الفجر، واكتفى بشرب قهوة مرة بلا سكر، وأعد العربة وغادر دون أن يوقظها، وبدون أن يأخذ معه مرافقه.



الفصل التاسع والأربعون

كان قصر يلدز والمناطق المحيطة به يبدو كأنه قد تم إخلاؤه مسبقاً، وقد خيم عليه الهدوء والصمت. ورغم أن الوقت كان مبكراً جداً، لم يجعل السلطان عبد الحميد شفيق ينتظر طويلاً، فطلب من نديمه، نادر آغا، أن يدخله إلى حضرته. لم يصادف شفيق أي ضابط مرافق أو موظف في الممرات، فهل غادروا جميعاً؟

وكان السلطان يرتدي لباساً مدنياً بلون كحلي ويبدو هادئاً، بلا خوف أو قلق. استقبله كعادته واقفاً، وتقدم بخطوتين وقال بصوته العميق المهيبة:

— تفضل، سيدي.

اقرب شفيق من السلطان ليسلم عليه، وانحنى كثيراً محاولاً تقبيل طرف رداءه، حتى أن السلطان عبد الحميد تراجع كعادته بإحساس من الخوف قائلاً: "استغفر الله!"، وجلس على مقعده وأشار إلى المقعد الذي اعتاد أن يجلس عليه الوزراء عندما يستقبلهم. جلس شفيق على هذا الكرسي، ثم نظر إليه السلطان عبد الحميد، ولأول مرة يقابل وزير الداخلية في مجلس خاص، بنظرة ثاقبة نابغة من خبرة ثلاثة وثلاثين عاماً، وفكر في نفسه قائلاً: "إنه رجل شاب جداً! لم أخطئ في حكمي عليه في المرة السابقة".

لقد اعتبر قدومه المبكر بهذه الطريقة على أنه يحمل قراراً لتقديمه نيابة عن هيئة الوزراء، وظن أن العرض الذي قدّمه للتنازل عن العرش قد حظي بموافقة المجلس، وأن توضيح الوضع كان محرّجاً لتوفيق باشا،



مما دفعهم لإرسال شخص حديث الانفصال عن الجمعية أو كان يُظن أنه كذلك. حتى إنه ربما كان هناك إلحاحٌ على تنفيذ التنازل بسرعة. لكن هل من الممكن أن يتصرف الرجل، الذي جاء يدعوه للتخلي عن العرش بإرادته، كما لو كان يسجد على قدميه؟ عندها، اكتشف السلطان عبد الحميد الحقيقة فوراً: وزير الداخلية كان يرغب في خوض مغامرة محفوفة بالمخاطر، وكان يريد دفعه إلى المقدمة ليكون درعاً له. وبعد دقيقة كاملة من الصمت، قال السلطان ليقطعها:

— لقد أخبرت النديم بأنك ستعرض بعض الأعذار الهامة. تفضل، استمع إليك.

احمرّ وجه شفيق قليلاً، وحتى إن كلماته الأولى خرجت بصعوبة، كاد يتلعثم. ومع ذلك، اكتسب لسانه تدريجياً طلاقة، واستمع السلطان عبد الحميد، الذي كان يحب الحديث الجميل والتعبير البليغ عن الموضوع، لكلماته بسرور واضح، دون أن يقاطعه، مستقراً وبدون أن تتغير ملامح وجهه، بينما كان يستمع بعينين شاردتين.

— إن التأكيدات التي تفيد بأن جيش الحركة محايد ولا يحمل أي نية سيئة تجاه ذاتكم الموقرة ليست إلا مجموعة من الأكاذيب لخداع مولانا. أعتقد أن كلاً من حسني باشا، الذي يقود هذا الجيش حالياً، ومحمود شوكت باشا، الذي يُنتظر وصوله قريباً، لن يكونا قادرين على التحكم في القرارات التي سيتم اتخاذها، حتى لو أرادا ذلك. فقد سيطر أنور بك، الذي جاء مسرعاً من برلين، إلى جانب ضباط آخرين صغار الرتبة، على الوضع تماماً، وجميعهم يؤمنون دائماً بأن الثورة لم تكتمل بعد، وقد دافعوا مراراً عن هذا الرأي. ومع القوة التي بأيديهم، إذا دخلوا إسطنبول دون مقاومة، فمن المستحيل عدم



انتهاك حقوقكم المقدسة بأشد الطرق خطورة.

لم يجب السلطان عبد الحميد فوراً، ثم قال كلمات واضحة ومتأنية:
 _ لم أسهم ولو بأقل درجة في تسهيل ظهور أحداث الحادي والثلاثين
 من مارس، والتزمت تمامًا بقسمي بالوفاء للدستور، وبقيت مخلصاً له. ومن
 هذا المنطلق، أرى لنفسي الحق والقوة في متابعة مسار الأحداث بطمأنينة.
 فقال الآخر:

_ لا شك أن تصرفات ذاتكم الموقرة إزاء حادثة الحادي والثلاثين من
 مارس كانت بمنتهى الأمانة، وأن مرور تلك الحادثة بأقل الأضرار يعود
 الفضل فيه لنفوذكم الشريف فقط. ولكن، سيكتب التاريخ ذلك، والتاريخ
 لا يمسك القلم إلا بعد أن تنتهي كل الأمور بمدة طويلة. وإذا دخل هذا
 الجيش المرتجل إلى إسطنبول، لا قدر الله، وجاء الذين يقودونه ليفتروا على
 ذاتكم الموقرة من أجل إشباع أحقادهم وأغراضهم، وقد تم تسليمهم
 الأسلحة وتوزيع القوى، فما هي وسائل الدفاع والحماية حينها؟ إن صوت
 التاريخ قد يستغرق سنوات ليُسمع، بينما قد تنتهي كل الأمور في غضون
 بضعة أيام.

ازداد عمق عيني السلطان عبد الحميد الثانية ذات اللون الأزرق الداكن
 وبدت شاردة أكثر، وانحنت كتفاه قليلاً:

_ إنني من بين أجدادي الأعظم الذين حكموا أطول مدة، وأعتبر ذلك
 بفضل عناية الله. وإذا كان مقدراً لهذا الحكم، الذي قارب الثلاثة والثلاثين
 عاماً، أن يصل إلى نهايته، فيمكنني أن أجد السلوى في هذه الفكرة.
 ومع ذلك، لم يجد أنه من المناسب أن يظهر خضوعاً تاماً للقدر ويرسل



الرجل المقابل له مقتنعاً بذلك. إذن هذه الكلمات التي تشير إلى فكرة المقاومة قد تتبعها اقتراح إيجابي أو كلمة ذات قيمة. ونظر إلى شفيق بنظرة مشجعة كدعوة منه ليرد عليه، فقال شفيق عندها:

إنني على قناعة تامة بأن هذا الجيش، الذي لا أرى فيه إلا قوة عشوائية، سيهزم بالتأكيد إذا واجه قواتنا المستعدة للتضحية بأرواحها في سبيل ذاتكم الموقرة في إسطنبول. أنا جندي، ولا أشك في ذلك. ولكن، يا للأسف! فإن المجلس الذي أتشرف بعضويته تحت رعايتكم، يفتقر إلى القوة والعزيمة لاتخاذ قرارات حاسمة. أما الصدر الأعظم توفيق باشا، فبالرغم من امتلاكه صفات تمنحه القدرة على أن يكون وزيراً للخارجية في الظروف العادية، فإنه غير مؤهل لإدارة الأمور في فترة كهذه. أما وزير الحرية أدهم باشا، فقد أصيب بإجهد شديد بسبب محاولاته لتهدئة الجنود في ليلة الحادي والثلاثين من مارس، ويعاني باستمرار من أزمات قلبية، أي أنه قد لا يملك القدرة على القيادة والأمر في الأيام القادمة.

كانت هذه كلمات صادقة وآراء صائبة، وكان السلطان عبد الحميد يستمع إليه بأسلوب يدل على الموافقة التامة، مترقباً المزيد، متوقعاً ما سيُقال في النهاية. وبدت عليه هيئة تشجيعية لدرجة أن شفيق اقتنع أنه لم يعد هناك خطر من قول الكلمة الأخيرة، وأن الطريق قد فتح ومهد له نحو النتيجة. وكأنه قد وجد الشجاعة الكافية، وبصوت خافت يكاد يبعث الرهبة، وكأن نعمت هي التي تتحدث، وثقة في أنه على وشك قلب صفحة مهمة في التاريخ العثماني، تابع ببطء، محاولاً الاقتراب من غايته مع كل كلمة، وقال:

_ أطلب أن يُمنح لي شرف تولي مقام الصدارة العظمى، إلى جانب تسلمي وزارتي الحربية والداخلية بالوكالة. وفي هذه الحالة، أتعهد، وأقسم



على ذلك، بجمع القوات العسكرية في إسطنبول كأنها قلعة واحدة حول العرش المقدس، وإعادة هذا الجيش المرتجل الذي وصل إلى سان ستيفانو إلى المكان الذي جاء منه بسهولة.

ارتعد السلطان عبد الحميد داخليًا عند سماعه هذه الكلمات. وفكر في نفسه: "ما الذي قدّمه عامٌ واحد من الحرية لشعبي حتى أنه جرّاه إلى هذه الدرجة؟ فيها هو ضابطٌ سابق برتبة مقدم، لا يكتفي بمنصب وزير الداخلية الذي تقلده منذ ثلاثة أيام، ويأتي إليّ الآن ليطلب دفعة واحدة مقام الصدارة العظمى ووزارتي الحرية والبحرية!" ثم تذكر، بناءً على المعلومات التي جمعها عن حياة هذا الرجل، أنه قد يكون يلعب دورًا بتوجيه من الاتحاديين، لا سيما بعد مخالفته الواضحة في عهد حسين حلمي باشا. وقد يكون قد جاء ليطلب هذا الطلب بإيعاز منهم، لغرض خداعه ودفعه نحو اتخاذ خطوات سيكون هو المسؤول عنها لاحقًا. أما هذا الاتحادي المتخفي الذي ستسلم له كل السلطات، فقد يكون يستعد لفتح أبواب إسطنبول والقصر بسهولة أكبر. أليست هذه سلسلة من الأحداث المرتبطة ببعضها والمتناسقة مع بعضها بشكل طبيعي؟ إذن، كان أمامه احتمالٌ خطير وعدو. ولكنه أدرك أن عليه ألا يظهر له بأي شكل من الأشكال أنه اكتشف اللعبة. وعليه، اتخذ السلطان عبد الحميد مظهرًا ناعمًا وودودًا، وخفف من نبرة صوته التي عادة ما تجلجل في حالات الغضب الشديد، وأجاب بلهجة هادئة:

إنني، حقًا وبصدق، متأثرٌ بولائكم وإخلاصكم تجاه حقي المقدس. وسأحافظ على هذا العهد دائمًا، ولا يكون لديك أدنى شك بأنني سأثبت صدق مشاعري يومًا إذا كُتِب لي البقاء على العرش، بأن أمنحك المنصب الذي تستحقونه دون شك. ولكن، ثقوا في تجربتي الطويلة! إن من الأنسب في هذه الأيام ألا نقاوم بأي شكل، بل أن نبذل كل الجهود لمنع إراقة الدماء



بين الجيشين. لقد أعدت العمل الدستور، رغم أنني كنت أشعر أن جميع الوزراء كانوا مستعدين لاتخاذ موقف معارض. وفي عام ٩٣، كان بمقدوري ألا أجمع المجلس، فقد كان مدحت باشا قد غاب عن المشهد، لكنني جمعت المجلس وحاولت الحفاظ عليه. وفي هذه المرة حين أعدت الدستور، كنت قد تعهدت بالبقاء مخلصًا لأحكامه بشكل دائم ونهائي، ولا يوجد دليل واحد على أنني أخلفت وعدي هذا. لذلك، أترقب الآن بضمير مرتاح. وإن كان بعض الخونة وأصحاب الأغراض يتحضرون للقيام بتحرك ضد حقوقي المقدسة وحياتي، وإن كان هذا هو مقصدهم الخفي، فكيف يمكن تغيير ما كتبه الله في اللوح المحفوظ؟

نهض السلطان عبد الحميد ووقف ثابتًا في مكانه. على الرغم من جسده الطويل والنحيف، فقد كان يعطي انطباعًا بأنه رجل طويل ومهيّب، وكان هذا الانطباع أقوى من أي وقت مضى في تلك اللحظة. طوال فترة سلطانه، عاش هذا الرجل، الذي ارتعد من الخوف طوال سنوات وسنوات من احتمال خلع عرشه وقلعه، متمسكًا بكثير من الأكاذيب السخيفة، وغالبًا ما كان يصدقها، وفي تلك اللحظة، رغم سماعه لأصوات جيش معادٍ يقترب في صمت من القصر شبه المهجور، وإحساسه بأن جميع المخاطر قد اجتمعت فوق رأسه، كان يتحدث بهدوء وقبول لمصيره، مظهرًا عظمة حقيقية، وهو يطهر نفسه من جميع الذنوب التي ارتكبها نتيجة الشكوك المشؤومة.

لم يستطع شفيق أن يفتح فمه ليدافع عن قضيته مرة أخرى، ومع الإشارة التي أعطاها له السلطان بالقيام، اقترب منه مرة أخرى ليسلم عليه وهو ينحني ليقبل طرف ثوبه. فابتعد السلطان حميد قليلًا، ثم قال بنغمة هادئة في صوته العميق:



— أشكرك مرة أخرى، يا بني.

بعد أن خرج من عند حضرته، جلس السلطان عبد الحميد فجأة على الكرسي الأقرب إليه، وهو في حالة من القلق الشديد والإرهاق التام. كان يفكر أن هذا الرجل، إذا تم اكتشاف محاولته، لن يرحمه جيش التحركات الذي سيدخل إسطنبول غداً. لذلك، كان من المؤكد أنه سيسعى للقيام ببعض الأفعال الخبيثة كي يتجنب عقابهم، بل وحتى لجعل الآخرين لا يشكّون في أنه قد فكر في القيام بها. وفكر في نفسه قائلاً: "لو كنت قاسياً وظالماً كما يدعي أعدائي، لما تركت هذا الرجل يخرج من القصر سالماً". لكن السلطان عبد الحميد، وعلى عكس أسلافه البعيدين، ولكن كما كان جده محمود الثاني، لم يكن في حالة تسمح له باتخاذ قرار دموي حاسم كهذا، بل كان مرهقاً للغاية لدرجة أنه لم يكن قادراً على اتخاذ أي قرار على الإطلاق.

حتى لو كان السلطان عبد الحميد قد شعر بثقة كاملة في أن هذا الشاب، شفيق بك، كان يتصرف بصدق وأنه إذا تم منحه الصدارة فسيحمي عرشه وتاجه، إلا أنه لم يكن يشعر بالشجاعة الكافية لاغتنام الفرصة الأخيرة التي أمامه. فقد كان من المستحيل عليه، بعد ستين عاماً من الحياة وثلاثة وثلاثين عاماً من السلطنة، أن يتحمل مرارة حكم تحت هيمنة شخص آخر وشعور بالديون، وكان ذلك شيئاً لا يمكن تحمله بعد كل هذه السنوات.

بل كان السلطان عبد الحميد يشعر بالقشعريرة في اللحظات التي كان يفكر فيها في احتمال أن يدخل جيش الحركة إلى إسطنبول ويهيمن على الوضع، ويتركه على العرش. وعندما كان يتخيل تلك اللحظات، كان يخشى أن يضطر إلى الخضوع لما كان يعتبره إذلاً. كان يثير خوفه تصور أنه سيظل يوزع الهدايا والمال في أكياس من الساتان الأحمر، والمجوهرات في



صناديق محكمة، ويجب عليه أن يتنازل عن كبريائه الملكي، ويفقد بعضًا من شرفه ومكانته كسلطان في كل لحظة، وأن يتسم في وجه الوجوه الجديدة، التي غالبًا ما كانت وقحة، وأن يتملق للأقارب، ويعلق الزينة على صدره مثلما كان يفعل بالأمس، مع الأشرطة الحمراء التي ارتداها، والتي أصبحت مصدرًا للسخرية، ثم يعاملهم مثلما طلب منه أحمد رضا بك، بأن يلبس طاقية من جلد الحمل في اليوم التالي، ويقدم قصر دولة بهتشة للمجلس الذي كان يرتدي الأحذية والبناتيل الفضفاضة. وكل هذا التواضع والتضحية كان يجعله يشعر بالتعب والقلق، رغم أنه كان يواجه كل ذلك بشجاعة، دون أن يستطيع الهروب من الشكوك الجديدة، والهموم، والمخاوف التي كانت تنهشه. بينما كان يتصور مرور الأيام والشهور والسنوات بهذه الطريقة، كان السلطان عبد الحميد يشعر برعب شديد. في تلك الأشهر التسعة أو العشرة التي مرت منذ العاشر من يوليو، كان قد واجه العديد من الهجمات والإهانات، وقد عمل بجدي يظهر وكأنه لا يتأثر، لكنه كان في الحقيقة قد استنفد كل قوته.

لو كان متأكدًا أنه سيترك في راحة وأنه لن يُمسّ بأي أذى، لترك العرش وذهب إلى قصر تشرآغان، وكان سيقبل بحماس أن يحل محل شقيقه مراد الخامس، الذي عاش هناك لمدة ثمانية وعشرين عامًا دون أن يُمسّ بشيء. لقد أصبح السلطان عبد الحميد مرهقًا جدًا لدرجة أنه كان يفضل هذا على البقاء في العرش.



الفصل الخمسون

عندما غادر شفيق قصر يلدز، لم يجرؤ على المرور عبر نيشان طاشي أو التأخر قليلاً عن الوصول إلى مكانه. كان هذا التأخير يمكن أن يؤدي إلى بعض التعليقات الخطيرة والتحقيقات. في الواقع، لم يكن لديه القدرة على مواجهة زوجته أو الدفاع عن نفسه بعد أن فشل في تحقيق نجاح في الحديث مع عبد الحميد. فأعطى أمراً للساكن بالتوجه إلى الباب العالي، ومر عبر طريق بشيكتاش ليصل إلى مقره في إسطنبول. وبما أن مجلس الوزراء لن يعقد ذلك اليوم، كان الصدر الأعظم، الذي لا يجب الاستيقاظ مبكراً، لا يزال في فراشه. وقد فوجئ شفيق بهذا الارتياح الذي منحه له تأخير الصدر الأعظم.

طوال اليوم، لم يتوقف تدفق الأخبار، حيث لم يكن أحد يوافق الآخر، وتوالى الأنباء من جميع الاتجاهات. ومن بين هذه الأخبار، كان أن محاولات الدبلوماسيين للتوسط لعدم دخول القوات القادمة من مقدونيا إلى إسطنبول قد باءت بالفشل. كما وصل خبر آخر مفاده أن إسماعيل كمال بك، رئيس مجموعة النواب الألبان وعضو مجلس النواب عن مدينة بيراط، الذي كان قد ساعد في تعيينه وزيراً للداخلية، قد هرب من إسطنبول.

في فترة ما بعد العصر، استدعى شفيق بك من قبل الصدر الأعظم، وعندما كان يتجه نحو مكتب هذا الرجل العجوز المزعج، كان يفكر في الخوف الذي مر به عندما كان يقاتل مع قطاع الطرق في جبال مقدونيا لعدة سنوات، وهو خوف لم يسمع عنه من قبل ولم يخطر له على بال. هل كان



الصدر الأعظم، بعد أن علم بما حدث مع السلطان عبد الحميد، سيواجهه بتلك المحاولة السرية التي قام بها ويطلب منه الاستقالة؟ لكن عندما دخل غرفة الصدر الأعظم وواجه نفس الطلة الهادئة والمطمئنة على وجهه، تنفس شفيق بك الصعداء. بدا أن توفيق باشا لم يكن على دراية بشيء من تلك الأحداث، بل كان قد استدعاه لمناقشة الأمور اليومية المعتادة.

بينما كان شفيق قد وقع على الوثائق الأخيرة وأمر بالعربة للعودة إلى نيشان طاشي، لاحظ أنه لم يتناول طعام الغداء اليوم، وأن الطعام كان قد تم تحضيره في غرفة الاستراحة، ولكنه اكتشف بعد ذلك أن الخدم قد توقعوا عن دعوته للغذاء. أثناء مغادرته، نظر طويلاً إلى مكتبه الفخم والمزخرف، والأثاث الثقيل والواسع الذي كان فيه، وأخذ يفكر في هذا المنصب الكبير في وزارة الداخلية الذي كان يسعى دائماً لتغييره إلى شيء أكبر وأفخم. ومع ذلك، شعر وكأن هذه الغرفة لن يطأها بعد الآن، كما لو أنه يودعها للمرة الأخيرة.



الفصل الواحد والخمسون

مرَّ شفيق بك عبر شوارع المدينة الهادئة والمظلمة في نيشان طاشي، حيث كان أهلها يعودون إلى بيوتهم قبل أن يحل الظلام، مليئين بالقلق، وينتظرون الكارثة التي قد تحل بهم والدمار الذي سيشهدونه. عندما توقفت السيارة أمام باب قسم الحريم، رفع الشاب رأسه ليكتشف من ضوء النوافذ أن زوجته كانت في الغرفة الصغيرة، فصعد السلم بسرعة وذهب إلى تلك الغرفة. وكانت نعمت قد سمعت صوت السيارة وخرجت لاستقباله في الردهة. وعندما دخلوا الغرفة معاً، نظر شفيق بك إلى زوجته نظرة طويلة، وكأنه قد مرَّ بلحظة تهديد بعدم رؤيتها مرة أخرى، كما لو كانت تلك النظرة تحتوي على كل كينونته.

كانت الشابة ترتدي فستاناً من الحرير بلون التوت، وفي شعرها كان هناك وردة حمراء. كانت بشرتها قد أخذت اللون الأبيض بعد أن فقدت لونها الوردي بسبب الانتظار المفعم بالتوتر، وعيناها الخضراء اللامعة كانت جميلة للغاية لدرجة أن شفيق نسي كل شيء عدا عيناها وجهالها، وأخذها بين ذراعيه.

كانت نعمت قد استسلمت بفرح إلى ذراعيه، لكن هذا الفرح لم يكن كافياً، الأمر الذي دعاها أن تسأل زوجها عما إذا كانت تستحق هذه السعادة أم لا، فسألته: "هل أنا حقاً محل إطراءات صاحب المعالي الصدر الأعظم؟"

شعر شفيق فجأة أنه لا يحق له أن يمسك بها بين ذراعيه أو يضعها بين أحضانها. وبعد أن سقطت ذراعاها إلى جانبيه، همس قائلاً:



— يا للأسف! لا.

عندها، جلست نعمت على المقعد وطرحت أسئلتها الجديدة:

— إذن، لماذا تركتني دون أي خبر حتى الآن؟ ألم يكن بإمكانك المرور هنا عندما عدت من قصر يلدز؟ أو على الأقل، ألم يكن بإمكانك أن تبلغني بالوضع بكلمة أو اثنتين من باب العالي؟

ثم، دون أن تهتم بالأسئلة والكلمات التي لم يعد لها أي أهمية، انتقلت إلى الموضوع الأساسي:

— هل استقبلك السلطان هذا الصباح؟

— نعم.

— هل استقبلك بمفردك؟

— نعم.

— هل أخبرته بما تحدثنا عنه واتفقنا عليه؟

— نعم، قلت له تمامًا ما اتفقنا عليه.

— ألم تضمن له أنه إذا عينك صدرًا أعظم وزيرًا للحربية والبحرية، وإذا تجمعت كل القوة في يديك، فسيجلس على عرشه بثقة؟

— قلت كل هذا، وقلت ذلك بإصرار.

— إصرار... رفعت الشابة رأسها بتعبير يظهر الغضب والاحتقار، وأعوجت فمها ببطء:

— هناك طريقة في إصرارك! ربما تكون قد تحدثت بطريقة تجعله وكأنه



دمية في يديك، أو ربما تكون قد جعلته يشك في أنك تختبره باسم الجمعية... آه، ليتني كنت قد ذهبت شخصيًا إلى القصر وطلبت من السيدة مشفقة^(١) أن تتيح لي مقابلة بالحضور، ليتني كنت تحدثت بنفسي! هل بإمكانك أن تروي لي المقابلة وكل ما تم الحديث عنه؟

كان في مناداة شفيق بـ "أنت" بعض الغرابة، وفي مناداته بـ "أنتم" شيء من الاستخفاف، وكان يشعر بالخجل لعدم تحقيق ما كان متوقعًا منه! لقد كان مطيعًا، صبورًا، وكرر جميع الكلمات التي قالها له السلطان عبد الحميد منذ لحظة قبوله الأول له وحتى وداعه بكلمة "أشكر مرارًا يا ولدي"، كما لو أنه قد نقشها حرفيًا في ذاكرته.

كانت نعمت هانم تستمع إليه باهتمام جعلها تبدو وكأنها أكبر بعشر سنوات، مع خط يتوسط حاجبيها. وعندما أنهى شفيق كلامه، وهو متعب، دون أن تُبدي نعمت أي تعليق على الحديث، سألته:

— هل رأيت صحف المساء؟

— نعم، لقد ألقيت نظرة عليها في السيارة.

— لم يتناولوا خبر ذهابك إلى قصر يلدرز ولقائه مع السلطان بعد، ولكن بلا شك سيعلمون ذلك ويكتبونه غدًا. على أي حال، ليست هذه القضية من الآن حتى الغد. ما أريد أن أقوله شيء آخر: لقد اتخذت الصحف الآن موقفًا واضحًا وحاسمًا. كلها ضد السلطان، وإسطنبول تقرأ هذه الصحف بارتياح وثقة. لذا علينا أن نُظهر العجلة بالانتقال إلى المعارضة ضده. ولا يمكننا، مثل أعضاء الحكومة الآخرين وعلى رأسهم الصدر الأعظم، أن

١ _ السيدة مشفقة هي زوج السلطان عبد الحميد الثاني.



نتنظر وأفواهنا مفتوحة. وأنا أقول هذا، وكأنني أرى والذي يريد الخروج من قبره ليصق في وجهي. لكن ما باليد حيلة، فالسلطان حميد قد حكم على نفسه بنفسه قبل الجميع. في الواقع، عندما وافق والذي على عودة الدستور، لم يكن قد حكم على هذا بالفعل. السلطان حميد، لا يدافع عن نفسه شخصياً، بل يستخدم الآن كل سلطته لمنع رجاله من أداء مهامهم.

صمتت للحظة، ثم واصلت حديثها وكأنها تتحدث مع نفسها:

— سيأخذونه من قصر يلدز بكرامة واحترام، لأنه قد استسلم لمصييره، ثم ينقلونه إما إلى قصر "تشران" أو "بكلربك"، وفي النهاية ربما إلى سالونيك، أرض الحرية. لكن رجاله، أولئك الذين أرادوا خدمته، سيتعلقون على حبل المشنقة.

ارتعد شفيق فجأة.

— إذن، يجب أن نتعجل؛ الحركة لا تزال في يد رجل عجوز وبسيط مثله مثل حسني باشا وبعض النقباء والرواد، وقبل أن يصل محمود شوكت باشا، يجب أن نفعل ما بوسعنا. أنت الآن تشغل إحدى الوزارات الأكثر أهمية وسياسية في الحكومة. وخروجك من الحكومة يمكن أن يعني أن حكومة إسطنبول بأكملها ستتبعك. سيطر على الوضع في الجيش قبل مجيء محمود شوكت باشا، وادعم الفكرة بأن الدستور لن يكون آمناً حتى يُخلع السلطان حميد. اجعل هذه الفكرة شعاراً لك وتقدم بها إلى الأمام، حتى لو لم يجزأ المتطرفون على قولها رسمياً.

— لكن هل سيصمت السلطان حميد؟ ألا يُفصح عما عرضته عليه هذا الصباح؟



_ لو كان يمكن الوثوق بكلام السلطان حميد، لكانوا صدقوا براءته في أحداث ٣١ مارس.

_ إذن، هل سأُنكر حتى ذهابي إلى حضرة السلطان حميد؟ يمكن أن يُقدم مئة شاهد على أن وزيراً زار القصر وقبلة السلطان. أنتِ بنفسك قلت قبل قليل إن الصحف إذا لم تذكر اليوم ذهابي في القصر، فستعرف وتكتب عن ذلك غداً!

وقفت نعمت هانم، ووضعت يديها خلف ظهرها، وبدأت تجول ببطء في الغرفة، تجر فستانها الطويل بصوت خافت، كما كانت تفعل عندما تقع في حالة من التأمل العميق أو التفكير العميق - مثلما فعلت ليلة الأمس.

بينما كان شفيق يسترجع حسابات الأشهر الماضية في ذهنه.

هذه المرأة أسكرته بسعادته لم يكن قد حلم بها في حياته، وقد وفرت له من أجل هذه السعادة ديكوراً فاخراً لم يكن ابن الإمام الفقير قادراً على تخيله. كما أن طموحها هو الذي رفعه إلى منصب الوزير. ولو لم تظهر في طريقه، ولم تمسك بيده، ربما لم يكن ليطمح حتى إلى النيابة، ولما ترك حياته العسكرية. وعندما وصل إلى هذه الفكرة، تذكر أنه كان سيكون الآن، مثل أنور، ونيازي، وحافظ حققي، وغيرهم، جزءاً من هذا الجيش الذي وصل إلى أبواب إسطنبول ويستعد لدخولها. في تلك اللحظة، شعر فجأة باضطراب وانهايار في روحه وكيانه دون أن يدرك ذلك. وتمكن بصعوبة من حبس الدموع التي ارتفعت إلى عينيه، ولم يظهرها. والفرق بين وجوده هناك في الجيش وبين المسار الذي يسير فيه الآن هو التباين بين الحماسة القديمة والخوف الحالي.

ورفع رأسه نحو نعمت بغضب مفاجئ. لكنها كانت جميلة للغاية تلك



الليلة، وكانت سيطرتها عليه قوية جدًا لدرجة أنه تعجب من قدرته على الشعور بالكرهية تجاهها، أو حتى التفكير في إظهار تلك الكراهية.

توقفت نعمت عن التجول الآن، لقد اتخذت قرارها، بل وأعدت خطتها كاملة، وقالت:

— لا يمكن إخفاء هذا اللقاء، بل لا داعي لذلك. نعم، بما أن اللقاء جرى دون شهود، وبما أن السلطان قبلك وحدك في حضرته، فمن الممكن أن تروى الأشياء التي تمت مناقشتها بالطريقة التي ترغب فيها. يمكنك القول إنك أبلغت السلطان حميد بخطورة الوضع، وأصررت على ضرورة اتخاذ للخطوة التي يفكر فيها، وأن الانسحاب يجب أن يتم دون تأخير، وأنه لا يوجد وقت للانتظار. ومع ذلك، قد يصرح السلطان حميد بأنه تراجع عن فكرة التنازل، وأنه لن يتنازل عن العرش مهما كلف الأمر. في هذه الحالة، ستجد أنه لا خيار أمامك سوى الانضمام إلى القوات المتجهة نحو إسطنبول، وأنك قد رأيت أن مغادرة إسطنبول سرًا أصبح أمرًا ضروريًا، بعد فقدان الأمل من هذا الصدر الأعظم العاجز المتردد.

— لكنني على قناعة بأن السلطان حميد لن يسفك الدماء للدفاع عن نفسه، وأن جيش الحركة سيدخل إسطنبول دون أي مقاومة. إذن، عندما يسيطر الجيش على إسطنبول دون إراقة دماء، ألا يعني هذا أن الأحداث ستكذب أقوالي بشكل مروع؟

ترددت نعمت هانم للحظة، ثم استعادت ثقتها وقالت:

— ليس كذلك أبدًا! في ذلك الوقت يمكن قبول هذا الأمر على أنه نتيجة حركتك، ويمكن إقناع الآخرين بذلك أيضًا. على أي حال، بعد أن تسيطر على الوضع في الجيش الذي وصل إلى "سان ستيفانو"، وتصير أحد قادته،



أو حتى القائد الأول، لن يسألك أحد عن الحساب، بل ستكون أنت من يطلب الحساب من الآخرين.

بدا شفيق وكأنه غارق في تفكير مؤلم.

_ هل تجد هذه الحركة ضرورية لأن المحاولة في يلدز لم تكلل بالنجاح؟

_ نعم. البقاء سيكون بمثابة قبول المخاطر الكبيرة عن علم ودراية.

_ إذن، متى يجب أن أذهب؟

_ فوراً!

امتلاأت عيون شفيق فجأة بالألم. كان من الواضح أن رغباته قد انتفخت وسط كل هذا الألم والخوف. وهمس وهو يحدق إلى الأسفل:

_ ماذا لو ذهبت غداً!

نظرت نعمت هانم إلى الرجل الواقف أمامها، الذي كان، رغم أنه أصبح وزيراً بفضلها، غارقاً في الحب أكثر من السياسة، وكان قلبه مشغولاً بالعاطفة. فلو لم يرحل ومعه حرارة الشوق التي شعر بها بين ذراعيها، وإذا رحل بعد أن كاد ينسى الأشياء غير العادية الموجودة في الحياة لربما خافت عليه من أن يدافع عن حياته بشغف أقل. كان هذا الخوف ناتجاً عن رغبتها في تهدئة نفسها، أو ربما من محاولة إنكار رغباتها الحقيقية لنفسها.

فكانت نعمت تحب هذا الرجل الوسيم، ذا القامة الطويلة والشعر الأشقر والعينين الزرقاوين، وشاربه الأصفر، بل على الأقل كانت تحب المتعة التي قدمها لها. وهمست في أذنه:

_ لا يمكن تأجيل هذا الأمر إلى الغد. ولكن ليس هناك مانع من أن



تتأخر ساعتين في رحيلك.

ثم تركت نفسها في أحضان زوجها.

وعندما كانا على وشك المغادرة، سأها شفيق:

— هل يجب عليّ أخذ مبلغ كبير من المال احتياطيًا؟

كان على هذا الشاب الذي لم يتمكن بعد من تسديد ديون عقد القلادة الذي قدمه لزوجته كهدية في حفل الزفاف، كان عليه أن يأخذ هذا المال الكبير من الخزانة الموجودة في غرفة النوم والتي تخص نعمت. وبعد أن جمعها الفراش لمدة ثلاث ساعات، كان جسد المرأة قد نال ما أراد، وعلى الرغم من أنها كانت متعبة قليلاً، فحكمها على الأمور جعلها ترى أن أخذ هذا المال الكبير أمر غير ضروري، بل وخطير. وقالت:

— وجود كثير من المال معك قد يكون ضارًا. وقد يجلب لك كارثة إذا اكتشفوا ذلك. فقد يظنون أنك تشتري الضمائر بهذا المال الكبير، حتى لو لم تفعل ذلك، مما سيضر بسمعتك.



الفصل الثاني والخمسون

في منتصف الليل، وبعد ساعتين، غادر شفيق المنزل سرًا، مصطحبًا معه القائد القديم والصادق، كمال أفندي الأوخريدي، الذي كان قد رافقه في الأيام الأولى للثورة في إسطنبول، وقد تم تعيينه مؤخرًا في إحدى الوزارات، ومنذ ثلاثة أيام تم نقله إلى قلم وزارة الداخلية.

لم يتم إخبار كمال أفندي بالتفاصيل الدقيقة لكيفية وسبب اتخاذ قرار الرحيل. وكان الرجل المسكين الذي لم يعرف كيف تم اتخاذ القرار بالانضمام إلى الجيش، قد قرر بكل حماسة وشجاعة أن يرافق سيده في هذا المسعى، مستعدًا للتضحية بدمائه من أجل إعادة رفيق سيده القديم سالمًا، وهو يغمره الفرح والحماس للتوجه غدًا للعودة إلى إسطنبول بطلا.

بعد مغادرتهم، شعرت نعمت هانم فجأة بضيق خائق. كانت تظن أن مساء شهر إبريل على تلال نيشان طاشي يجب أن يكون لا يزال باردًا، فألقت معطفًا ثقيلًا على كتفها ونزلت إلى حديقة الحريم دون أن توقظ أحدًا. جلست على إحدى الكراسي المصنوعة من الحصير التي كانت قد وضعت هناك منذ يومين تحت أشجار الصنوبر، وغرقت في أفكارها لوقت طويل.

كان الجو باردًا فعليًا، ومع ذلك كان رأسها يحترق. في اللحظة التي كانت فيها تحاول إقناع نفسها بكل ما أوتيت من قوة بأن شفيق يمكنه أن يقود الجيش الشوري ويصبح قائداً له، وتوهمت أنه ربما يكون ذلك ممكنًا،



كانت مقتنعة تمامًا بذلك في تلك اللحظة. ولكن الآن، في هذه الليلة الباردة والساكنة، اعترفت لنفسها بشكل قاطع أن هذا كان أمرًا مستحيلًا. أما بالنسبة للسيد عبد الحميد الثاني، الذي سيكون لديه الوثائق والأدلة لإثبات أن موقف شفيق كان معاديًا للثوار، فهل يمكن له أن يقول "لقد حاول أحد أصدقائكم القدامى، أحد أصدقائكم المخلصين أن يحرضني على المقاومة والهجوم عليكم، لكنني رفضت. وبقيت وفياً للدستور والمجلس"؟

لو كان شفيق قد بقي في زاوية ما، ربما كان سيظهر عظمة ويتجنب الحديث عن هذه المبادرة. لكن بعد أن انضم إلى أعدائهم وهاجمهم، ألن يكون من الحماقة أن يظهر السلطان عبد الحميد هذه العظمة؟

بمعنى آخر، حتى لو تم قبول شفيق في جيش الثورة بعد أن تم مسح الماضي تمامًا، فإن هناك أشياء خطيرة ستظهر لاحقًا، أشياء لا يمكن غفرانها. شعرت المرأة الشابة فجأة أن البرد قد تسرب إلى جسدها بالكامل، وأصبحت بالقشعريرة حتى عظامها. وشدّت يديها معًا بإحكام وقالت:

__ المسكين! لقد أرسلته إلى الموت بقدمه.

ثم فكرت في إرسال رجال لاستدعائه. لكن من، ومن سيذهب إلى أين، وكيف سترسلهم؟ ثم فكرت أنه إذا تورط اسمها بأي شكل من الأشكال، فلن تتمكن من ادعاء أنها لا تعرف شيئًا عن الأمر.

إذا وصلت الرسالة التي سأكتبها له إلى يد شخص آخر في الطريق، أو إذا تم القبض على شفيق وتفتيش ملابسه وعثروا على هذه الرسالة، فإن هذه الخطوة قد تصبح خطيرة للغاية، وقد تأخذ طابعًا خطيرًا جدًا. أما إذا أرسلت له شخص ليطلب منه العودة على ألا يكون معه رسالة، فبالطبع لن يثق شفيق به، ولن يعود.



دخلت نعمت وصعدت إلى غرفتها.

كانت تمر عبر ثلاث غرف متتالية، أبوابها مفتوحة، ذهابًا وإيابًا، تذهب وتعود، وتستغرق دقائق طويلة هكذا. كان من المفترض أن يكون وزير الداخلية في حكومة الإمبراطورية العثمانية قد خرج من حدود مدينة إسطنبول، وغادر إلى الأراضي التي لا يسود فيها حكمها، ليصبح الآن لاجئًا. ثم فكرت: "إذا بقي شفيق هنا، لأصبح في خطر كبير. ربما ينضم إلى المنتصرين غداً، بل ويستطيع النجاة من هذا الخطر بمجرد أن يختبئ. لربما هو يختبر حظه. ولكن يا ليتني كنت قد أعطيته المبلغ الكبير الذي طلبه!"

كان الصباح يقترب. مرّت هذه الليلة كما لو كانت لا تختلف عن غيرها من الليالي، حيث تسلت الساعات بنفس النمط المنتظم والمستمر، وكل واحدة حلت محل الأخرى. أرادت نعمت أن تخلع معطفها وتدخل السرير كما لو أن هذه الليلة لا تختلف عن أي ليلة أخرى، لتغرق في النوم كما في أي ليلة.

دخلت السرير.. وضعت رأسها على الوسائد وسحبت الغطاء فوقها، ثم أغمضت عينيها. لكن فجأة، في لحظة مفاجئة من الخوف، جلست فجأة على السرير وتحادثت مع نفسها:

سيقومون باعتقال شفيق، وسيحاسبونه على ما عرضه في يلدز. ماذا لو قال إنه حصل على هذه الأفكار مني ليخفف من جريمته؟ لن يفعل ذلك بدافع الرغبة في الانتقام، لكن إذا فهم أنه سيُعدم، قد يدفعه ذلك للقيام بهذا الفعل بدافع الحب. سيموت هو، وإذا بقيتُ على قيد الحياة، قد يفكر في أنني سأتزوج شخصًا آخر لذلك قد يفضل أن نموت معًا. ومع ذلك، حتى لو لم يرتكب فعلًا حقيرًا، ولم يقل شيئًا، فإن تأثيري عليه معروف، وبالتالي



سيعتقدون أنني قد دفعت به إلى هذا الأمر. في هذا الصدد، سيقنع طلعت الجميع بذلك. باختصار، سيورطوني بالتأكيد متورطة في هذا الأمر.

صمتت لبرهة، ثم استأنفت حديثها المؤلم الذي انقطع:

في الواقع، ليس من الأمور الغريبة أن تُعاقب امرأة على جريمة سياسية بالإعدام. ولكن بعد الآن، سيبدأ الاتحاديون فترة حكمهم الأكثر قوة. وفقًا للقانون، وبحسب قوانينهم، فإنهم لن يفوتوا فرصة لإثبات أن السلطان، والولي العهد، والرجل والمرأة هم سواء في نظرهم، ولن يتركوا هذه الفرصة تفوتهم.

ثم أمسكت برقبته البيضاء والطويلة، كما لو كانت تحاول تجنب حبل المشنقة، بلطف بكلتا يديها واهتزت رأسها.

وقالت فجأة وبصوت عالٍ:

— يجب أن أهرب فورًا.

قالتها بسرعة وبصوت عالٍ حتى كأنها قد صرخت، وكان الصوت قويًا لدرجة أنها شعرت وكأن الجميع من بعيد قد سمعوا.

نعم، كان لا بد من الهروب. بما أن والدها قد توفي، لم يكن هناك شيء يربطها بإسطنبول أو يفرض عليها مغادرتها. أما بالنسبة لوالدها، فإن الوحدة التي ستعيشها ربما كانت ستسعددها أكثر من أشهر الحرية التي قد تمر بها.

في البداية، فتحت الخزانة المخفية داخل الجدار وجمعت جميع مجوهراتها، والأموال التي كانت تحتفظ بها في القصر، بعضها لم تتمكن من إعطائه لزوجها المسكين، ودفاتر البنك، ثم ارتدت ملابسها بسرعة ووضعت



الأشياء التي جمعتها، بالإضافة إلى بعض القطع من الملابس الداخلية، في حقيبة يدها. كان النهار بدأ يضيء. وبخطوات صامتة، دون أن تفكر في الأربعة أشهر التي قضتها في حب جنوبي بعد سنوات هادئة من حياتها كفتاة شابة، نزلت إلى الطابق السفلي وذهبت إلى غرفة حيث كانت تجلس مع جليستها، غولستو، وهي الفتاة المفضلة لدى خادمتها "تشيشميفلك"، التي كانت بمنزلة أم لها، وطرقت الباب بهدوء.

عندما فتحوا الباب ورأوها في الظلام الدامس، وهي ترتدي ملابسها جاهزة للخروج، شعروا بالدهشة. غير أن الجو العام لتلك الأيام الغربية لم يترك مجالاً لهذه الدهشة لتكون معتدلة.

دخلت نعمت وجلست على أحد المقاعد، وأشارت إلى غولستو أولاً، وقالت:

ـ ارتدي ملابسك بسرعة ولفي نفسك، دون أن تصدري صوتاً.

ثم توجهت إلى "تشيشميفلك" وشرحت الوضع بأسرع ما يمكن. كان زوجها قد رحل بعد منتصف الليل. لم تكن تعرف إلى أين، لكنها كانت تظن أنه سينضم إلى الجيش الثوري. هي أيضاً قررت أن تذهب إلى أوروبا برفقة غولستو. تركت القصر وكل شيء لخادمتها "تشيشميفلك"، وتركت اثني عشر شباكاً لها لتسحب بداية كل شهر من بنك "كريدي ليون". ومع ذلك، كانت تأمل في العودة في وقت أقرب. كانت "تشيشميفلك" ستدير كل شيء، وستقضي على الفوضى غير الضرورية، وستعتني أيضاً بأُمها، وستملاً مكانها في القصر كما في الماضي، ليس فقط مكانها هي، بل مكان والدها أيضاً.

بينما كانت نعمت تقول هذه الكلمات الأخيرة، شعرت بأن صوتها بدأ



يختنق. ولم تستطع "تشيشفيلك" أن تبدي أي مقاومة، فكانت تستمع بصمت.

قالت نعمت:

— لا، لا أريد دموعًا، يا فلّك. أنا بحاجة إلى القوة.

ثم، وكأنها تجدد في نفسها القوة لتمزح:

سأعود، لكن غولستو ربما لن تتمكن من العودة بعد الآن. فقد أزوجها لأحد الأمراء الفرنسيين في باريس.

كانت غولستو قد استعدت، ولم تخرج نعمت من الباب الكبير الذي كان يشد عليه مزلاج كبير، وكان فتحه يعتمد على إيقاظ الخادم، حتى لا توقظ أحداً، ولإبقاء مغادرتها سرية، بل خرجت من باب آخر يفتح على الزقاق الجانبي في حديقة الحريم، وهو الباب الذي كان شفيق قد استخدمه قبل ساعات قليلة.

لم يكن هناك أحد في الخارج، وكان الصباح القذر قد بدأ. ولم يكن من الصعب على نعمت أن تأخذ حقيبتها وتفر هاربة إذا ظهر أي بلطجي أمامها في تلك اللحظة. لكن الناس كانوا يعيشون أكثر الأوقات هدوءاً في أكثر الأوضاع خطورة؛ لذلك لم تشعر نعمت بأي قلق.

تجاوزوا الشوارع الفارغة التي تراكت فيها القمامة، وقد هرعت إليها الكلاب الضالة، حتى وصلوا إلى شارع الترام، حيث مروا أمام مدرسة الحربية. وفي تلك اللحظة، وجدوا عربة قديمة متوقفة، كان سائقها العجوز نائماً ومنفاخها مُغلّقاً. كانت العربة قديمة، والخليل مرهقة، وملابس السائق بائسة.



كانت نعمت قد قررت في اللحظة التي اتخذت فيها قرار الهروب أن تلجأ إلى السفارة الروسية. لكنها قررت عدم ذكر اسم السفارة للسائق، واكتفت بالقول: "إلى حي بي أوغلو"، ومع أن السائق ضرب الخيل بشدة بعصاه، إلا أن الخيول لم تتحرك، وكأن الطريق لا نهاية له.

لم تتحدث نعمت خلال الرحلة أبداً، وقبل وصولهم إلى السفارة، توقفت العربّة أمام متجر "بونمارشي"، ونزلت مع غولستو. عندما مروا أمام المتجر، تذكرت السنوات الثلاث التي كانت تنزل خلالها من عربتها لتدخل المتجر في الشتاء، وتذكرت لقاءها مع "سادات" وتبادل النظرات التي كانت بينهم. كانت أحياناً تتبادل بضع كلمات معه، ثم تبتعد بسرعة. وتساءلت في نفسها: ماذا كان يفعل في بغداد؟ من المحتمل أن حاله الآن أفضل بكثير وأكثر أماناً من حال شفيق، وحتى من حالها هي.

فوجئت نعمت بنفسها عندما تذكرت "سادات" في تلك اللحظة، وواصلت السير بسرعة بجانب غولستو. وعندما وصلوا إلى السفارة الروسية، دخلت بسرعة عبر الباب الحديدي للحديقة الأمامية، وتبعها غولستو. كانت السفارة قد أبدت اهتماماً خاصاً بمستقبل السلطان عبد الحميد، وعرضت عليه الحماية، وهي الحماية التي كان قد رفضها سابقاً. لذلك، وجدت نعمت أنها قد لجأت إلى المكان المناسب، باعتبارها ابنة وزير قديم معروف بولائه للسلطان، وزوجة وزير تعرضت للقمع على يد الاتحاد والترقي.

وفي صباح اليوم التالي، كتبت الصحف في إسطنبول عن محاولة انضمام وزير الداخلية إلى جيش الثورة، ولكن بعد أن تم اكتشاف أدلة على أنه كان قد عرض بعض المقترحات الإجرامية في يلدز، تم القبض عليه واحتجازه



في سان ستيفانو تمهيداً لمحاكمته. كما ذكرت الصحف أن زوجته كانت من بين آخر من هرب من إسطنبول. وذكرت أيضاً أن هذه المرأة، ابنة محمد شهاب الدين باشا، أحد رجال نظام السلطان عبد الحميد الثاني الطاعني، قد تكون على صلة بمؤامرات زوجها الإجرامية. وبالتالي، فإنها هربت على متن سفينة تابعة للبحرية الروسية إلى أوديسا، بالتعاون مع السفارة الأجنبية. خوفاً من انكشاف هذه المؤامرات.

وقد أظهرت الصحف بعض الحذر السياسي، حيث لم تذكر اسم السفارة التي لجأت إليها نعمت، ولكن من خلال تحديد السفينة الروسية المتجهة إلى أوديسا، كان من الواضح أين كانت قد لجأت.

النهاية

رومي حصار ١٩٤٦

